دكتور
عبد الستار فتح الله سعيد

المدخل
الى
التفسير الموضوعى

دار الطباعة والنشر الاسلامية

المدخل

إلى

التفسير الموضوعى

تأليف

الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد

كلية أصول الدين - القاهرة

دار الطباعة والنشر الإسلامية

الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وبنوره تشرق الظلمات ، والصلاة والسلام على رسوله ورحمته للعالمين ، وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . « أما بعد » :

فقد أنزل الله تعالى القرآن هدىً ونوراً للناس ، جمع لهم فيه أصول الدين ، ومعالم الشريعة ، وكرائم الأخلاق والأحكام ، وحقائق البعث والجزاء ، ودلائل الحق والصدق ، وأسرار الحياة والكون ، وسنن الاجتماع والاقتصاد ، وأخبار الأمم والدول ...

وبالجملة :

فقد جعله الله تعالى ــ مع وجازة اللفظ والحجم ــ دستوراً جامعاً ، ومرجعاً شاملاً ، قال تعالى :

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى ورَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ سورة النحل : ٨٩

ولذلك جاء نمطاً فريداً لا مثيل له ، وتحدى الله تعالى الإنس والجن أن يأتوا ﴿ بمثل هذا القرآن ﴾[١] ،أو ﴿بسورة من مثله ﴾[٢] فعجزوا ، فكان العجز أبلغ دلائل الإعجاز ، وكان الإعجاز أبلغ دليل على صدق الرسول ﷺ فى أنه يتلقاه من مولاه ، كما قال تعالى :

﴿ وإنَّكَ لَتُلَقَّى القرآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ سورة النمل : ٦ .

---

(١) من الآية رقم : ٨٨ من سورة الإسراء .

(٢) من الآية رقم : ٢٣ من سورة البقرة .

وبهذا الإعجاز والامتياز تفرد القرآن فى مبناه ومعناه جميعاً :
فكان معجزة النبى ودليله .
وكان أيضاً هداه وسبيله .
فصار بذلك معجزة خالدة دائمة .
لأنه دليل الرسالة الخاتمة .
وصوت النبوة الممدودة بعد : ﴿خاتم النبيين ﴾[1] .
وكلمة الله الباقية المحفوظة .
وشرعته ومنهاجه للناس أجمعين إلى يوم الدين .
وإلى هذا المعنى يشير قوله عليه السلام :

« من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يُوحَى إليه »[2] .

ومن هنا كانت هذه المعجزة متجددة العطاء ، وتتبدى بحجة الله البالغة فى كل زمان ، وتظهر جلائل حكمتها فى كل مقام ، فيرى الناس منها أتم ما يناسب أحوالهم فى كل عصر ، وكأن الوحى لا يزال يتنزل بها غضاً طرياً ، أو لكأنها « الكلمة الطيبة » التى عناها القرآن :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مثلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طيبةٍ أصْلها ثابت وفَرْعها فى السماء * تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ... ﴾ سورة إبراهيم : ٢٤ ، ٢٥ .

ولقد رُكّبت هذه المعجزة الإلهية لتخاطب الإنسان من جميع أقطاره ، ولتحرك منه العقل والقلب ، والحس والفطرة ، حتى يتعامل معها على أساس من الفقه البصير ، والتدبر الواعى ، قال تعالى :

---

(١) من الآية رقم : ٤٠ من سورة الأحزاب .

ونلاحظ هنا إضافة « خاتم » إلى الذوات : (لفظ النبيين) ، وليس إلى المعانى : (النبوات) ، إيذاناً ببقاء النبوة بعد انقطاع الأنبياء ، لأن الله ضمن حفظها بحفظ القرآن ، فلا حاجة إلى نبى جديد لوقوع الختم ، ولا حاجة إلى نبوة جديدة لبقاء النبوة ممدوده موصولة ، على عكس دعاوى الفرق الكافرة المرتدة كالبهائية ، والقديانية .

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك من حديث عبد الله بن عمرو .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً ﴾ سورة النساء : ٨٢ .

ولذلك أعجزت فصحاء العرب بغاية البلاغة والبيان .

وأعجزت علماء الأمم — ولا تزال — بنهاية الإحكام والإتقان .

وما من منصف يتدبر القرآن العظيم إلا أيقن بإعجازه المبين فى كل جوانبه ، وتطابقه مع حقائق العلم ، وسنن الاجتماع والكون ، وأسرار الحياة والنفس ، ولذلك يشهد له كل ذى رأى رشيد ، ويؤمن به كل موفق سعيد[1] .

إن كل كتاب ، وكل مذهب فى الأرض لا بد أن تبلى مع الأيام جدّته ، وتتجاوزه الوقائع والتجارب ، إلا القرآن العظيم ، فإنه يتجدد كلما جدّ فى حياة الناس جديد ، وآية ذلك أن هذا العصر الذى تسوده الدعوة إلى « التخصص العلمى الدقيق » ، ويغلب عليه الاتجاه إلى الفحص فى شعب العلوم وفروعها — قد وجد فى القرآن الكريم ما يلبى هذه الحاجة — بل يربو عليها — بأبواب من العلم ، وفنون من الحكمة ، كانت كامنة فى تضاعيف آياته البينات ، وسوره المباركات .

ومن هذا الباب ذلك اللون الجديد من تفسير القرآن الكريم موضوعياً ، والذى ينتقل الآن فى مدارج التكوين والاستحكام ، ليأخذ طوراً جديداً فى وجهته ، وطريقة عرضه وبحثه ، وفى نوعية الموضوعات التى يثيرها ويستخرجها من القرآن الكريم ، وفى الغاية التى يستهدفها ، وفى النتائج والآثار التى يتوخاها ، حتى يصبح فنا من فنون التفسير القرآنى قائماً برأسه ، ومتميزاً بحدوده ومعالمه ، ليجلى عظمة القرآن فى هذا الزمان ، وليبرز لوناً جديداً من وجوه إعجازه ، متمثلاً فى موضوعاته المتكاثرة ،

---

(١) أقرب مثال لذلك هو الكتاب الذى ألفه الطبيب الفرنسى : « موريس بوكاى » وترجم باسم : القرآن والتوراة والإنجيل والعلم — دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ، وانتهى فيه علمياً إلى إعلان الثقة التامة بالنص القرآنى وحده ... إلخ .

وانظر كتاب : لماذا أسلمنا ؟ ، وكتاب : « رجال ونساء أسلموا » ففيهما تفصيل واع عن شهادات عباقرة الأمم للقرآن ، وفضله عليهم حين قادهم إلى الإيمان .

وقضاياه التامة المتكاملة ، وحقائقه المترابطة ، رغم ما بين أجزائها من فواصل الزمان فى نجوم القرآن .

ولعل هذا هو ما قرره الحديث النبوى فى وصف القرآن :

« ... وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يَشْبع منه العلماء ، ولا يَخْلُقُ عن كثرة الرَّدّ ، ولا تنقضى عجائبه »[1] .

* * * * *

هذا وإن لى مع « التفسير الموضوعى » قصة قديمة :

فقد كنت فى مطلع الشباب أعمل فى إحدى حواضر صعيد مصر[2] ، ووفقنى الله تعالى إلى كتابة عدة محاضرات بعنوان : « مع القرآن العظيم » ، تحدثت فيها عن أغراض القرآن المكى فى العقائد : « الإلهيات — النبوات — السمعيات » ولقد تركت هذه الدراسة فى نفسى مشغلة عظيمة ، جعلت تستحثنى لأكتب كتاباً عن : « الأهداف الأساسية للقرآن فى مراحل النزول » ، وقد شرعت فى أوائله ، ثم حالت بينى وبينه أحداث جسام ، جعلته أملاً لا عملاً ، حتى ضاعت هذه الدراسات جملة ، فيما ضاع من مستور ومنشور ، حين وقعت محنة الإسلام الكبرى ، منذ عشرين سنة تقريباً !

ثم شاء الله تعالى أن تتجدد قصتى مع التفسير الموضوعى مرة أخرى ، حين أسند إلىّ تدريس عدة موضوعات منه[3] ، فطفقت أبحث عن كتاب يكون كالمقدمة أو المدخل لهذا اللون من التفسير ، لأجعله تأسيساً أو تمهيداً بين يدى دراسة الموضوعات ، فلم أظفر يومئذ بشىء ، وسألت الأستاذ

---

(1) رواه الترمذى والدارمى وغيرهما من حديث على بن أبى طالب مرفوعاً ، وهو حديث حسن فى أصح الأقوال .

ويخلق — بضم اللام — بمعنى يبلى ، أى أن القرآن لا يصيبه البلى والتمزق من كثرة التكرار والبحث فيه ، بل يزداد قوة وتماسكاً .

(2) مدينة سوهاج .

(3) لقسم الدراسات العليا ، بجامعة الإمام فى مدينة الرياض عام ١٤٠٠ هـ تقريباً .

الذى كان يدرس المادة قبلى ، ففاجأنى بأنه يدرس الموضوعات بلا مقدمات ، وعجبت من هذا المسلك ، إذ كيف يُفْهم العلم على هذا النمط ، بلا حدود ولا معالم ؟ وهل خلت المكتبة الإسلامية الزاخرة من هذه الدراسة الضرورية ، وبدا لى وجاهة ما كنت أتعجب منه قديماً من كلام العلماء ، حين قسموا العلوم العربية والدينية إلى ثلاثة أقسام :

الأول : قسم نضج واحترق ، وهو النحو والأصول .
الثانى : قسم نضج ولم يحترق ، وهو الفقه والحديث .
الثالث : قسم لم ينضج ولم يحترق ، وهو التفسير والبلاغة .

واستعنت الله تعالى فكتبت يومئذ مقدمة يسيرة فى بيان هذا اللون من التفسير ، أمليتها على الطلاب ، ثم استفدت فوائد جمة ـــ كنت أقيدها فى أوراق متناثرة ـــ حين زاولت تدريس الموضوعات ، وحين اشتغلت بكتابة ما يقارب ستين حلقة فى برنامج لإذاعة القرآن الكريم[1] أسميته : « مواقف قرآنية » .

ثم مضت السنون بشواغلها وأثقالها ، ولا تزال نفسى معلقة بدراسة هذا اللون من تفسير القرآن الكريم ، وبضرورة كتابة مقدمة علمية له ، تضبط قواعده ، وتحدد معالمه ، وتميز طرقه وأهدافه ، وتدل على مصادره ومراجعه ...

وقد أذن الله تعالى بذلك حين أسند إلىّ تدريس هذه المادة فى كلية أصول الدين بالقاهرة ، فرجعت إلى أوراق المتناثرة ، تحتنى رغبتى القديمة ، وشرعت فى البحث والتنقيب ، وتطلبت ما يكون قد جد من كتب فى هذا الشأن ، وقد تفضل أستاذنا وشيخنا العلامة « الدكتور » أحمد الكومي فأهدانى بحثاً له بعنوان : « التفسير الموضوعى فى القرآن الكريم » صدّره بمقدمة أفاد فيها وأجاد ، وحدد بها المعالم الأولى لهذا الفن ، وأبرز طريقته ، وهو بحث لم يسبق إليه ـــ فيما أعلم ـــ بل أظنه الخطوة العلمية الأولى فى هذا الباب ..

---

(١) بمدينة الرياض فى عام ١٤٠٢ هـ تقريباً .

ثم أهدانى الصديق الدكتور عبد الحى الفرماوى كتابه « البداية فى التفسير الموضوعى » ، الذى تابع فيه طريقة شيخنا « الكومى » ، وأضاف به العديد من الحقائق العلمية،ونبه إلى كثير من المراجع المفيدة .

ولقد نظرت فى هذين الكتابين ، واستفدت منهما فوائد جمة ــ جزى الله صاحبيهما خيراً ــ ، ثم أطلت التأمل فى أطراف الموضوع ، ورجعت إلى كثير من المراجع والكتب التى أشير إليها فى مواضعها إن شاء الله تعالى ، وبدا لى أن هذا العلم لا يزال محتاجاً إلى مزيد من الجهد ، والضبط ، والتحرير ، ورحم الله الإمام السيوطى حيث يقول : « ... فإن العلوم وإن كثر عددها ، وانتشر فى الخافقين مددها ، فغايتها بحر قعره لا يُدرَك ، ونهايتها طود شامخ لا يستطاع إلى ذروته أن يُسلَك ، ولهذا يُفتح لعالم بعد آخر من الأبواب ، ما لم يتطرق إليه من المتقدمين الأسباب ... »(١) .

لذلك سألت الله تعالى عوناً وتوفيقاً ، لأتابع جهود من سبقنى ، ولأمهد فى طريق هذا العلم ما قدر لى ، فكانت هذه الدراسة ، التى أسميتها :

« المدخل إلى التفسير الموضوعى »

رجاء أن تكون مدخل صدق إلى رحابه ، وأن أوفق فيها إلى ما حاولته من إبراز معالم هذا الفن الجديد ، وضبط خطوطه الجامعة ، ورد الفصول فيه إلى أصولها ، والفروع إلى قواعدها ، والمتفرقات إلى جوامعها ، وتمييز الأشباه والنظائر ، وتصحيح بعض الأخطاء التى وقع فيها بعض الكاتبين سواء بالزيادة أو النقصان ، أو بالخلط بين المسائل والأحوال ، والله تعالى يعلم أن لا حاجة ولا رغبة لى فى النقد ، أو تتبع الأخطاء ، وإنما القصد خدمة القرآن المجيد ، وتحديد ملامح هذا العلم النافع ، إيماناً بأهميته البالغة ، وضرورة أن كون له أسس ومعايير يرجع إليها من يزاوله ، ليحدد بها اتجاهه فى الطريق الصحيح ، وليزن عمله العلمى بميزان دقيق ، ولذلك نرجو أن يدلنا مشايخنا وإخواننا إلى ما فى دراستى هذه من أخطاء وعيوب ،

---

(١) انظر مقدمة كتاب : « الإتقان فى علوم القرآن » ص ٣ .

حتى تقوم لنا جميعاً « طريقة علمية مُحْكَمة » ينضبط بها التأليف فى هذا العلم الناشىء ، فلا يظل — كما هو الآن — مرسلاً متناثراً ، يأخذ لون كل كاتب ، وشاكلة كل باحث .

ولقد رجعت إلى كثير من الكتب التى تدرج الآن تحت عنوان : « التفسير الموضوعى » فوجدت بعضها لا يمت إليه إلا بنسب عليل ، أو سبب ضئيل ، وبعضها تلوح له الفكرة ، ثم تفلت عند التطبيق ، وربما كان العذر عند الجميع هو افتقاد المنهج والمعيار ، وهذا شأنُ كل فن فى بدايته ، حتى تستحكم — تباعاً — طريقته ، وتتأصل — بعد الجهد قواعده ، فيصبح طريقاً واضح المعالم ، يؤمه السالكون على بيّنة ، ويتناوله الكاتبون على بصيرة .

* * * * *

ولست أدعى أننى قلت هنا الكلمة الفاصلة ، أو خطوت الخطوة الخاتمة ، فلولا عون الله تعالى ما خططت حرفاً ، ثم الشواغل لا تدع لنا فراغاً ولا وقتاً ، ولذلك جئنا ببضاعة مزجاة ، ولكنها جهد المقل ، وصدقة الفقير ، فعسى ربنا أن يبلّغها الأضعاف المضاعفة بفضله العظيم ، وأن يبْلُغ بها ما يحب ويرضى من خدمة كتابه الكريم .

وإنى لأدعو مشائخى وإخوانى لمتابعة الجهود فى هذا الباب ، حتى يبلغ الكتاب أجله . ويستوى الزرع على سوقه ، فيصل هذا العلم إلى منتهاه بإذن الله ، على يد من يشاء من عباده العلماء ، ونرى « التفسير الموضوعى الجامع » ، الذى يشمل موضوعات القرآن الكريم ، ويكون موحد الأسلوب والمعالجة ، على أساس من طريقة علمية جامعة ، ليقوم مقام هذه الكتابات المتناثرة ، التى لا تجمعها رابطة واحدة ، ولا خطة مقاربة ، بل تختلف فيها المناهج والنماذج ، وتتعدد المذاهب والمشارب .

وهذا « التفسير الموضوعى » الجامع هو — الآن من أعظم وأجل ما تحتاجه المكتبة الدينية ، وتتطلبه مصلحة الدعوة الإسلامية ، من الناحيتين : العلمية والعملية .

وفى تقديرى أن هذا التفسير سيكون جواب القرآن ، على تساؤلات الإنسان ، وحيرته فى كل مكان ، بل سيكون زاداً للدعاة العاملين أنفسهم ، حين يريدون إقامة أمتهم على منهاج القرآن ، وشريعة الله رب العالمين ، ويكون نوراً بأيمانهم وهم يدعون الأمم الحائرة ، ويردون الشبهات الجائرة ، ويقيمون دليل الإعجاز المتجدد ، على صحة النبوة الخاتمة ، وضرورتها الدائمة للبشرية العانية .

والله تعالى هو المسئول والمأمول أن يوفق علماء الإسلام إلى تقريب هذا الأمل ، وتحقيق هذا العمل ، وأن يتجاوز عن تقصيرنا ، ويجعل عملنا كله خالصاً لوجهه الكريم . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

غرة ربيع الأول ١٠٤٦ هـ
القاهرة فى : ١٤ / ١١ / ١٩٨٥ م

كتبه الفقير إلى عفو الله
عبد الستار فتح الله سعيد

الباب الأول
حقائق التفسير الموضوعى وأصوله

- الفصل الأول : التفسير بمعناه العام
- الفصل الثانى: حقائـق التفسـير الموضوعى وأصوله

الفصل الأول

التفسير بمعناه العام

تحدث العلماء فى إسهاب عن التفسير والمفسرين ، ووضعوا الضوابط والتعريفات ، وأحكموا شروط المفسر وآدابه ، والقواعد التى ينبغى اتباعها ، وبينوا طبقات المفسرين ، وأقسام التفسير ، وتاريخه ... وغير ذلك كثير .

وسنتحدث فى هذا الفصل التمهيدى عن بعض هذه المعانى بإيجاز إن شاء الله تعالى ، ثم نخلص إلى مقصدنا الأصلى من هذه الدراسة وهو : « التفسير الموضوعى » الذى يحتاج إلى مزيد من البحث والدرس ، لأنه فن جديد فى طور التأسيس والتكوين ، ولذلك سنتوسع فى دراسته إن شاء الله من جانبيه : المنهجى المتعلق بالحقائق والأصول ، والموضوعى المتعلق بنماذجه التطبيقية من موضوعات القرآن الكريم ، فنقول وبالله التوفيق :

أولاً : تعريف التفسير :

التفسير لغة : مأخوذ من الفَسْر بمعنى البيان والكشف ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا** ﴾ الفرقان : ٣٣ ، ولم يرد هذا اللفظ فى القرآن الكريم إلا فى هذه الآية فقط .

واصطلاحاً : « علم يبحث فيه عن أحوال الكتاب العزيز ، من جهة نزوله ، وسنده ، وأدائه ، وألفاظه ، ومعانيه المتعلقة بالألفاظ ، والمتعلقة بالأحكام »[١] .

ثانياً : نشـــأته :

نزل القرآن الكريم على النبى ﷺ بلسان عربى مبين ، والعرب يومئذ فى

---

(١) مناهل العرفان فى علوم القرآن للزرقانى ج ١ ص ٤٧١ .

أزهى عصور البلاغة والبيان ، فكانوا يفهمونه ويعقلونه ، ويفسر لهم النبى ﷺ ما جدّ عليهم من مدلولاته ومصطلحاته ، خاصة فى شرائعه وأحكامه ، ثم يسألون رسول الله ﷺ إذا التبس عليهم شيء من حقائقه ، فيفصل لهم المجمل ، ويبين لهم ما خفى عليهم . فاجتمع لأصحابه ﷺ فى تفسير القرآن العلم الغزير :

من التفسير النبوى المعصوم بداية أو جواباً لسؤال .

ومن أصالتهم فى اللغة العربية التى نزل بها القرآن .

مع جودة أفهامهم ، وحِرْصهم على العلم والعمل ، ومعاصرتهم للوحى والتنزيل ، ومشاهدتهم قرائن الأحوال ، وملابسات الوقائع .

وقد تداولوا هذا العلم الغزير وتناقلوه ، وعلّموه وبلّغوه لغيرهم ، عن طريق المشافهة والرواية فى مساجدهم ، ومجالسهم ، وخطبهم ، وأجوبتهم للسائلين ، وإرشادهم للجاهلين ، وتصحيحهم للمخطئين .

وربما تناقلوا شيئاً منه عن طريق الكتابة فى صحف متناثرة ، أو رسائل متباعدة ، كالتى كان يكتبها الخلفاء الراشدون لعمالهم فى الأمصار ، أو المُفْتُون لسائليهم فى سائر ديار الإسلام ، لكن عمدتهم الأساسية كان التلقين والرواية،ومن أشهر مفسرى الصحابة رضى الله عنهم : على بن أبى طالب ، وابن مسعود ، وابن عباس .

ثالثاً : تدوين التفسير :

من المعلوم أن العرب كانوا أمة أمية ليس لديها علوم مدونة ، ولا كتب مؤلفة ، ولا معارف منظمة .

لذلك كان القرآن أول كتاب لديهم ، وكانت كتابته أول تدريب لهم على تدوين العلوم ، وحول هذا القرآن ولخدمته نشأت لديهم المعارف والفنون ، فى اللغة والدين ، وجمع الله تعالى حولهم بالإسلام عباقرة الأمم ، فتعاونوا على إقامة صروح باذخة للعلم لم يشهدها تاريخ الأرض .

وقد دون التفسير مع ما دون من علوم الإسلام ، ومرّ تدوينه بالمراحل التالية :

١ ــ مرحلة تدوين الآثار المسندة :

وفى هذه المرحلة جمعت الآثار المسندة « المرفوعة وما دونها » ، ودونت آثار التفسير باعتبارها جزءاً من الحديث النبوى ، ومن آثار الصحابة والتابعين ، ولذلك لم يلتزموا فيها الترتيب ، ولا التماثل ، وإنما جمعت الروايات حسبما تيسر لصاحب التصنيف ، ومن هذا النوع :

— مسند شعبة بن الحجاج « المتوفى : ١٦٠ هـ » .
— ومسند وكيع بن الجراح « ١٩٧ هـ » .
— ومسند سفيان بن عيينة « ١٩٨ هـ » .

٢ ــ مرحلة استقلال آثار التفسير بالتدوين :

وهذه المرحلة بداية تدوين التفسير باعتباره علماً مستقلاً ، له روايات خاصة به ، مجموعة ومتجاورة على ترتيب المصحف ، ومسنده مرفوعة للنبى ﷺ ، أو موقوفه على أصحابه ، أو مقطوعة عند التابعين ، ولا يشترط فيها الصحة ، وذلك كتفسير السُّدى ، ومقاتل بن سليمان .

٣ ــ مرحلة الآثار المسندة المستقلة الممزوجة بغيرها :

وذلك مثل ذكر الإعراب ، وتوجيه الأقوال ، والترجيح بعد الآثار ، وأشهر تفسير فى هذا هو تفسير الإمام الطبرى « ٣١٠ » هـ .

٤ ــ مرحلة الروايات المحذوفة الأسانيد :

وهى المرحلة التى تساهل فيها المفسرون فحذفوا أسانيد الروايات ، ونسبوا الأقوال إلى السابقين مباشرة ، فاختلط الصحيح بالفاسد ، وتعذر التمييز بين الأقوال ، وتسرب إلى التفسير الدخيل ، والموضوع المكذوب ، وأباطيل بنى إسرائيل ، والآراء الشاذة المنكرة .

٥ ــ مرحلة التفسير بالرأى :

وهذه المرحلة لم يلتفت فيها إلى الرواية جملة ، لا مسندة ولا مجردة ، وإنما صار المفسر يعتمد على النظر صحيحاً كان أو باطلاً ، ويلون التفسير بلون

تخصصه العلمي ، فاللغوى يحول التفسير إلى ميدان لغة وإعراب ، ونحو وصرف .. كتفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي .

والفقيه يستطرد إلى مسائل الفروع ، ومذاهب العلماء فيها ، وأدلتها ، وما يراه من ترجيح فيها ، فيغلب هذا الاستطراد الفقهي على التفسير ، ومثال هذا أحكام القرآن للجصاص « ٣٧٠ هـ » وأرباب الفلسفة والكلام يغرقون التفسير بمذاهبهم وآرائهم ، حتى تضيع معالم التفسير من كثرة التقريرات الفلسفية ، والاستدلالات العقلية ، كتفسير الفخر الرازى « ٦٠٦ » هـ .

وفى هذه المرحلة أُلِّفَت تفاسير الطوائف والفرق : كالشيعة ، والمعتزلة ، والصوفية ، والباطنية ، ولا تزال هذه المرحلة ممتدة إلى يومنا هذا ، مع تلونها بألوان العصور ، والبيئات ، والأشخاص ، والأحوال .

رابعاً : أنواع التفسير :

١ ــ مما سبق يتضح أن التفسير ــ من حيث مصدره ــ نوعان :

الأول : التفسير بالمأثور : وهو ما يكون مصدر التفسير فيه النقل والرواية الصحيحة ، كتفسير القرآن بالقرآن ، أو بالسنة الصحيحة ، أو بما روى عن الصحابة رضوان الله عليهم بطريق صحيح .

الثاني : التفسير بالرأى والاجتهاد العلمي الصحيح المستمد من اللغة ، والنظر فى النصوص والأدلة الشرعية ، على ما قرره العلماء .

أما ما عدا ذلك من روايات غير صحيحة ، أو رأى مذموم مستمد من الهوى فليس من مصادر التفسير ، وإنما هى أباطيل ترد على أصحابها .

٢ ــ مناهج المفسرين :

ويتنوع التفسير باعتبار طرائق المفسرين إلى أربعة أنواع :

الأول : التفسير التحليلي : وهو الذى يتبع فيه المفسر ترتيب المصحف ، فيشرح جملة من الآيات ، أو سورة ، أو القرآن كله على هذا النمط الموضعى ، ويبين ما يتعلق بكل آية من : مناسبتها ، وسبب نزولها ، ومفرداتها ، ونحو ذلك مما يتقرر به معناها .

الثانى : التفسير الإجمالى : هو الذى يبين فيه المفسر خلاصة معنى الآية أو الآيات التى يفسرها ، ويبرز مقاصدها ، ويشرح الدقيق من ألفاظها ، وسبب نزولها حتى يتقرر المعنى العام بلا دخول فى تفاصيل كثيرة .

« وهذا النوع قد سلكه المحدثون فى تقدمة التلاوة بالإذاعة والمقصود منه : إعطاء فكرة إجمالية عما يتلوه القارىء من القرآن الكريم ، حتى يكون السامع كاشفاً لمرامى ما يتلى عليه ، واعياً لمقاصده ، ملماً بأطرافه .. »[1] .

الثالث : التفسير الموضوعى : وهو الذى يجمع فيه المفسر الآيات الكريمة المتعلقة بموضوعٍ واحد ، على مستوى القرآن كله ، أو مجموعة من سوره « كالحواميم مثلاً » ويؤلف منها موضوعاً واحداً ، مترابط العناصر على ما نبينه تفصيلاً إن شاء الله تعالى .

الرابع : التفسير المقارن : وهو الذى يتتبع فيه المفسر آية من القرآن ، أو جملة من الآيات ، ليستطلع آراء المفسرين فيها ، ويقارن بين أقوالهم ، ويستخلص نتائج المقارنة سواء من معانى الآيات الكريمة ، أو من كلام المفسرين . وذلك كآيات الحج فى سورته ، أو آية الصيام فى سورة البقرة . إذا عرضت على أقوال المفسرين سلفاً وخلفاً ، وفى كتب المأثور ، أو الرأى المحمود .

٣ ــ ضابط جامــع :

يمكننا أن نرد هذه الفروع كلها إلى ضابط جامع للأنواع يرجع به التفسير إلى نوعين :

التفسير الموضعى : وهو الذى يرجع فيه المفسر إلى موضع واحد من القرآن الكريم ، متبعاً ترتيب الآيات فى سورها . وهذا اللون قد يكون بالمأثور ، أو بالرأى المحمود ، وقد يكون تحليلياً عند التفصيل ، أو إجمالياً عند الاختصار ، وقد يكون مقارناً إذا اتبع المفسر منهج الموازنة .

---

(١) التفسير الموضوعى للقرآن الكريم ص ١٣ بتصرف يسير ، وانظر فيه بياناً أوفى لهذه الأقسام جميعاً .

التفسير الموضوعى : -وهو الذى يلتزم فيه المفسر « موضوعاً » ، لا موضعاً بعينه ، فيجمع الآيات الكريمة من مواضعها ، ويقيم منها بناء متكاملاً يقرر موقف القرآن من قضية ما . وقد تدخل ألوان التفسير السابقة لخدمة هذا « الموضوع » ، فتأتى تبعاً للقصد الأول .

فإذا احتاج « الموضوع » إلى شرح مفردات وتراكيب بعض الآيات دخل التفسير « التحليلى » .

وإن احتاج إلى تقرير المعنى العام لبعض الآيات دخل التفسير « الإجمالى » .

وإن جاء برواية صحيحة دخل التفسير بالمأثور،وإن نظر المفسر فى الموضوع ، وتدبر جوانبه ، واستنبط منه استنباطاً علمياً بشروطه المقررة دخل الرأى المحمود .

وبذلك تجتمع ألوان التفاسير جميعاً ، وتتعاون ولا تتعارض ، وتأتلف لخدمة القرآن العظيم ، ولا تختلف .

* * *

الفصل الثانى

حقائق التفسير الموضوعى وأصوله

المبحث الأول

معنى التفسير الموضوعى

التفسير الموضوعى اصطلاح مستحدث شاع على ألسنة العلماء والدارسين ، وصار عنواناً للون جديد من ألوان التفسير ، وهو « مركب وصفى » يحتاج لبيان جزأيه قبل تعريفه :

١ ــ تعريف الجزأين :

وهومكون من كلمتين :

الكلمة الأولى : « التفسير » ، وقد سبق تعريفه ، وهو يستعمل هنا بمعنى أخص من معناه فى التفسير العام ، وأوضح ما يعرف به هو أنه :

« علم يبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم ، من حيث دلالته على مراد الله تعالى ، بقدر الطاقة البشرية »(١) .

فلا يشمل التعريف علم القراءات ، ولا علم الرسم القرآنى ، وكلاهما لا يتوقف عليه التفسير الموضوعى .

الكلمة الثانية : « الموضوعى » :

والموضوع فى اللغة مأخوذ من الوضع ، وهى مادة تدل على مطلق جعل

---

(١) انظر منهج الفرقان فى علوم القرآن ص ٦ للشيخ محمد على سلامة .

الشيء فى مكان ، سواء كان ذلك بمعنى : الحط والخفض ، أو بمعنى الإلقاء والتثبيت فى المكان .

واصطلاحاً يطلق على معان شتى :

١ ـ فهو فى اصطلاح المحدثين : الكلام المختلق المصنوع ، والمكذوب على رسول الله ﷺ عمداً أو سهواً ، وهو باطل لا أصل له(١) .

٢ ـ وهو عند المناطقة : « ما وضع ليحكم عليه بشيء » فالمبتدأ « موضوع » ليحكم عليه بالخبر ، والخبر محمول لأنه حمل على شيء هو المبتدأ ، وهكذا الفاعل « موضوع » ، والفعل محمول ...(٢) .

٣ ـ وعند علماء التفسير : القضية التى تعددت أساليبها وأماكنها فى القرآن الكريم ، ولها جهة واحدة تجمعها ، عن طريق المعنى الواحد ، أو الغاية الواحدة .

والمصطلحان الأول والثانى بعيدان تماماً عن المعنى الذى استخرجته من كلام علماء التفسير ، وهو المراد هنا .

٢ ـ تعريف التفسير الموضوعى « المركب الوصفى » :

بعد أن عرفنا جزأى التفسير الموضوعى يمكننا أن نضع له ـ باعتباره مركباً وصفياً ـ التعريف التالى :

هو علم يبحث فى قضايا القرآن الكريم ، المتحدة معنى أو غاية ، عن طريق جمع آياتها المتفرقة ، والنظر فيها ، على هيئة مخصوصة ، بشروط مخصوصة ، لبيان معناها ، واستخراج عناصرها ، وربطها برباط جامع .

فقولنا : « علم » جنس فى التعريف .

---

(١) انظر كتاب الوضع فى الحديث ص ١٠٧ ج ١ ، وانظر أيضاً قواعد فى علوم الحديث للتهانوى ص ٤٢ تعليق أبى غدة .

(٢) انظر كتاب : تحرير القواعد المنطقية لقطب الدين الرازى فى شرح الرسالة الشمسية للقزوينى ص ٩٦ .

وقولنا : « يبحث فى قضايا القرآن الكريم » قيد لإخراج التفسير الذى يبحث فى الألفاظ والتراكيب ونحوهما .

وقولنا : « المتحدة ... » يخرج القضايا التى ليس بينها وحدة فى المعنى أو فى الغاية ، فالبحث فيها لا يكون من التفسير الموضوعى .

وقولنا : « عن طريق جمع آياتها المتفرقة » لإخراج بحث القضية فى موضعها من السورة من خلال الآية التى يتناولها المفسر على ترتيب المصحف الشريف .

وبقية القيود هى لبيان صفة التفسير الموضوعى وخصائصه.

٣ ــ التفسير الموضوعى « بمعنى الفن المدون » :

وهو الذى تجمع فيه قضايا القرآن الكريم ، وتفسر تفسيراً علمياً على أساس الموضوع ، وتدون فى بحث مفرد ، أو كتاب جامع على نمط موسوعات التفسير التحليلى ، بحيث يرجع الباحث إلى الموضوع الذى يريده ، ويعلم موقف القرآن منه فى يسر وسهولة .

وهذا النوع من التفسير الموضوعى لا وجود له فى المكتبة الإسلامية إلى الآن ، رغم أهميته البالغة ، وسنرى بعد قليل أن الله تعالى قد هيأ الأسباب لميلاد هذا التفسير العظيم عن قريب بإذنه وفضله .

وقد بينا فى هذه الدراسة أن الموجود الآن إنما هو موضوعات متفرقة ، وأبحاث متناثرة ، معظمها لا يقوم على ضوابط علمية محددة .

٤ ــ تحقيق علمى حول لفظ : « الموضوعى » :

هذا ولم أجد أحداً تناول هذا اللفظ بالتحقيق والبيان ، مع أنه أساس هذا الفن العلمى المستحدث ، ولقد كنت أجد فى نفسى حرجاً بالغاً من استعمال هذا اللفظ وصفاً للتفسير ، لأسباب منها :

أ ــ لم أجد أحداً يستعمله لغة أو اصطلاحاً بمعنى : القضية الواحدة ، أو المسائل المشتركة فى معنى واحد .

ب ـــ أن مادة « الوضع » لغة يغلب استعمالها فى معنى الذم ، فيقال : رجل وضيع بمعنى دنىء ، ووُضِع فى تجارته أى خسر ، والتواضع أصله التذلل ، حتى إن المحدِّثين لم يجدوا وصفاً للروايات المكذوبة أبلغ من لفظ : « الموضوع » ، فكيف نصف به التفسير الذى هو بيان لأشرف الكلام ؟!

ولكنى من جانب آخر كنت أرى الكلمة قد ذاعت وشاعت على ألسنة العلماء من غير نكير ، ولعل لهم وجهاً علمياً تطمئن إليه النفس ،فجعلت ألتمسه حتى هديت ـــ بفضل الله ـــ إلى بعض أسراره ، ومن ذلك :

أولاً : رجعت إلى استعمالات الكلمة فى القرآن الكريم ، فوجدتها قد وردت « أربعاً وعشرين مرة » . فى معان متعددة ، منها فى المدح قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدى لِلْعَالَمِينَ** ﴾ آل عمران : ٩٦ ﴿ **والسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ** ﴾ سورة الرحمن : ٧ . ﴿ **فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ۝ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ** ﴾ الغاشية : ١٣ ، ١٤ .

فوصف الكعبة ، والميزان ، وأكواب الجنة بأنها موضوعة ينفى الحرج من استعمال الكلمة ، ويخرجها من غلبة الذم عليها ، إلى غلبة الخير عليها ، بل والمدح لها ، وبها[١] .

ثانياً : بقى وجه تصحيح استعمالها فى القضية الواحدة :

وقد رجعت إلى القرآن الكريم فوجدت من معانيها : إيجاب الشىء وإثباته فى المكان ، مثل : ﴿ **ونَضَعُ الموازينَ القِسْطَ** ﴾ سورة الأنبياء : ٤٧ .

فيكون وصف التفسير « بالموضوعى » ملحوظاً فيه هذالمعنى ، لأن المفسر يثبت كل آية فى موضعها من المعنى الكلى للقضية التى يبحثها . وبالتدقيق فى كتب اللغة وجدت إشارة إلى تصحيح إطلاق « الموضوع » على القضية الواحدة .

يقول الجوهرى رحمه الله :

« ... والضعة شجر من الحَمْض ... يقال ناقة واضعة للتى ترعاها ، قال

---

(١) راجع معجم ألفاظ القرآن الكريم ، ومفردات الراغب ، والمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، « مادة وضع فى جميعها » .

أبو زيد : إلا رعت الحمض حول الماء ولم تبرح قيل : وضعت تضع وضيعة فهى واضعة ، قال : وكذلك وضعتها أنا ، وهى موضوعة ، يتعدى ولا يتعدى[1] .

وقال الفيروزبادى رحمه الله :

« والإبل وضيعة رعت الإبل حول الماء ولم تبرح ... ، ووضعتها : ألزمتها المرعى فهى موضوعة »[2] .

فعلى هذا :

يكون « الموضوع » هنا بمعنى الشيء الذى له صفة معينة ، وألزم مكاناً معيناً ، لا يبرحه إلى غيره .

وهذا المعنى ملحوظ تماماً فى تقييد التفسير « بالموضوعى » ، لأنه يلزم المفسّر الارتباط بمعنى معين ، وصفة معينة ، لا يتعداهما إلى غيرهما حتى يفرغ من تفسير الموضوع الذى التزم به .

وهذا بخلاف « التفسير التحليلى » المعروف ، والذى يرتبط بترتيب المصحف فى تفسير الآيات ، مع تعدد المعانى والأغراض فيها حسبما أقتضته حكمة الله تعالى فى ترتيب النظم الجليل .

* * *

(١) الصحاح « تاج اللغة وصحاح العربية » جـ ٣ ص ١٣٠٠ « باب العين ، فصل الواو » .
(٢) القاموس المحيط جـ ٣ ص ٩٤ « باب العين ، فصل الواو » .

المبحث الثانى

أنواع التفسير الموضوعى ومناهجه

التفسير الموضوعى – باعتباره الرابطة – نوعان :

النوع الأول : التفسير الموضوعى العام ، وهو الذى بين أطراف موضوعه وحدة فى الغاية فقط ، وليس فى أصل المعنى .

وهذا النوع لا بد أن يكون لموضوعه أصل فى القرآن الكريم لا خلاف فيه ، ولكن تحته قضايا كثيرة متعددة ، لا يربط بينها إلا وحدة الغاية ، وهى وحدة محققة ، وإن كانت عامة بعيدة . مثال ذلك تفاسير آيات الأحكام جميعاً .

فموضوعها « وهو الأحكام القرآنية » موجود فى القرآن بيقين ، لكن تحته قضايا متعددة : كالصلاة ، والحدود ، والربا ، والعدّة ، والجهاد ...

وهذا النوع هو ما كان سائداً فى مؤلفات العلماء قديماًمثل :

– أحكام القرآن . للجصاص « ٣٧٠ هـ » .

– التبيان فى أقسام القرآن . لابن القيم « ٧٥١ هـ » .

وألف فيه كثير من العلماء حديثاً مثل :

– نيل المرام من تفسير آيات الأحكام . لمحمد صديق خان . « ١٣٠٧ هـ » .

– الدستور القرآنى فى شئون الحياة . لمحمد عزة دروزة . « ولد عام ١٣٠٥ هـ » .

وقد عد بعض العلماء فى هذا النوع ما يسمى « بالوحدة الموضوعية »[1]

---

(١) التفسير الموضوعى للشيخ الكومى ص ٢٢ ، والبداية فى التفسير الموضوعى للشيخ الفرماوى ص ٥١ .

فى القرآن كله ، أو سورة منه . بأن يجعل المفسر للسورةِ الكريمة هدفاً ينتزعه من ملاحظة معانيها ، ثم ينزل الآيات المتعددة فى السورة لتحقيق هذا الهدف .

وأرى ــ والله أعلم ــ أن هذا الضرب من الدراسات لا يدخل فى التفسير الموضوعى ، لأن موضوعه وهو « هدف السورة » المتعددة الآيات ، أمر التماسىّ، اجتهادى ، تختلف فيه الأنظار ، فكيف تصنف الآيات فى السورة على هدف مختلف على تحديده ؟ وكيف يقوم التفسير على الاحتمال ؟ مع أن الأصل فى التفسير الموضوعى أن يقوم على أساس النصوص ذاتها ، أو معانيها المتحققه .

وإلى أن تقوم لهذا الضرب خطة علمية محكمة القواعد ، واضحة المعالم فإننا نعده فى باب الدراسات القرآنية العامة ، وليس فى التفسير الموضوعى[1] .

النوع الثانى : التفسير الموضوعى الخاص .

وهو الذى يقوم على وحدة المعنى والغاية بين أطرافه وأفراده ، فتكون الرابطة بينها خاصة وقريبة .

مثال ذلك : « اليهود فى ضوء القرآن » .

فهذا موضوع محدد ، يدخل تحته آيات كثيرة كلها فى ذات الموضوع .

ويجوز أن يقيدالموضوع بقيد ما فيزداد تخصيصاً مثل : « عقيدة اليهود الضالة

---

(١) اتفق العلماء جميعاً على وجود « موضوعات فى القرآن » يمكن فرزها ، ودراستها بأعيانها كالصلاة ، والقسم ، والجهاد ونحو ذلك ، وكلّ له آيات تتعلق به مباشرة . واتفق جمهورهم على وجود مناسبة بين الآيات ، وعلى هدف للسورة ، لكن تحديد ذلك بعينه لا يزال صعب المنال ، لذلك يكثر فيه خلاف العلماء ، بل بعضهم يقصر ذلك على الآيات المتقاربة المعنى ، وينكر ما عداها « كالعز بن عبد السلام ، والشوكانى » . وقد حاول كثير من العلماء وضع قواعد تضبط هذا المعنى ، ولا يزال ذلك بعيداً لم يتقرر فى خطوط محددة ، وكان من أبرز من حاول ذلك حديثاً الشيخ الفراهى بالهند ، والشيخ محمد عبد الله دراز فى مصر « ١٣٧٩ هـ » فى كتابه : النبأ العظيم وكتابه : مدخل إلى القرآن الكريم .

وليان مدى الصعوبة فى هذا نجد الدكتور محمد القاسم فى كتابه « الإعجاز البيانى » : يذكر طريقة الشيخ البقاعى فى تقرير « وحدة سورة البقرة » ص ١٢٨ .

ثم يذكر طريقة الشيخ دراز فى هذا ، وهى مخالفة لطريقة البقاعى ص ٢١٣ .
ثم ينتقد طريقة الشيخ دراز « ص ٢٣٠ » مع أنها أصح وأوثق من طريقة البقاعى .

فى ضوء القرآن » ، وكلما زادت القيود قلت الأفراد ، وازداد التخصص ، فى اطراد عكسى،وهذا النوع هو أحدث الأنواع جميعاً ، وهو الاصطلاح العلمى الجديد ، وهو أولى النوعين باسم « التفسير الموضوعى » عند الإطلاق ، وهو الذى نكتب هذه الدراسة لتقريره وتحديده،لعظيم فائدته فى عصرنا هذا .

ومن الكتب المعاصرة فى هذا النوع:

— الصبر فى القرآن . للدكتور يوسف القرضاوى .

— اليهود فى القرآن الكريم . لمحمد عزة دروزة .

مناهج التفسير الموضوعى :

لم يتكلم العلماء عن مناهج المفسرين فى التفسيرالموضوعى بذاته ، لأنه لايزال فى طور التطور والاكتمال، وما نقوله هنا بعضه مستنبط من النظر فيما تم منه، وبعضه اقتراح واجتهاد لضبط هذه المناهج، وينقسم التفسير الموضوعى من هذا الجانب إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول : التفسير الموضوعى الوجيز :

وهو الذى يختار فيه المفسر عدة آيات لتفسر موضوعياً فى مقالة ، أو محاضرة ، أو خطبة ، أو حديث إذاعى ونحو ذلك .

وينبغى الاجتهاد فى اختيار الآيات الجامعة ، وضبط عناصر الموضوع ، حتى يأتى ممثلاً لموقف القرآن الكريم ما أمكن ذلك .

القسم الثانى : التفسير الموضوعى الوسيط :

وهو الذى يختار فيه المفسر موضوعاً يعرضه من خلال سورة واحدة ، « مثل العقيدة فى سورة الشورى مثلاً » ، أو من خلال مجموعة سور ، « كآل حم السبعة » ، أو من خلال القرآن الكريم كله ، وحينئذ يلزم المفسر اختيار جوامع الآيات الكريمة ، التى تمثل أطراف الموضوع وعناصره ، ثم يعرضها عرضاً وسطاً ، بعد النظر والموازنة!.

ومن أمثلة هذا النوع الموضوعات الملحقة بهذه الدراسة ، « الوحدانية

والتوحيد ــ المعية ــ التبعية ــ العلم فى القرآن الكريم » .

وهذا النمط هو الذى نرشحه لكتابة : « التفسير الموضوعى الجامع » ، والذى نرجو أن يضم تفسيراً لموضوعات القرآن الكريم ، مجموعة ومرتبة على نظام موضوعى علمى ، يرجع إليها العلماء والباحثون ، على نمط موسوعات التفسير التحليلى .

القسم الثالث : التفسير الموضوعى البسيط :

وهو الذى يقوم على الاستقراء والاستيعاب ، والإحصاء الشامل لموضوع ما ، فيجمع المفسر آياته كلها على الوجه التفصيلى « الذى سنذكره إن شاء الله فى طريقة التفسير الموضوعى »

وهذا النوع لا يتحقق عملياً إلا فى حالتين :

أ ــ إذا كان الموضوع فى القرآن محدوداً فى آيات معدودة ، يسهل على المفسر جمعها ، واستخراج عناصرها ، بلا حاجة إلى اختصار ، ولا اختيار ، ولا موازنة ، وذلك كموضوع : الجن فى القرآن ، أو قصة إسماعيل عليه السلام ، أو الصوم فى القرآن ونحو ذلك كثير .

ب ــ إذا كان الموضوع سيفرد فى كتاب مستقل ، خاصة الرسائل العلمية ، والتى من شأنها أن تقوم على الحصر والاستقصاء ، والتى يتفرغ لها دارسها ، ويتابعه مشرفه ، ويلاحقه مناقشوه ، فهذا أولى الأشياء بهذا القسم من التفسير الموضوعى . ومن موضوعات القرآن المفردة ، مايحتاج بيانه إلى رسائل ضخمة .

وفى تقديرى أن أصعب الأقسام هو القسم « الثانى » ، لأنه وسط بين طرفين ، فيحتاج المفسر أن يوازن بينهما ، ثم هو يحتاج إلى أناة وطول نظر فى الآيات الكريمة ليختار أجمعها ، وحتى لا يترك عنصراً من الموضوع .

أما النوع الثالث فصعوبته تتمثل فى طول الموضوع أحياناً ، لكنه لا يحتاج إلى الموازنة والاختيار ، لأنه أصلاً يقوم على الإحصاء والاستقصاء .

وسيأتى بإذن الله فى المبحث السادس تفصيل طريقة البحث فى التفسير الموضوعى .

المبحث الثالث

نشأة التفسير الموضوعى وتطوره

التفسير الموضوعى قديم النشأة ، وقد بدأ يسيراً ، ثم نما وتطور على مر العصور ، مثل غيره من العلوم والفنون ، حتى انتهى إلى اصطلاح محدد الأوصاف والمعالم ، ويمكننا إجمال ذلك فى المراحل التالية :

أولاً: فى العهد النبوى :

وهو عهد البداية للتفسير العام ، والموضوعى على سواء ، وكان ذلك عن طريق القرآن نفسه ، أو السنة النبوية :

أ ـــ أما القرآن الكريم فإننا نجد فيه آيات تحيل إلى آيات أخرى فى موضوعها ، ولا تفهم إحداها إلا بالأخرى ، وهذه دلالات وإشارات مبكرة ، تقرر أهمية النظر الموضوعى فى الآيات الكريمة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **وعلى الذين هادوا حرّمنا ما قَصَصْنا عليك مِنْ قبل** ﴾ سورة النحل : ١١٨

فهذه الآية الكريمة أحالت إلى ما نزل قبلها ، ولا بد من الرجوع إليه لنفهم من المحال عليه تفصيل هذا الإجمال ، وهو قوله تعالى :

﴿ **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُر ومن البقروالغنم حرّمنا عليهم شحُومَهُما إلّا ما حَمَلَتْ ظُهورُهما أو الْحَوَايَا أَوْ مَا اختلط بِعَظْم ذلك جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهم وإنَّا لصادقون** ﴾ سورة الأنعام : ١٤٦ .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى خطاباً للمسلمين فى أول سورة المائدة : ﴿ ... **أُحِلَّتْ لكم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلَّا مايُتْلى عليكم** ﴾[1]

فقوله تعالى ﴿ **إلا مايتلى عليكم** ﴾ يعنى من المحرمات ، وهذا لا يفهم

(١) الفعل المضارع هنا إما بمعنى الماضى ، أى « إلا ماتلى عليكم » قبل ذلك . أو بمعناه من الحال أو الاستقبال القريب أى إلا ما سيتلى عليكم الآن من المحرمات عليكم . والله أعلم .

تفصيلاً إلا بالرجوع إلى ما نزل قبل هذه الآية فى الأنعام : ١٤٥

﴿ قل لا أجدُ فيما أُوحِيَ إليّ مُحرّماً على طاعمٍ يَطْعَمُه إلّا أن يكون ميتةً أَوْ دماً مسفوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزيرٍ فإنه رِجْسٌ أو فسقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ الله به ﴾

أو مانزل بعد هذه الآية فى المائدة نفسها : ٣ .

﴿ حُرّمت عليكم الميتة والدّم ولحمُ الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة ... ﴾

وهناك أمثلة أخرى كثيرة فى القرآن الكريم مثل :

﴿ ورُسُلاً قد قصصناهم عليك مِنْ قبل .... ﴾ سورة النساء : ١٦٤ .

ب ــ أما السنة النبوية فتجد فيها أمثلة كثيرة لهذا الاتجاه ، ومن ذلك : « ما رواه الشيخـــان وغيرهما عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : **﴿ الّذِينَ آمنوا ولَمْ يَلْبِسُوا إيمَانهم بظلم ﴾**[1] شق ذلك على الناس . فقالوا يا رسول الله : وأينا لا يظلم نفسه ؟ قال : إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : **﴿ إن الشرك لظلمٌ عظيم ﴾**[2] ، إنما هو الشرك » .

فهذه إشارة نبوية واضحة بأن اللفظ الواحد قد تكون له معان متعددة فى القرآن الكريم ، وأن جمع الآيات يفيدنا فى تحديد المعنى المراد فى كل مقام ، كما أفادنا فى أن معنى : « الظلم » هنا هو : « الشرك » .

ومن أمثلة السنة أيضاً القواعد التفسيرية التى وردت فى السنة مثل قوله ﷺ : « ويل : واد فى جهنم ... »[3] .

وقوله : « كل حرف يذكر من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة »[4] فهذا إشارة إلى اتحاد معنى اللفظ فى مواضعه من القرآن الكريم ، تارة أخرى .

---

(١) سورة الأنعام : ٨٢ .

(٢) سورة لقمان : ١٣ .

(٣) رواه الترمذى بسند حسن من حديث أبى سعيد الخدرى .

(٤) رواه الإمام أحمد من حديث أبى سعيد أيضاً ، وانظر هذه الأحاديث وغيرهما فى خاتمة الإتقان فى علوم القرآن جـ ٢ ص ١٩١ وما بعدها .

ثانياً: فى عصر الصحابة والتابعين :

فقد اتسعت حياة المسلمين ، وجدّت عليهم مسائل وقضايا كثيرة ، واحتاج الناس إلى معرفة الفقه والأحكام الشرعية ، فأخذ العلماء يؤصلون المسائل ، ويحققون الشرائع والأحكام ، وذلك عن طريق جمع الآيات المتماثلة ، ومقارنتها لاستخراج الأحكام الشرعية منها ، كآيات الخمر ، والربا ، والعدة ، ونحوها .

ومن ذلك أنه أشكل على بعض الأئمة شرط : « إن ارتبتم » فى قوله تعالى : ﴿ **واللائى يَئِسْنَ من المحيض من نسائكم ــ إن ارتبتم ــ فعدتهن ثلاثة أشهر** ﴾[1] حتى رجع إلى آيات العدة فى سورة البقرة « ٢٢٨ ، ٢٣٤ » ، فعلم من تفسيرها أن بعض الأنصار قالوا : بقيت عدد لم تذكر وهى عدد الصغار والكبار فنزلت[2] .

ثالثاً : بداية التدوين وتطوره :

لذلك بدأ بعض العلماء فى جمع الآيات القرآنية ذات الوجهة الواحدة ، وإفراد تآليف خاصة بها ، خدمة للأحكام الشرعية :

● فألف قتادة بن دعامة السدوسى « ١١٨ هـ » كتاباً فى الناسخ والمنسوخ ، وهذا ضرب من التفسير الموضوعى بمعناه العام .

● وألف معمر بن المثنى « ٢٠٩ هـ » كتابه : « مجاز القرآن » ، تحدث فيه عن الآيات التى بينها رابطة عامة ، وهى « المجاز » بمعناه الواسع فى اصطلاح القدماء .

● وألف أبو محمد ابن قتيبة « ٢٧٦ هـ » كتابه :«تأويل مشكل القرآن » تحدث فيه عن كثير من الآيات ، لا يربطها إلا أنها « زعم الملحدون أن فيها تناقضاً ، واختلافاً ، ولحناً ، أو فساد نظم »[3] .

---

(١) سورة الطلاق : ٤ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير فى سورة الطلاق .

(٣) مقدمة الكتاب المطبوع ص ٢٢ وما بعدها .

وقد ألحق بكتابه باباً فى : « الألفاظ القرآنية الواحدة التى تأتى على معان متعددة »[1] ، ويورد معها الآيات الكريمة مثل لفظ : « القضاء — الهدى الأمّة ... » .

وهذا ضرب من التفسير الموضوعى فى مراحله الأولى ، وربما كان النواة التى بنى عليها بعض العلماء بعده مثل :

● أبى بكر السجستانى « ٣٣٠ هـ » الذى ألف كتاب « نزهة القلوب فى غريب القرآن » .

● والراغب الأصفهانى « ٥٠٢ » الذى ألف كتابه العظيم « مفردات القرآن »[2] جمع فيه المفردات على حروف الهجاء ، وبين معناها فى اللغة وفى استعمال القرآن .

● ثم ألف ابن القيم « ٧٥١ هـ » كتابه الشهير : « التبيان فى أقسام القرآن » ، وقد جمع فيه الآيات التى أقسم الله تعالى فيها بذاته ، أو بصفاته ، أو بخلق من خلقه ، وقد استطرد فيه استطرادات علمية نافعة ، لكنها طغت على الجانب الموضوعى فيه .

● وقد ألف معاصره ابن كثير « ٧٧٤ هـ » تفسيره المشهور ، وهو تفسير يسير على الترتيب المصحفى ، لكنه يذكر عند تفسير الآية بعض ما يماثلها من سور أخرى ، وهذا ضرب من التفسير الموضوعى الموجز ، مبثوث فى تضاعيف تفسيره الكبير .

● ومن هذا النوع الموضوعى العام الكتب الكثيرة التى ألفت فى تفسير آيات الأحكام فى مختلف العصور مثل :

— أحكام القرآن للجصاص « ٣٧٠ هـ » .

— أحكام القرآن ، لابن العربى « ٥٤٣ هـ » .

---

(١) انظر ص ٤٣٩ — ٥١٥ من الكتاب .

(٢) يطلق بعض العلماء على كتاب الراغب اسم : غريب القرآن ، وهذا غريب منهم ، لأن الكتاب فى بيان المفردات مطلقاً ، وتحديد الفروق بين استعمالاتها ، والراغب نفسه يقول فى مقدمته : « وقد استخرت الله تعالى فى إملاء كتاب مستوفى فيه مفردات ألفاظ القرآن على حروف التهجى » .

— نيل المرام من تفسير آيات الأحكام ، لمحمد صديق خان « ١٣٠٧ هـ » .

● وفى عصرنا هذا ألفت كتب كثيرة فى التفسير الموضوعى بمعناه العام مثل :

— سيرة الرسول « صور مقتبسة من القرآن الكريم » لمحمد عزة دروزة « ولد ١٣٠٥ هـ » .

— التفسير البيانى للقرآن الكريم[١] للدكتورة عائشة عبد الرحمن « بنت الشاطىء » .

— تفسير الآيات الكونية « للدكتور » عبد الله شحاته .

وغير ذلك كثير يفوق الحصر ، إلا أن هنا « تنبيهات » مهمة :

أ — هذه الكتب المذكورة جميعها هى من باب : « التفسير الموضوعى » بمعناه العام ، الذى يقوم على الرابطة البعيدة بين قضاياه المتعددة ، كتفسير آيات الأحكام ، فالرابطة بينها كون كل منها حكماً شرعياً ، وليس بينها وحدة موضوعية فى المعنى ، لأن منها آيات فى الصلاة ، وأخرى فى الربا ، وثالثة فى الخمر وهكذا .

وهذا غير التفسير الموضوعى بمعناه الخاص كما بينا .

ب — ليس من التفسير الموضوعى بنوعيه « العام أو الخاص » الكتب التى تتناول أبحاثاً تتعلق بالقرآن فى خصائصه ، أو صفاته ، ونحوهما من الأمور التى لم ترد لها آيات فى القرآن الكريم ، والتى يتناولها الباحث لا على نمط التفسير ، وإنما على طريقة البحث المطلق ، والمقارنة العلمية والاستنباط ، مما يندرج تحت فنون أخرى غير التفسير الموضوعى مثل : « علوم القرآن » أو « دراسات قرآنية » ، ونحو ذلك ، ومن هذه الكتب إعجاز القرآن »[٢]

(١) هو لون من التفسير الموضوعى فى جانبه الأدبى البيانى « أنظر ص ١٠ من مقدمة الكاتبة لكتابها وهو يدور حول سبع سور من جزء « عمّ » فقط .

(٢) فإن المؤلف يقارن أسلوب القرآن ، وتراكيبه ، وجمله بأمثالها من الكلام العربى ولا يفسر نصاً بعينه ، فإذا جمع الباحث آيات التحدى تحت عنوان الإعجاز كان ذلك تفسيراً موضوعياً=

للباقلانى ، و « إعجاز القرآن » للرافعى ، « وترجمة القرآن وأحكامها » للشيخ محمد مصطفى المراغى ، وكتاب : «الأدلة العلمية على جواز ترجمة معانى القرآن إلى اللغات الأجنبية » لمحمد فريد وجدى ... إلخ .

جـ ـــ ليس من التفسير الموضوعى الكتب التى عنيت ببيان المناسبات بين الآيات والسور ، لأن هذه المناسبات هى أمور التماسية اجتهادية ، فهى ـــ إن صحت ـــ صفة للنصوص ، وليست نصوصاً ، ولذلك لا يصح إدراجها فى كتب التفسير الموضوعى بنوعيه ، ومنها كتاب : « نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور » لبرهان الدين البقاعى « ٨٨٥ هـ » ، وهو كتاب به كثير من الاعتساف والتكلف ، ويكثر من نقل النصوص الباطلة عن أهل الكتاب بلا بيان لزيفها ، مع اجتهاد البقاعى رحمه الله فى تقرير أصل القضية ، وتوفيقه فى القليل منها .

رابعاً : الاختصاص محور التفسير الموضوعى الجديد :

وفى نهاية المطاف ، يتجه التفسير الموضوعى نحو الاكتمال ، حيث اتجه التأليف فيه وجهة جديدة ، تقوم على تحديد الموضوع ، وتناوله من جانبه الخاص ، وربط عناصره ومسائله برباطها الأقرب ، ليتم التمايز بين الموضوعات القرآنية المتكاثرة ، وليعلم ما فى كل منها من وجوه الإحكام والكمال ، وما فيها مجتمعة من وجوه الترابط والتمام .

وعلى هذا : يتحدد مصطلح « التفسير الموضوعى » الآن فى هذا النوع الخاص ، الذى يتلخص فى :

جمع الآيات الكريمة ذات المعنى الواحد ، ووضعها تحت عنوان واحد ، والنظر فيها بما يؤلف منها موضوعاً واحداً ، مستخرجاً من الآيات الكريمة على هيئة مخصوصة .

وهذا منهج جديد على الدراسات التفسيرية والقرآنية ، وقد دعت إليه حاجة المجتمع ، وظروف العصر ، وهيأ الله تعالى الأسباب لإبرازه واتجاهه نحو الاكتمال ، على أيدى المسلمين وغيرهم مصداقاً لوعده الوثيق : ﴿ **إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنا له لحافظون** ﴾ الحجر : ٩ .

=والفرق: أن الأول هو صفات النص وخصائصه ، والثانى هو ذات النصوص التى هى مجال التفسير الموضوعى .

المبحث الرابع

أسباب بروز وتطور هذاالفن التفسيرى الجديد

كان لبروز هذا اللون الموضوعى أسباب كثيرة ، هيأها الله تعالى له ، وعملت على إظهاره وانتشاره ، وتدرجه فى أطوار العلمية نحو التأصيل والاكتمال ، ومن هذه الأسباب :

١ ــ اتجاه البحث العلمى فى هذا العصر نحو مزيد من التخصص الدقيق ، والعكوف على دراسة الشعب والفروع ، على وجه الاستقراء والاستيعاب ، والتوسع فى متابعة أجزاء القضايا وتفاريقها .. لذلك اتجهت الدراسات القرآنية هذه الوجهة حتى تخاطب عصرها بطريقته .

ومن أجلِّ الكتب التى لها اتصال بالتفسير الموضوعى كتاب : « دراسات لأسلوب القرآن الكريم » للشيخ محمد عبد الخالق عضيمة « توفى عام ١٤٠٥ هـ » رحمه الله ، وهو موسوعة علمية لم يسبق إليها ، وتقع فى عشرة أجزاء كبيرة ، وتقوم على أساس الاستقراء التام لأساليب القرآن الكريم . وسننبه على شيء من ذلك فى المباحث التالية إن شاء الله تعالى .

٢ ــ دخول عناصر جديدة إلى ميدان الدراسات الإسلامية والقرآنية من غير المسلمين ، وعلى رأسهم طوائف المبشرين والمستشرقين ، الذين اتجهوا للتوسع فى الدراسات الإسلامية لخدمة أهداف كنائسهم ، أو دولهم التى أغارت على العالم الإسلامى .

وقد أقام هؤلاء مراكز علمية ، تنفق عليها الأموال الطائلة من الكنائس ، والدول ، والجمعيات(١) ، لدراسة الإسلام والمسلمين حتى يكيدوا لهم على

(١) أقامت الدول التى احتلت العالم الإسلامى ، أو التى تطمع فى أسلابه مراكز علمية فى ديارها مثل : هولندا ، وانجلترا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، وألمانيا ، وروسيا ، وأمريكا . وقامت هذه المراكز بأخطر الأدوار فى غزو المسلمين فكرياً ، وتربية أجيال منهم على الولاء للكفار عن طريق الثقافة والعلوم .

بصر ومعرفة .

ولذلك اتجه المستشرقون وأضرابهم إلى نشر ودراسة الكتب الإسلامية ، ووضع المعاجم ، والفهارس التى تعينهم على هذه الدراسة ، حتى يصلوا إلى أهدافهم التى رموا إليها ابتداء ، من الطعن فى الإسلام ، والقرآن ، والسنة النبوية .. إلخ .

وقد نتج من ذلك أمران متناقضان :

الأول : ظهور أساليب جديدة نافعة فى فهرسة العلوم الإسلامية ، وتبويبها ، وضبط أطرافها تسهيلاً للرجوع إليها[1] .

ومن ذلك كتاب : « نجوم الفرقان فى أطراف القرآن » الذى ألفه المستشرق الألمانى : « فلوجل » ونشر لأول مرة سنة ١٨٤٢ م وكتاب : « تفصيل موضوعات القرآن » للفرنسى « جول لابوم » وهما فهرسة للألفاظ ، والموضوعات القرآنية ، ومع صحة أصل الفكرة التى قام عليها الكتابان ، فقد اشتملا على أخطاء جمة ، شأن أعمال المستشرقين غالباً .

الثانى : ظهور شبه ومطاعن شديدة فى القرآن ، وسائر جوانب وعلوم الإسلام ، وكان ذلك يقع نتيجة الأخطاء العلمية فى فهم المستشرقين للإسلام فهماً صحيحاً ، أو نتيجة حقد ، ودس ، وكيد للإسلام تحت ستار الدراسات العلمية ، والمنهجية ، وهذا هو الغالب .

٣ ــ جهود علماء المسلمين :

فقد هال الغيورين من علماء الإسلام ما تحويه كتب ودراسات هؤلاء ، من أخطاء وخطايا ، ونقد لكل مقدس موثق من عقائد المسلمين ودينهم ، فهبوا لمجابهة الغارة الكافرة ، وتمثل ذلك فى اتجاهات شتى :

أ ــ ترجمة أعمال المستشرقين النافعة ، وضبطها ، وتنقيتها مما شابها من أخطاء العلم ، وأحقاد القوم ، وكان من ذلك ما نقله الأستاذ محمد فؤاد عبد

---

(١) كان علماء الإسلام أول من ابتكر هذه الطريقة العلمية ، ومنها « مفردات الراغب » فى التفسير ، و « ذخائر المواريث فى الدلالة على مواضع الحديث » فى السنة النبوية وغيرهما كثير جداً ، ولم يصل هذا الجانب إلى غايته عند القدماء لكثرة حفاظهم ، واستيعابهم للمتون والفنون المختلفة .

الباقى رحمه الله إلى العربية من كتابى : « فلوجل » ، وجول لابوم « تحت اسم :

— المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

— تفصيل آيات القرآن الحكيم . « وألحق به كتاب (المستدرك) لإدوار مونتيه » .

ب — الرد العلمى على شبهات المبشرين ، ومطاعن المستشرقين ، وبيان عظمة القرآن ، وارتقائه فوق كل الشكوك والأوهام ، وحياً ، وكتابة ، وحفظاً ، وتواتراً ، وأغراضاً ، وسعة فى الوضوعات ، وشمولاً لحقائق الحياة ، وسنن الاجتماع ، ومن ذلك :

— الوحى المحمدى . للشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله .

— مدخل إلى القرآن الكريم .

— دستور الأخلاق فى القرآن ، وهما للدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله ، وقد كتبهما باللغة الفرنسية، ثم ترجما أخيراً إلى العربية.

ج — العمل العلمى الجاد لسد حاجة المسلمين ، والمكتبة الإسلامية ، من البحوث التى يتطلبها العصر الحاضر ، سواء من ناحية بعض الموضوعات التى جدّت على حياة الناس ، أو بتجديد وسائل البحث ، والدراسات الإحصائية الجامعة .

ولم يكن هناك تخطيط محدد لهذا العمل ، لأن المسلمين كانوا فى غمرة الفوضى والضياع ، خاصة بعد إسقاط « الخلافة » ، وسقوط المسلمين جميعاً فى قبضة الكفار ، ولكن الله تعالى قيض لهذا العمل أفراداً من العلماء ، وبعض الجامعات والمجامع العلمية ، والجمعيات الدينية فبذلوا جميعاً جهوداً مضنية فى هذا السبيل ، ولا يزالون يتتابعون فى خدمة القرآن ، وتبصير المسلمين بعظمة الكنز الذى بين أيديهم ، وتقريب علومه إلى مثقفيهم وجمهورهم ، بالمعاجم الإسلامية ، والفهرسة العلمية ، وتجديد طرائق البحث ، ومناهج التأليف ، مما أنتج حركة علمية دينية واسعة النطاق فى أرجاء العالم الإسلامى كله ، حملت لواء الدفاع عن الإسلام والقرآن أولاً ، ثم تحولت إلى منازلة الكفار ببيان فضل

الإسلام ، وتفوقه عما لديهم من مذاهب الفكر والاعتقاد ، ومناهج الحضارة ، وقوانين الحكم والاقتصاد ، وشرائع الأخلاق والاجتماع.

ومن خلال هذا كله برزت أبحاث « التفسير الموضوعى » ، وتتابعت خطوطه الأولى ، وأخذت تتجه نحو التأصيل والاكتمال .

ومن الكتب التى تتصل بهذا الجانب :

١ ــ معجم غريب القرآن « مستخرجاً من صحيح البخارى » . لمحمد فؤاد عبد الباقى رحمه الله[١] .

٢ ــ معجم ألفاظ القرآن الكريم . وقد أصدره مجمع اللغة العربية ، بواسطة لجنة من العلماء[٢] .

وهذا الكتاب من أجل الكتب لخدمة التفسير الموضوعى ، وهو مزيج من « مفردات » الراغب ، والمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، مع مصادره الأخرى من كتب التفسير واللغة .

٣ ــ المرشد إلى آيات القرآن الكريم وكلماته . لمحمد فارس بركات .

٤ ــ فتح الرحمن لطالب آيات القرآن . لفيض الله العلمى .

٥ ــ مصباح الإخوان لتحريات القرآن . ليحيى حلمى بن حسين قسطمونى وهو أجمع كتب الفهرسة القرآنية جميعاً لأنه :

« أحصى لنا ألفاظ القرآن ، لم يترك منها لفظاً ... غير أنه لم يذكر الآيات ، وإنما إكتفى بذكر أرقام للآيات ... يشيع فيها الاضطراب ، ولا سيما فى طوال المفصل ، وقد اعتذر عن هذا فى مقدمة كتابه التي كتبها باللغة التركية بأنه لم يكن لديه مصحف مرقم الآيات ، لأن هذا المصحف لم يظهر إلا بعد أن فرغ من كتابه »[٣] .

---

(١) راجع « التصدير » الذى كتبه الدكتور محمد حسين هيكل لهذا الكتاب ، ففيه دراسة عن التفسير الموضوعى ، ونشأة المعاجم الإسلامية ، وخاصة « معجم الألفاظ القرآنية » .

(٢) وطريقته أن يتتبع اللفظ فى استعماله اللغوى والقرآنى ، ويثبت عدد ورود مادة اللفظ فى القرآن ، ويذكر الآيات على سبيل الإحصاء ، تارة بلفظها ، وتارة بعددها .

(٣) دراسات لأسلوب القرآن الكريم للشيخ محمد عضيمة رحمه الله ج ١ د المقدمة ، ص ٣ مع تصرف يسير .

٦ ـ دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، للشيخ محمد عبد الخالق عضيمه رحمه الله ، وهو يقع فى عشرة أجزاء كبيرة ، ويتبع طريقة الإحصاء التام للأدوات والحروف القرآنية ، وما فيه من دقائق النحو والصرف ، واختلاف الأساليب .

وهو من أجل الكتب لمن يريد التأليف فى تفسير القرآن الكريم موضوعياً ، لأنه يحدد له فوارق الحروف والكلمات ، وأنواع الأساليب والدلالات .

٧ ـ المعجم المفهرس « لموضوعات » القرآن الكريم . للدكتور عبد الصبور مرزوق . وهو كتاب يوشك على التمام إن شاء الله ، وقد أطلعنى المؤلف على قطعة منه مخطوطة ، وهو حصر جامع لموضوعات القرآن الكريم ، ومرتب على حروف المعجم ، وفيه إحالات لربط الموضوعات ، فيبدأ بالحرف ، ثم يذكر تحته عنوان الباب ، ثم يبدأ الموضوع بما يسميه « آية الباب » ، ثم يردف ذلك بما يسميه : « تصنيف داخلى للموضوع » وفق عناوين فرعية ، ثم يذكر تحت كل عنوان آياته .

وعسى أن يصدر الكتاب قريباً إن شاء الله ، وأن يكون أساساً صالحاً يقوم عليه « التفسير الموضوعى الجامع »[1] .

٨ ـ الرسائل العلمية :

فقد تنبهت الجامعات الإسلامية فى شتى أقطار الإسلام ــ وعلى رأسها كلية أصول الدين بالأزهر الشريف ــ إلى ضرورة العناية بالدراسات الإسلامية ، وخاصة الموضوعات القرآنية ، لحاجة المسلمين إليها فى معرفة حقائق القرآن ، وللرد على المطاعن والشبهات التى يثيرها الملحدون ، وأعداء الإسلام .

وقد قدم مئات من طلاب الدراسات العليا رسائل علمية جادة ، فى عديد من موضوعات القرآن الكريم ، وكثير منها يقترب من تطبيق مناهج التفسير

---

(١) ما ذكرته هنا هو على سبيل المثال فقط ، والكتب فى هذا الشأن أكثر من أن تحصى ، سواء فيما يتصل بموضوعات القرآن ، أو غيرها من العلوم الإسلامية .

الموضوعى ، مما يجعلها تمهيداً صالحاً ، وأساساً جيداً لاكتمال هذا العلم فى اصطلاحه الجديد .

ومن هذه الرسائل : رسالتى التى عنوانها : المنهاج القرآنى فى التشريع[1] .

ولا يزال الطريق مفتوحاً لمزيد من هذه الرسائل ، وندعو الله تعالى أن يوفق كلية أصول الدين ، أو أى جامعة إسلامية لِتَبَنِّى إخراج موسوعة : «**التفسير الموضوعى الجامع**» بواسطة جهود النابهين من طلابها وعلمائها . ولكن لا بد لذلك من خطة علمية محكمة ، ومتابعة يقظة ، حتى تبدأ الجهود وتستمر على أصول معلومة سلفاً ، فلا تتفاوت الأجزاء بتفاوت الطلاب ، أو تصبح حقلاً للتجارب العقيمة ، كما فعل بأخوات لهذه الدراسات من قبل .

* * *

(١) لم تطبع بعد ، وأبحاثها قريبة من نمط التفسير الموضوعى .

المبحث الخامس

أهمية التفسير الموضوعى وضرورته وفوائده

للتفسير الموضوعى ــ بمعناه الخاص ــ أهمية فائقة ، وضرورة بالغة فى هذا العصر الذى تقاربت فيه المسافات ، وتشابكت فيه الأقطار والأمصار ، واختلطت المذاهب والأفكار ، وصار كل حزب بما لديهم فرحون ، وكل فريق يصارع من أجل اكتساب عقول الأمم والشعوب ، وقلوب الأفراد والجماعات ، ولذلك تبدو الحاجة الماسة إلى هذا اللون من التفسير ، لما يحققه من فوائد أساسية منها :

١ ــ إبراز إعجاز القرآن : على وجه يلائم العصر :

ذلك لأن القرآن إذا كان قد أعجز الأقدمين بلفظه ونظمه وبلاغته ، فإن الآخرين لا بد لإعجازهم من وجه مستمر المدى ، استمرار التحدى ، وهذا يتمثل فى معانى القرآن وموضوعاته من طريقين :

أ ــ شمول القرآن لكل هذه الموضوعات المتكاثرة مع قلة حجمه ، ووجازة لفظه ، وهذا يخالف معهود الكتب ، وقدرات البشر ، كما قال الراغب[١] رحمه الله : « وجعل من معجزة هذا الكتاب أنه مع قلة الحجم متضمن للمعنى الجم ، وبحيث تقصر الألباب البشرية عن إحصائه ، والآلات الدنيوية عن استيفائه كما نبه عليه بقوله : ﴿ **وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَام والبحر يَمُدُّه مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَانَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِن الله عزيز حكيم** ﴾[٢] .

(١) انظر مقدمة كتاب المفردات للراغب الأصفهانى ص ٥ .

(٢) الآية رقم : ٢٧ من سورة لقمان .

ب ـــ كمال كل موضع منه على حدة ، حين نجمعه الآن ، ونؤلف منه كياناً واحداً مؤتلفاً غير مختلف ، وهذا من أعظم وجوه الإعجاز .

ذلك لأن القرآن قد تواتر نزوله نجوماً[1] متفرقة ، على مدار ثلاثة وعشرين عاماً تقريباً ، ما بين مكة والمدينة ، والسفر والحضر ، وفى ظروف متباينة كالسلم والحرب ، والنصروالهزيمة ، والمنحة والمحنة ، والجماعة المطاردة ، والدولة المستقرة .

نزلت نجوم كل موضوع مفرقة على هذه الأماكن والظروف ، ووضعت فى سورها متباعدة ، وبينها فى النزول فواصل زمنية مختلفة ....

ومع هذا كله حين ننظر إلى كل نجم نجده فى موقعه من ترتيب السورة متآلفاً متناسقاً مع سابقه ولاحقه .

ثم حين نجمع « نجوم الموضوع » معاً نجدها على غاية التوافق والتناسق ، وكأن أقساطه جميعاً قد نزلت فى وقت واحد ، تعالج قضية مّا فى موعدها وظروفها ، ونجد قانوناً واحداً ينتظم النجوم جميعاً ، وهذا ضرب بالغ الإعجاز ، لا يستطيعه بشر مهماأوتى من إحكام العقل ، وجودة العلم والفكر .

ولعل إلى هذين الطريقين من وجوه الإعجاز يشير قوله تعالى :

﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ...** ﴾ المائدة : ٣ .

فالإكمال : يرجع إلى الوصف والكيف .

والإتمام : يرجع إلى العدد والكم[2] .

ولعله أيضاً سر القسم الإلهى بمواقع النجوم :

﴿ **فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ *** ﴾ الواقعة : ٧٥ ـــ ٧٧ .

فالمراد بالنجوم هنا : نجم السماء ، أو نجوم القرآن ، وهذا أرجح المعنيين

---

(١) النجم يطلق على الأجرام السماوية المضيئة ، ويطلق على جزء الشيء ، يقال : أديت الدين نجوماً ، أى : أقساطاً متتابعة ، متساوية أو متفاوتة .

(٢) أنظر مفردات الراغب مادة « تم ، وكمل » فقد أخذت منه هذا المعنى .

لذكر القرآن بعده ، ولا يظهر مقدار العظمة فى هذا القسم ، وفى إعجاز هذه النجوم القرآنية ، إلا إذا نظرنا إليها الآن لنعلم إعجازها فى كل موقع من مواقعها ، سواء فى ترتيب السور ، أو فى موضوعات القرآن الكريم .

٢ ـ الوفاء بحاجات هذا العصر إلى الدين :

وهى حاجات كثيرة متشعبة ، بعضها عام ، وبعضها خاص ، ومنها :

أ ـ حاجة البشر عامة :

فالبشر الآن حائرون على مفترق الطرق ، وليس لهم دين صحيح ، ولا رسالة هادية ، وقد غلب عليهم الإلحاد والعناد ، وزين شياطين الحضارة المعاصرة أن الدين طور متخلف مضى زمانه ، أو أنه مفهوم قاصر على الفرد والضمير ، وليس له شأن بالسلوك الاجتماعى والدولى .

ولم يبق كتاب إلهى على وجه الأرض يمثل الدين الصحيح إلا القرآن ، لذلك يحتاج الناس إلى معرفة هديه غاية الاحتياج ، وإلى فهم ما حواه من شمول موضوعى بالغ غاية الكمال ، وإلى إدراك ما يقدمه لهم من حلول لمشكلاتهم النفسية والاجتماعية ، ومعضلاتهم الأخلاقية والاقتصادية ، ولا يتحقق ذلك إلا بدراسات علمية جادة لموضوعات القرآن الكريم ، ثم تنصب أمام الناس مثلاً أعلى ، وحبلاً ممدوداً للنجاة من هذه المحنة العالمية الطاغية ، فإما أن يؤوب الناس إلى دين الفطرة ، أو تقوم عليهم الحجة البالغة ، التى من أجلها تعهد الله تعالى بحفظ القرآن ، وجعله صوت النبوة الممدود إلى يوم الدين .

ب ـ حاجة المسلمين خاصة :

فلقد فتن المسلمون بزخارف الحضارة المادية ، وتبعوا سنن الكفار فى القوانين والأخلاق والتربية ، ولذلك يحتاجون قبل غيرهم إلى فهم شمول الهدى القرآنى ، واتساع موضوعاته لكل شئون حياتهم ، وبذلك يقبلون على تطبيقه بيقين واقتناع ، ويقدمونه للناس عن معرفة وتجربة ، ويبذلون فى سبيله النفس والنفيس عن رضا وطواعية ، لأنه الحق الوحيد فى الأرض ، والذى يغنيهم عن

تسول المبادىء من الشرق أو الغرب ، بل إن الدنيا كلها محتاجة إليه ، وبذلك ينقذ المسلمون أنفسهم ، والعالم كله من ورائهم ، بهذا الهدى القرآنى الجامع .

٣ ـ تأصيل الدراسات القرآنية والعلمية :

فمن المقرر الثابت أن كتاباً فى الأرض لم ينل ما ناله القرآن الكريم من عناية ودراسة ، وقد بذل علماؤنا من قديم جهوداً خارقة لخدمة الكتاب الكريم ، غير أن القرآن من السعة والاستبحار بحيث لا تنفد معانيه ، بل يجد العلماء منها جديداً فى كل عصر ، وربما أربى اللاحق على سابقه بما يفتح الله له من كنوز القرآن العظيم ، وهذا معنى ما ندندن حوله من تجدد ألوان الإعجاز القرآنى ، بتجدد الزمان(١) .

وإنى على مثل اليقين ، أنّ جمع الآيات الكريمة جمعاً موضوعياً ، وتفسيرها على هذا النمط ، مع إحصاء الألفاظ ، واستقصاء المعانى ، وتتبع تعدد الدلالات القرآنية فى مواضعها وموضوعاتها ، هذا اللون حين تنضج مباحثه ، سيكون له أعظم الأثر فى إبراز علوم قرآنية جديدة ، ودفعها نحو التأصيل ، والاكتمال ، بإذن الله تعالى ، ومن ذلك :

أولاً : علم الأصول القرآنية :

وهو ابتداء أوسع مدى وشمولاً من علم « أصول الفقه » المعروف ، لأننا نعنى به : الأصول الجامعة ، والقواعد الحاكمة ، والقوانين العليا التى تضبط كل ما يتصل بالقرآن ، والإسلام ، من علوم وفنون .

ومن المقرر أن القرآن الكريم هو دستور محيط ، يضم فى تضاعيفه هذه الضوابط الكلية الجامعة ، وقد أدرك علماؤنا هذه الحقائق من قديم ، وتناولوها

---

(١) هذا أمر كثير التكرر فى الدراسات الإسلامية والقرآنية ، ويكفى مثالاً كتاب : « الإتقان » للسيوطى ، فقد ألفه فى أواخر القرن التاسع الهجرى ، وفاق به القرون السابقة ، وصدق حين ختم كتابه هذا بقوله :

« وقد منّ الله تعالى بإتمام هذا الكتاب ... البديع المثال .. الجامع لفوائد ومحاسن لم تجمع فى كتاب قبله فى العصر الخوالى »

بالبحث والاستنباط ، وسجلوها نثراً فى مواضعها من مباحث العلوم الإسلامية واللغوية ، غير أن طرائق علمائنا — نضر الله تاريخهم — لم تكن تقوم دائماً على الإحصاء والاستقراء الكلى الشامل لكل أطراف الموضوع .

ثم لم يمتد نطاقها إلى كل المباحث العلمية المتصلة بالقرآن الكريم من حيث منهجه الدينى ، وأسلوبه التربوى والاستدلالى ، ولغته العربية الخاصة به ونحو ذلك من جوانبه الواسعة .

فلا تزال قواعد أئمتنا السابقين تحتاج إلى مزيد من التحرير فى الكيف والكم ، أو من حيث « الكمال ، والتمام » الذى عناه القرآن : ﴿ **اليومَ أكْمَلْت لكم دينكم ، وأتْمَمْتُ عليكم نِعْمتى** ... ﴾ المائدة : ٣ .

وهذا ليس بعيب على السابقين رضى الله عنهم ، فلقد وطّؤوا أكناف العلم ، وجمعوا شتات المسائل ، وتركوا لمن بعدهم إتمام البناء ، وإنما العيب على اللاحقين إن رضوا بالقعود مع الخالفين .

وعلى سبيل المثال :

أ — لقد كان علم « أصول الفقه » هو أوفر العلوم حظاً من حيث التأصيل ، وأخْذ القواعد الكلية من القرآن ، والسنة النبوية .

ومع ذلك لم تزل فيه جوانب لم تنل حظها الحقيقى من التأصيل الكلى الشامل ، عن طريق القوانين العليا التى تحكم مفردات القواعد ، مثل :

١ — « التشريع خصوصية إلٰهية » .

٢ — « السنة النبوية طريق ورود للشرائع ، لا طريق إنشاء »(١) .

ولقد بُحثت هذه القضايا فى « أصول الفقه » ، لكن ليس على طريق الاستقرار القرآنى الجامع ، وإلا لحسمت مادة الخلاف بين الأصوليين أنفسهم حول : جواز الاجتهاد النبوى فى وضع الأحكام أو عدمه ، مع أن هذه قضية تتعلق بالأصل الأول ، القطعى الثبوت والدلالة فى القرآن ، وهو : « تفرد الله تعالى بالحكم والتشريع » .

---

(١) يراجع هذا بأدلته التفصيلية فى كتابى « المنهاج القرآنى فى التشريع » فصل أدلة الأحكام ص ١٥٢ من المخطوطة المقدمة لكلية أصول الدين بالقاهرة .

ب ــ وعلوم اللغة العربية « كالنحو والصرف » وضعت قواعدها ، وأسست أصولها ، ولكن ثبت فيها خلل كثير حين عرضت على الأصول القرآنية القائمة على الاستقراء الكلى ، والاستيعاب الشامل ، كما أثبت ذلك العلامة صاحب الموسوعة النادرة : « دراسات لأسلوب القرآن الكريم » وسنبين ذلك تفصيلاً فى « المبحث السابع » إن شاء الله . وإذا كان هذا فى عِلْمين وصفهما العلماء بأنهما « نضجاً واحترقا » من كثرة البحث والتفصيل والتأصيل ، فكيف بغيرهما من العلوم التى لم تصل إلى هذا المستوى ؟ لا شك أنها محتاجة إلى « الأصول القرآنية » الجامعة أكثر من غيرها ، ومنها على سبيل المثال فى علم « التفسير » :

١ ــ « كل قول على الله بغير علم فهو باطل وحرام » .

فهذا أصل قرآنى قطعى ثبت بالعديد من الآيات مثل :

ــ ﴿ قُلْ إِنَّمَا حرّم ربّيَ الفواحش ما ظهر منها وما بَطَن والإثم والبَغْى بغير الحق وأنْ تُشْركوا بالله مالمْ ينزِّل به سُلْطاناً وأنْ تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ الأعراف : ٣٣ .

ــ ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكذبَ هذا حلال وهذا حرام لِتَفْتَروا على الله الكذبَ إنَّ الذين يفترون على الله الكذب لا يُفلحون ﴾ النحل : ١١٦ .

٢ ــ « كل استطراد وحشو لا حاجة إليه فهو لغو باطل »

وهذا أيضاً أصل قطعى ثابت بآيات كثيرة مثل :

ــ ﴿ وَلَا تَقْفُ ما ليس لك به علم ﴾ ﴿ والذين هم عن اللَّغْو مُعْرِضُون ﴾[1] .

٣ ــ « الإسرائيليات ضلالات لايفسر بها القرآن » .

وهذا أيضاً أصل قرآنى قطعى الثبوت والدلالة ، حيث ثبت فى صريح العشرات من الآيات تحريف بنى إسرائيل لكلام الله تعالى ، وافتراؤهم الكذب

---

(١) الآية الأولى : الإسراء : ٣٦ والثانية : المؤمنون : ٣ .

على الوحى ، ونسبة الشناعات إلى الله تعالى ، ورسله ، وملائكته ، وكتبه ، والطعن الفاحش فى الأنبياء المعصومين ، والصديقين الصالحين .

ومن ذلك قوله تعالى فى بنى إسرائيل :

— ﴿ **أَفَتَطْمعون أن يُؤمنوا لكم وقد كان فريق مِنْهم يسمعون كلَامَ الله ثم يُحَرِّفُونه مِنْ بعد ما عَقَلُوه وهم يعلمون** ﴾ سورة البقرة : ٧٥ .

— ﴿ **وَإِنَّ مِنهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُون أَلْسنَتَهم بالكتاب لتَحْسَبُوه مِن الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذبَ وهم يعلمون** ﴾ آل عمران : ٧٨ .

— ﴿ **وبكفرهم وقوْلهم عَلَى مريمَ بُهتاناً عظيما * وقوْلِهم إنَّا قَتَلْنا المسيحَ عيسى بن مريم رسولَ الله ، وما قتلوه وما صلبوه ..** ﴾ النساء : ١٥٦ ، ١٥٧ .

— ﴿ **مِنَ الذين هادُوا يُحرّفون الْكَلِمَ عن مواضعه** ﴾ النساء : ٤٦ .

وهذا أصل قطعى مأخوذ من صريح القرآن فى عشرات الآيات ، والذى يثبت عليهم تحريف كلامه تعالى عمداً ، وعلى علم وبصر به[1] ، ومن باب أولى يثبت عليهم هذا فى كل كلام بعد كلامه سبحانه وتعالى ، فكيف ينقل عن أمثال هؤلاء خبر أو قصة ، ناهيك عن الدين والرسالة ؟!

ومن أعجب العجب فى تاريخ العلوم الإسلامية أن يتساهل بعض المفسرين فيدخل هذه « الإسرائيليات » فى تفسير كلام الله رب العالمين ، وهو أصدق الحديث ، وخير الكلام .

والأحاديث التى أباحت التحديث عن بنى إسرائيل كان لا بد أن تفهم من خلال هذا **الأصل القرآنى** ، وأن يكون هو **الْحَكَم فى القضية** ، والحاكم على تحديد معنى الكلام النبوى ، لأن رسول الله ﷺ لا يخالف القرآن قط ، ولا يعارضه بقول أو فعل ، فما أباحه ﷺ مخصوص بأمور لا تتعلق بالدين أو التفسير ، ولا نقول ذلك ظناً أو ترجيحاً ، وإنما هذا هو عين ما فهمه وقاله

(١) راجع كتاب : « معركة الوجود بين القرآن والتلمود » فقرة : ٤٥ — ٤٧ .

« ترجمان القرآن » ابن عباس رضى الله عنهما :

« يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ؟ وكتابكم الذى أنزله الله على نبيكم أحدث الأخبار بالله مَحْضاً لم يُشَبْ ، وقد حَدَّثكم الله أَنَّ أهل الكتاب قد بدّلوا من كتب الله ، وغيّروا ، فكتبوا بأيديهم وقالوا هو : « من عند الله » ليشتروا بذلك ثمناً قليلاً ، أَوَلَا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟! فلا والله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذى أنزل عليكم »[1] .

ولو تقرر هذا « **الأصل القرآنى** » فى نفس كل مفسر من قديم ، لكان خليقاً بتطهير التفسير من لوثات بنى إسرائيل ، ولصينت علوم الإسلام عن هذه الأباطيل .

كذلك لو تقررت **الأصول القرآنية** العليا فى جانب « **الاعتقاد** » لحمت المسلمين من غوائل « **الفلسفة اليونانية** » ومن ظلماتها الجدلية التى بنى على أساسها — مع الأسى — « **علم الكلام** »[2] .

وفى اعتقادى أن جرجرة هذين البلاءين إلى ميدان : « **التفسير** » ، « **والاعتقاد** » كانت أفدح جناية أوقعها المسلمون بدينهم ، وأصابتهم فى مقاتلهم ، ولذلك « فرقوا دينهم وكانوا شيعاً » ، واتبعوا السبل التى فرقت بهم عن سبيله المستقيم ، وصدق الله :

﴿ **أَفَلَا يتدبرون القرآن وَلَوْ كان مِنْ عِند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كَثِيراً** ﴾ سورة النساء : ٨٢ .

وبهذا يتقرر لدينا أن « **الأصول القرآنية** » علم بالغ الخطر ، جليل الأثر ، ولا يستطاع تقريره على وجهه فى هذه العجالة ، وإنما أردت التمثيل لا التأصيل ، وقصدت إلى تنبيه الأذهان ، ولفت أنظار العلماء الأجلاء إلى هذا

---

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب الشهادات ، والتوحيد ، وغيرهما ، « وانظر فتح البارى ج ٥ ، ج ١٣ الحديث رقم : ٢٦٨٥ ، ٧٣٦٣ ، ٧٥٢٢ ، ٧٥٢٣ » .

(٢) راجع كتاب : « الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام » ص ١٧ وما بعدها مبحث : « غزو قديم » .

هذا العلم، عسى أن يتجرد له بعضهم بالبحث والتأليف، على نمط التحقيق والتدقيق ، والتحديد والتحرير ، والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

ولعل هذه المعانى هى التى فتحت لشيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ فى أخريات أيامه ، وهو فى سجنه ، إذ لم يوافق على ما اقترحه عليه بعض تلاميذه من تفسير القرآن مرتباً على السور ، لكثرة الكتب فى هذا ، واتجه إلى ما يشبه « التفسير الموضوعى » لبعض الآيات التى أُشْكِلَ تفسيرها على جماعة من العلماء ، ليفسرها بالدليل، فإذا تبين به معنى الآية يتبين معنى نظائرها .

ثم يقول الشيخ رحمه الله :

« قد فتح الله علىَّ فى هذه المرة من « معانى القرآن » ومن « أصول العلم » بأشياء كان كثير من العلماء يتمنونها ، وندمت على تضييع أكثر أوقاتى فى غير معانى القرآن[1] » .

ثانياً : علم « الإعجاز التشريعى » :

فمن المقرر أن القرآن ما جاء أصلاً إلا للهداية ، وتقرير منهاج الله لعباده ، وشريعته للناس ، وما جاءت وجوه الإعجاز اللغوى ، أو العلمى ، والتاريخى إلا لخدمة هذا الأصل ، واستمالة وجوه الناس إليه .

ومن العجيب أن وجوه الإعجاز القرآنى فى لفظه ، ونظمه ، وأساليبه البلاغية قد استوفاها العلماء استيفاء يكفى ويشفى ، نضر الله وجوههم وأعمالهم .

لكن المعجزة الأصلية وهى « **شريعة القرآن** » ، لم يقع فى علمى أن أحداً من علمائنا الأفذاذ قد كتب عنها على نمط علمى جامع ، يقرر به وجوه الإعجاز فى قواعدها ، وخصائصها ، وعناصر الموازنة الفذة فى بنائها مثل المرونة والثبات ، والعدل والفضل ، ونحو ذلك ، مع أن هذا « **الإعجاز التشريعى** » هو المعجزة الدائمة ، التى تتحدى البشر فى كل زمان ومكان ، خاصة فى عصور « الغرور العلمى » ، والفكرى ، والمذهبى الذى يسود العالم

---

(١) أنظر صفحة ١١ من تقديم الدكتور عدنان زرزور لرسالة ابن تيمية مقدمة « فى أصول التفسير » .

الآن ، أما « الإعجاز اللغوى » فهو كذلك صالح إلى يوم الدين ، ولكن لا يوجد أحد على وجه الأرض يصلح أن يكون أهلاً لتحدى القرآن الآن ، كما كان العرب فى أوج فطرتهم البلاغية . وسليقتهم البيانية حين نزل القرآن ، والإعجاز أظهر ما يكون حين يتحدى الناس فى أقدارهم التى برعوا فيها ، وظنوا أنهم وحدهم القادرون عليها .

وللعلماء المعاصرين أبحاث ومقالات جيدة فى هذا الباب ، ولكنها متناثرة ، مثل ما جاء فى تضاعيف تفسير المنار ، وكتاب « الوحى المحمدى » للعلامة محمد رشيد رضا رحمه الله ، وكذلك ما كتبه العلامة الشيخ الزرقانى رحمه الله فى كتابه القيم : « **مناهل العرفان فى علوم القرآن** »[1] .

وقد وفقنى الله تعالى إلى كتاب يعالج هذا الموضوع تحت عنوان « **الإعجاز التشريعى فى القرآن** » ، ولا يزال منذ عديد من السنين مخطوطاً ، ينتظر معونة من الله وفضلاً حتى يرى النور ، نسأل الله تعالى التوفيق لإخراجه عن قريب .

وفى تقديرى — والله أعلم — أن « التفسير الموضوعى » حين تنضج مباحثه ، وتتميز موضوعاته على وجهها العلمي ، سيكون هو الأساس الذى تقوم عليه دراسات « علم الإعجاز التشريعى » ، كما يتأسس البناء على قواعده وأصوله .

ثالثاً : علم « الحكمة القرآنية » :

وهو علم متمم لسابقه ، ولازم له لزوم الظل لصاحبه ، لأننا نعنى به العلم الذى يبرز : « **منهج القرآن فى الدعوة والإصلاح** » ، وأسلوبه فى الهداية وتطبيق المبادىء ، وطرائقه الفذة فى سياسة الأفراد والجماعات ، ووسائله العجيبة فى طب النفس البشرية وقاية وعلاجاً ، من التدرج فى التشريع ، والرفق ، والمطاولة مع الخصوم ، والتناسب مع الأحداث والوقائع بتنجيم القرآن ، وتقديم التربية والتزكية على المعرفة العقلية المجردة ، وتكرار

---

(١) انظر على سبيل المثال : الوجه السادس من وجوه الإعجاز ج ٢ ص ٢٤٧ .

المبادىء والأحكام بشتى الأساليب حتى ترسخ فى النفوس ، وتقسيط التعليم وإطالة مدته حتى تتشربه القلوب والعقول . وهكذا .

ومن الواضح الفرق بين العلمين :

فالأول : يراد به إظهار الإعجاز فى نفس المبادىء القرآنية .
والثانى : يراد به إظهار الإعجاز فى الوسائل والأساليب التى طبق بها القرآن هذه المبادىء ليخرج خير أمة أخرجت للناس .

وقد تقرر الأمران فى كثير من الآيات القرآنية قال تعالى :

﴿ لقدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المؤمنين إذْ بَعَثَ فيهم رسولاً مِنْ أَنْفُسهم يتلو عليهم آياته ويُزَكِّيهم ويعلّمهم الكتابَ والْحِكْمَةَ ... ﴾ آل عمران : ١٦٤ .

﴿ ادْعُ إلى سبيل ربك بالحِكمة والمْوعظة الحسنة ﴾ النحل : ١٢٥ .
﴿ ... وأنزل الله عليك الكتاب والحِكْمَةَ وعلّمك ما لمْ تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ النساء : ١١٣ .

والحكمة تطلق ــ فى الأصل ــ على كل ما يمنع من السفه ، والمراد بها فى الآيات الكريمة « **فقه القرآن** » وفهمه ، أو « **طريقة الدعوة** » ، وحكمتها أن تكون على بصيرة وفهم ، وقيل « السنة النبوية » ، وقيل « القرآن ذاته » ، وقيل « إصابة القول والعمل » .

والذى يتقرر عندى ــ والله أعلم ــ أن المراد بها ما ذكرناه من جانب « **الأساليب** » ، فى مقابل « **المبادىء** » ، التى سميت أيضاً باسم محدد هو : « الشريعة » بمعناها الشامل .

وكل سياسة حكيمة ، أو طريقة حسنة فعلها رسول الله ﷺ فهى لبّ « الحِكْمة القرآنية » التى أوحيت إليه عليه السلام ، ولذلك « كان خلقه القرآن »[1] كما وصفته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها .

ومن الأمثلة الجامعة فى ذلك :

---

(١) الحديث رواه مسلم فى صحيحه بلفظ « فإن خلق نبى الله كان القرآن » جـ ٢ ص ١٦٩ « باب صلاة الليل » .

تدرج القرآن مع العرب فى الشريعة ، فبدأ بالأصول قبل الفروع ، أو وزع الحكم على مراحل زمنية حتى تستوعبه النفوس كالخمر ، والربا .

فقد بدأ القرآن بالأصلين الجامعين : « **العقيدة ، والأخلاق** » ، فلما أسس لهما فى القلوب ، أنزل التفصيلات على قلوب مستعدة لها ، فنجح نجاحاً غير مسبوق ولا ملحوق ، من حيث فشلت مناهج الناس ومذاهب البشر ، وفى ذلك يقول تعالى :

﴿ وقُرآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَه عَلَى الناس عَلَى مُكْثٍ ونزّلْناه تَنْزِيلا ﴾
الإسراء : ١٠٦

وتجمل أم المؤمنين عائشة هذه « **الحكمة القرآنية** » البالغة فتقول :

« ... إنما نَزَلَ أَوَّلَ ما نَزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذَا ثَابَ الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نَزَل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل لاتزنوا لقالوا لا ندع الزنى أبدا .. »[١] .

وفى القرآن العظيم آيات كثيرة تقرر هذه الحكم القرآنية ، فإذا جمعت موضوعياً ، ثم فُسِّرت على هذا النمط ، ورتبت تحت عنوان جامع ، لقام بين أيدينا علم جليل عظيم ، لا يقل وجه الإعجاز فيه عن سابقه ، ولذلك ألحقه العلامة المحقق صاحب « مناهل العرفان » بمبحث « إعجاز القرآن »[٢] ، وسماه بعض الباحثين بحق : « علم فقه القرآن » أو « فقه الإسلام » وبيان منهجه فى هداية البشر[٣] ، وهو علم لم يستوف حظه من البحث والتأصيل ليكون معالم الهداية القرآنية ، فى طريق البشرية .

٤ ـــ تصحيح مسار الدراسات القائمة :

وعلى هذا الأساس سيكون للتفسير الموضوعى مهمة بالغة فى تصحيح

(١) البخارى فى الصحيح : « كتاب فضائل القرآن ـــ باب تأليف القرآن ج ٦ ص ١٠٠ » .
(٢) ج ٢ ص ٢٥٧ ، الوجه السادس من وجوه الإعجاز : سياسته فى الإصلاح .
(٣) انظر الرسالة الصغيرة النافعة : « محاضرات فى التفسير الموضوعى للقرآن » ص ٤٨ . للشيخ فوزى عثمان .

الدراسات الدينية ، والعربية القائمة فعلاً ، وإصلاح مسارها ، وضبطها على معايير قرآنية جامعة .

وهذا موضوع طويل ، ومتشعب ، ويحتاج إلى مزيد من التمحيص والتدقيق لا يتسع له المقام فى بحثنا هذا ، ولكننا نوجز بعضه على سبيل الإشارة ، ولفت أنظار العلماء إليه :

أ ــ تصحيح طريقة النظر فى القرآن الكريم:

فإن للقرآن كما قلنا أصوله الجامعة ، وقواعده الحاكمة ، التى لا تعلم إلا بالاستقراء الكلى للألفاظ والدلالات ، لتصبح حكماً فى تقرير القضايا .

ولكن كثيراً من الفرق نظروا فى القرآن نظرة مقلوبة ، فبدلاً من البحث عن أصوله ليتحاكموا إليها ، نظر كل فريق فيه بحثاً عما يؤيد مذهبه الذى اعتنقه عن هوى ، أو عن طريق نظرة جزئية عجلى ، تجعل من الآية الواحدة أصلاً ينزل عليه ما عداه ، بلا استقراء لموقف القرآن الكلى من الموضوع ، أو تأخذ الآية الواحدة منقطعة عن معانى القرآن ، وبيان السنة ، وفهوم الصحابة وقت النزول ، كما حدث من الخوارج ، والشيعة ، والمعتزلة ، وغلاة الصوفية ، إلى القاديانية والبهائية وغير ذلك من الفرق الضالة .

ومن هنا وقع التكلف والاعتساف فى فهم الآيات ، ولجأت كل فرقة إلى التأويلات الفاسدة ، وصرف الآيات عن ظواهرها وحقائقها ، وكثر القول بالنسخ من غير دليل ، وردوا الأحاديث الصحيحة التى تفسر القرآن إذا خالفت أقوالهم .

وبذلك صار القرآن فرعاً يفسر على « أصول » خارجة عنه ، وسابقة فى عقول كل فرقة عليه ، لأنهم استخلصوها من طرائقهم الفقهية ، أو الكلامية ، أو اللغوية ، واستمدوها من النظر فى فروع المسائل ، أو مذاهب الفلسفة ، أو شواهد اللغة المجردة[1] .

---

(١) أنظر رسالة ابن تيمية رحمه الله : « مقدمة فى أصول التفسير » ص ٧٩ وما بعدها ورسالة : « محاضرات فى التفسير الموضوعى » ص ٤٦ .

ب ــ إصلاح طريقة التفسير وإنضاجه :

وذلك بحصر الجهود فيالحقائق والمقاصد القرآنية ، وجمع العزائم عليها ، ليأخذ التفسير وجهته الصحيحة ، لأن القرآن العظيم هو كتاب الهداية ، وهدايته تكمن فى مقاصده ومعانيه ، « والتفسير الموضوعى » هو الذى يحقق هذا ، ويبرزه ، وبذلك يوحد جهود المفسرين حول لباب القرآن ، ويحفظ طاقاتهم الفكرية العظيمة من التبدد فى القشور والأشكال ، لأن « التفسير الموضوعى » نمط علمى منضبط ومحدد ، يدور فيه الجهد حول جمع الآيات ، واستخلاص حقائقها المباشرة ، أو استنباط معانيها وخطوطها الجامعة ، فلا يجد المفسر فرصة للاستغراق فى لونه الفنى ، الذى طغت على التفسير قديماً : كالنحو والإعراب ، والجدل الكلامى ، والاستطراد الفقهى ، وضروب المجاز والبديع ، والإسرائيليات ، ونحوها من الفنون التى غلبت على التفسير ، حتى أبعدته عن وجهته وغايته الأصلية .

والمفسر الموضوعى قد يذكر شيئاً من هذه الفنون عَرَضاً لا غرضاً ، ولبيان معنى جزئى فى موضعه ، بحيث لا يقطع عليه موضوعه الأصلى ، ومِنْ ثَمّ يتخلص التفسير من الحشو الزائد ، والاستطراد لأدنى ملابسة ، ويجد المفسر نفسه دائماً فى دائرة الموضوع الواحد ، المحدد المعالم ، والمتقيد بالآيات الكريمة ذاتها ، وفى إطار معانيها ومقاصدها ، وحقائقها العليا ، وفق المنهج العلمى الصحيح .

وبذلك يصحح « التفسير الموضوعى » ذلك الخلل التاريخى الخطير ، الذى وقع فى أعظم العلوم الإسلامية وهو « التفسير » ، ثم تسرب منه إلى سائر الدراسات الدينية والعربية .

وبذلك أيضاً نرجو أن يصل علم التفسير جملة إلى مرحلة « النضج » التى تمناها العلماء من قديم ، وعمل لها المحققون منهم ولا يزالون ، ولكل أجل كتاب بإذن الله .

جـ ــ ضبط القواعد العلمية :

فإن جمع الآيات موضوعياً ، وتحديد دلالات الألفاظ القرآنية من خلال

النظرة الكلية الجامعة ، يؤدى إلى تصحيح كثير من القواعد ، والقوانين ، والأحكام الكلية ، التى قال بها أصحاب الفنون العلمية المختلفة ، فى الدراسات الدينية واللغوية جميعاً .

ذلك لأننا حين ننظر إلى كثير منها نجدها قائمة على غير استقراء كلى ، أو إحصاء واستيعاب شامل ، ولو رجع واضعوها إلى : « التفسير الموضوعى » لصححوها بأنفسهم ، ولحسمت مادة الخلاف بين العلماء فى كثير من القضايا .

وعلى سبيل المثال فى التفسير تلك القاعدة التى أوردها كثير من المفسرين ، وجعل لها بعض الرواة سنداً إلى « أبىّ بن كعب » رضى الله عنه ، قال :« كل شىء فى القرآن من الرياح فهى رحمة ، وكل شىء فيه من الريح فهو العذاب »[1] .

ومن العجيب أن يعود الإمام السيوطى فيضع هذا فى « قاعدة كلية » أخرى فيقول : « .. ومن ذلك الريح ذكرت مجموعة ومفردة ، فحيث ذكرت فى سياق الرحمة جمعت ، أو فى سياق العذاب أفردت » .

ثم ذكر الأثر السابق ، ثم أخذ يلتمس حكمة ذلك ويعلله ، إلى أن يقول : « وقد خرج عن هذه القاعدة قوله تعالى فى سورة يونس : ٢٢ .

﴿ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ... ﴾ ، وعلى ذلك جرى قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ... ﴾ الشورى : ٣٣ ، وقال ابن المنيّر : إنه على « القاعدة » ، لأن سكون الريح عذاب وشدة على أصحاب السفن »[2] .

ورحم الله أئمتنا الأعلام ، كيف فاتهم — مع حفظهم التام — خلل هذه القاعدة ؟!

وأظن — والله أعلم — أن سبب ذلك هو عدم جمع الآيات كلها ، والنظر فيها مجتمعة قبل تقعيد « القاعدة » ، وحينئذ نقول بالقاعدة ، أو نَعْدِل عنها ، أو نعدِّلها ، وهذه وظيفة التفسير الموضوعى ، وإحدى فوائده الجليلة .

---

(١) الإتقان جـ ١ ص ١٤٤ « النوع التاسع والثلاثون : معرفة الوجوه والنظائر » .
(٢) الإتقان جـ ١ ص ١٩٢ « النوع الأربعون » .

وبيـــان ذلك :

أن « الريح » وردت فى القرآن الكريم مفردة : « تسع عشرة مرة » ، منها « سبع » فى الخير والرحمة ، أى أكثر من ثلثها ، فكيف تؤسس قاعدة على مثل هذا الاستثناء ؟!

والآيات السبع التى خرجت على القاعدة هى : « بعد الآيتين اللتين ذكرهما الإمام السيوطى » :

١ ــ ﴿ ... إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ... ﴾ سورة يوسف : ٩٤ .
٢ ــ ﴿ وَلِسُلَيمان الريح عاصفةً تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها .. ﴾ الأنبياء : ٨١ .

٣ ــ ﴿ ولسليمان الريح غُدُوّها شهر ... ﴾ سبأ : ١٢ .
٤ ــ ﴿ فسخرنا له الريح تجرى بأمره رُخاءً ... ﴾ سورة ص : ٣٦ .

٥ ــ ﴿ ولا تنازعوا فتفشَلُوا وتذهبَ ريحكم .. ﴾ الأنفال : ٤٦ .

ووردت « **الرياح** » فى القرآن « عشر مرات » كلها فى الخير ، إلا واحدة فتحتمل الأمرين وهى : **﴿ فأصبح هَشِيماً تَذْرُوه الرياح .. ﴾** الكهف : ٤٥ .

وفى قراءة سبعية متواترة : « الريح » بالإفراد .
وعلى ذلك تصحح القاعدة هكذا :
« إذا جمعت الرياح فى القرآن فهى فى الرحمة ، وإذا أفردت استعملت فى الرحمة والعذاب ، والأخير أكثر » .

وللشيخ العلامة محمد عبد الخالق عضيمة ــ رحمه الله ــ دراسات علمية نادرة ، لأسلوب القرآن الكريم ، تتبع فيها قواعد النحاة وأهل اللغة ، ونقض الكثير منها نقضاً بواسطة معيار الجمع والتفسير الموضوعى ، القائم على الاستقراء ، والاستقصاء ، والإحصاء ، وسنعود إليها ــ إن شاء الله تعالى ــ فى « المبحث السابع » لأهميتها البالغة فى ذاتها ، وفى موقعها هنالك .

المبحث السادس

منهج البحث فى التفسير الموضوعى

نعنى بالمنهج الطريقة ، أو الخطوات التى ينبغى اتباعها ، والتقيد بها ممن يتصدى «للتفسير الموضوعى» بمعناه «الخاص» الذى حددناه سابقاً .

وسنذكر هذه الخطوات سرداً على سبيل الإجمال.

ثم نعود إليها بالتفصيل الوافى ، نظراً لأهميتها البالغة فى ضبط العمل العلمى لهذا الفن الجديد ، وتحديد مساره على أصول ومعالم ثابتة وطيدة ، فنقول وبالله التوفيق :

أولاً : الخطوات إجمالاً :

١ ــ المعرفة الدقيقة لمعنى «التفسير الموضوعى الخاص» الذى يريد المفسر مزاولته .

٢ ــ تحديد الموضوع القرآنى المراد بحثه تحديداً دقيقاً من حيث المعنى .

٣ ــ اختيار عنوان له من ألفاظ القرآن ذاته ، أو عنوان منتزع من صميم معانيه القرآنية .

٤ ــ جمع الآيات الكريمة المتعلقة بالموضوع ، والعناية باختيار جوامعها عند إرادة الاختصار .

٥ ــ تصنيفها من حيث المكى والمدنى ، وترتيبها من حيث زمن النزول ما أمكن .

٦ ــ فهم الآيات الكريمة بالرجوع إلى تفسيرها ، ومعرفة أحوالها من حيث أسباب النزول ، وتدرج التشريع ، والنسخ ، والعموم والخصوص ، وغير ذلك مما يتقرر به المعنى .

٧ ــ تقسيم الموضوع إلى عناصر مترابطة ، منتزعة من الآيات ذاتها ، ورد الآيات إلى عناصرها ومواضعها من البناء الكلى للموضوع ، مع تفسير

موجز لما يحتاج منها إلى تفسير ، واستنباط حقائقها القريبة من غير تكلف ، ورد الشبهات عن الموضوع ذاته[1] .

٨ ـــ التقيد التام فى كل هذه الخطوات بقواعد التفسير الموضوعى ، وضوابطه العلمية التى سنذكرها إن شاء الله تعالى .

ثانياً : الخطوات تفصيلاً :

١ ـــ نقصد بهذه الخطوة أن يميز المفسر هذا « المصطلح » عما يخالطه من أبحاث أخرى ، حتى يتضح له عمله من أول الطريق ، وبذلك يتجنب الأخطاء التى يقع فيها كثير من الباحثين ، حين يكتبون تحت هذا العنوان ما لا يمت له بصلة ، كتفسير السور المكية الذى نشر تحت عنوان : « التفسير الموضوعى للقرآن »[2] ، وهو تفسير موجز ، يلتزم النمط المشهور فى التفسير ، حيث يقسم السورة إلى جملة مقاطع ، يتناول كلاً منها ـــ على ترتيب السورة ـــ بالبيان الأدبى الإجمالى ، وبأسلوب محكم ، وعرض جيد ، لكنه ليس تفسيراً موضوعياً بأى معنى من معانيه . وكذلك يتجنب المفسر الكتابة تحت هذا العنوان فيما يسمى « بالنظام فى القرآن »[3] أو الوحدة الموضوعية فى سور القرآن الكريم »[4] ، أو التفسير الموضوعى بمعناه العام كالنسخ فى القرآن[5] ونحوه ، أو « علم المناسبات »[6] . لأن هذه الجوانب مع جلالتها

---

(١) راجع فى هذا كتاب « التفسير الموضوعى » لشيخنا أحمد الكومى ص ٢٢ ـــ ٢٤ مع زيادات وتصرف ، ومن العجيب أن هذه الخطوات قد اهتديت إلى معظمها فيما أمليته على الطلاب قديماً كما ذكرت فى المقدمة ، مما يشير بأن هذه طريقة علمية صحيحة ، يقتضيها النظر الموضوعى ، والتأمل الفاحص ، ولشيخنا فضل السبق والعلم .

(٢) للدكتور محمد البهى رحمه الله « مكتبة وهبة بالقاهرة » .

(٣) أنظر دلائل النظام للفراهى ، والرسالة المخطوطة « إمعان النظر فى نظام الآيات والسور » ، لمحمد عناية الله الهندى ـــ « كلية أصول الدين بالرياض » .

(٤) أنظر النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ، والوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم للدكتور محمد حجازى .

(٥) أنظر ص ٢٣ من هذا الكتاب .

(٦) مثل كتاب نظم الدرر فى تناسب الآى والسور للبقاعى ، وانظر الإعجاز البيانى للدكتور محمد القاسم .

وأهميتها ، لكنها خارجة عن « مصطلح التفسير الموضوعى » بمعناه الجديد ، المقيد بمعناه الخاص على ما بيناه سابقاً .

٢ ــ تحديد الموضوع المراد بحثه تحديداً دقيقاً ، من حيث وجوده فى القرآن أوّلاً ، ثم من حيث المعنى ثانياً ، حتى لا تختلط عليه القضايا ، أو تتداخل المسائل ، ثم من حيث الأوصاف كالإطلاق والتقييد ، ونحو ذلك .

ومن الكتب التى تعين الباحث على معرفة موضوعات القرآن ، وتحديدها :

ــ الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى .

ــ مناهل العرفان فى علوم القرآن للزرقانى ، والمدخل لدراسة القرآن الكريم لأبى شهبة .

فإن فى كتب علوم القرآن عامة تحديداً لأهداف المكى والمدنى من القرآن ، وبياناً لوجوه الإعجاز ، ولكنها لم تفرد باباً لبيان : « **موضوعات القرآن** » وهو علم خليق بالبحث والتأليف ، وقد أشار إليه شيخنا العلامة أحمد الكومى تحت عنوان : « إجمال لما عرض إليه القرآن من موضوعات »(١) ، وهو مفيد جداً فى بابه .

ومن الكتب النافعة : « تفصيل آيات القرآن الحكيم » للمستشرق الفرنسى « جول لابوم » والذى نقله الشيخ محمد فؤاد عبد الباقى رحمه الله .

وقد قسم الكتاب إلى ثمانية عشر باباً ، تحت كل باب عدة فروع تصل فى مجموعها إلى ثلثمائة وخمسين عنواناً فرعياً .

والكتاب لم يستوعب موضوعات القرآن ، ولا يستوعب جميع الآيات تحت كل عنوان ، ويخطىء كثيراً فيوضع آيات فى غير مناسباتها ، وإنما ذكرنا هذا لتنبيه الباحثين ، وإلا فالكتاب مجهود علمى نافع ، ومفيد فى بابه إذا تجنب الباحث الأخطاء الموجودة فيه .

وسبق التنبيه على كتاب : « المعجم المفهرس لموضوعات القرآن » ، ونرجو أن يلبى الحاجة الماسة إليه عن قريب إن شاء الله(٢) .

---

(١) التفسير الموضوعى ص ٢٥ ــ ٤٤ .

(٢) انظر ما كتبناه سابقاً ص ٣٨

وينبغى ألا يتكلف الباحث فيحاول أن يدخل فى القرآن الكريم كل شىء مستحدث فى العلوم والصناعات ، بدعوى شمول القرآن لكل شىء من هذه الوسائل ،فإن القرآن الكريم جاء منهاجاً دينياً شاملاً ، أما تفصيلات العلوم البشرية فليست من مقاصد القرآن ، وإن قرر كثيراً من حقائقها وأصولها ـــ كالطب ، والفلك ـــ تدليلاً على عجائب القدرة الإلهية ، وحضاً على قبول دعوته الدينية .

ومن ذلك ما يتكلفه بعض الباحثين من « موضوعات » تفصيلية ، لم يعن القرآن بذكر أعيانها ، فينسبها للقرآن مثل بحث بعضهم عن : « الأطباق الطائرة فى ضوء القرآن » ، ومثل : « القنبلة الذرية فى القرآن »[1] .

٣ ـــ أما « اختيار العنوان » فينبغى أن يراعى فيه ما يأتى :

أ ـــ أن يكون لفظاً قرآنياً صريحاً ، أو مشتقاً ، ولا ينبغى العدول عن اللفظ القرآنى إلى معناه إلا لضرورة ، ولا يجوز ألبتة ترك اللفظ القرآنى إلى غيره من مصطلحات الناس ، خاصة فى مواطن الاشتباه فلا يحل مثلاً أن يترك لفظ : « الشورى » القرآنى ، إلى لفظ آخر يظنه مرادفاً أو مقارباً ، مثل : « الديمقراطية فى القرآن » .!

ولا يترك لفظ « الزكاة » إلى « الاشتراكية ، أو الضريبة الاجتماعية » ولا يترك لفظ « الجاهلية » باعتباره مصطلحاً إسلامياً عن المناهج المخالفة لدين الله تعالى ، فيقول مثلاً : « العلمانية فى ضوء القرآن »[2] .

ولا يعبر عن الجهاد فى سبيل الله بلفظ « صراع الطبقات » ونحو ذلك من المصطلحات الحادثة ، التى تعنى معانى محددة ، قد تخالف القرآن فى جملتها أو فى تفاصيلها .

---

(١) القرآن يذكر « الذرّة » وقبولها للانقسام ﴿ ... وما يعزب عن ربك مِنْ مثقال ذرّة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر .. ﴾ يونس : ٦١ .

ولكن لم يذكر الانشطار النووى الذى تقوم عليه القنبلة الذرية ، كما حاول بعض الباحثين أن يتكلف ذلك مستدلاً بعذاب قوم شعيب . ﴿ فأخذهم عذاب يوم الظلة ... ﴾ الشعراء : ١٩٨ .

(٢) أفردت بحثاً لهذا فى رسالتى «المنهاج القرآنى فى التشريع» الباب الثانى: البشر بين الإسلام والجاهلية .

ولا ينخدع الباحث بما يقال : من أن « العبرة بالمعانى لا بالمبانى » ، فإن هذه قاعدة ليست على إطلاقها ، وخاصة بالنسبة للقرآن الكريم ، لأن « مبانى القرآن » مقصودة لذاتها[1]، والله أعلم بمواقع الألفاظ ، وكل شيء عنده « بمقدار ، وحسبان ، وميزان »[2].

هذا فضلاً عما فى هذه الكلمات وأمثالها من معان تخالف القرآن ، والإسلام . « فالديمقراطية » مثلاً : ليست هى « الشورى » الإسلامية ، لأن الشورى عندنا تكون فيما لا نص فيه ، إذ الحكم والتشريع لله وحده ، أما « الديمقراطية » فتقوم عندهم على أساس تشريع الشعب لنفسه ، أو بواسطة ممثليه من البشر ... فاللفظان مختلفان فى الأصل الذى يقوم عليه كل منهما ، وإن اشتركا فى بعض المعانى الجزئية ، كحرية الكلام ونحو ذلك .

ب ـــ اختيار أجمع لفظ قرآنى ـــ عند تعدد الألفاظ ـــ ليكون عنواناً للبحث ، ومحوراً يدار عليه الموضوع ابتداء ، ثم تضم إليه فى تكوين الموضوع :

ـــ الألفاظ « المقارِبة » لمعناه .

ـــ ثم الألفاظ « المقابِلة » للمعانى السابقة .

لأن كل حكم يتقرر فى النقائض والأضداد سلباً وإيجاباً ، يفيد فى توضيح حكم ما يقابله ، « وبضدها تتميز الأشياء » .

ويوضع هذا كله موضع البحث ، والمقارنة ، والبيان لمن أراد الاستيعاب واستقراء الموقف القرآنى الشامل من موضوع ما .

ومثال ذلك : « موضوع : الحرب والسلام فى ضوء القرآن » .

● نختار له أجمع الألفاظ ليكون عنواناً وهو : « الجهاد فى سبيل الله » ، ولأنه أشهر ألفاظ هذا الموضوع فى القرآن الكريم .

● ثم نضم إليه : « ما يقاربه » فى المعنى مثل : القتال ـــ الحرب ـــ

---

(١) المرجع السابق : الباب الرابع : بحث « مصطلحات مميزة » .

(٢) هذه ألفاظ قرآنية « انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن » .

الضرب ــ الثبات ــ الإثخان ــ الغَلَب ــ النصر ــ الفتح ــ اللقاء ــ الصف ــ الإعداد ــ الغنيمة ــ الفىء ــ الأسرى ــ العهد ....

● ثم نضم إليه « ما يقابله » مثل :

السلام ــ الفرار ــ التولى ــ الفشل ــ الرعب ــ النبذ ــ نقض العهود[1] ...

ومثال آخر : « موضوع : تفرد الله تعالى فى ذاته وصفاته ... » .

● نختار له أجمع الألفاظ وأشهرها فى القرآن : « الوحدانية والتوحيد » .

● ثم « المقاربة » : مثل ألفاظ : الرب ــ الإله ــ العبودية ــ الحكم ــ التشريع ...

● ثم « المقابلة » : مثل : الشرك ــ الكفر ــ الطاغوت ــ الأوثان ....

ومن الكتب التى تفيد فى هذا :

١ ــ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .
٢ ــ المفردات للراغب الأصفهانى .
٣ ــ معجم ألفاظ القرآن الكريم ، الذى أصدره مجمع اللغة العربية .

جـ ــ فإذا وجد الموضوع فى القرآن الكريم ، ولم يجد للعنوان لفظاً قرآنياً مباشراً ، انتزع له عنواناً من أقرب لفظ ، بعد النظر فى جملة المعانى القرآنية ، بحيث يمثل الموضوع تمثيلاً واضحاً .

ومثال ذلك موضوع : « تقدم الأمم ورقيها المادى والعمرانى ، ثم طغيانها وهلاكها » فهذا الموضوع موجود فى القرآن الكريم بأساليب شتى .

فيجوز أن نضعه تحت عنوان : « سنن الله فى نشوء الحضارات واندثارها » فلفظ « السنن » موجود فى القرآن ، لذلك جعلناه أصل العنوان . أما لفظ الحضارة ، الذى هو ضد البداوة ، والذى يعنى التقدم العمرانى فلم يرد فى القرآن الكريم بهذا المعنى نصاً ، وإنما على سبيل الاحتمال فى قوله تعالى

(١) كل هذه الألفاظ ومشتقاتها موجودة فى القرآن الكريم يسترجعها الحافظ القارىء على البديهة ، وتراجع فى « معجم ألفاظ القرآن » ونحوه من الكتب . فى مادة كل كلمة منها .

﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر ﴾ الأعراف : ١٦٣ ، فجاز استعماله فى العنوان أخذاً من هذا الاحتمال ، أو انتزاعاً من المعانى القرآنية الواضحة فى آيات الموضوع(١) .

٤ ــ الخطوة الرابعة :

جمع الآيات الكريمة المتعلقة بالموضوع من أطرافه المذكورة سابقاً : « اللفظية ، والمقاربة ، والمقابلة ، ومعانيها ... إلخ » .

ويتفاوت عدد الآيات المطلوبة باعتبار النوع الذى يريده المفسر :

ــ ففى التفسير الموضوعى « الوجيز » : يأخذ الآيات التى فيها لفظ العنوان فقط ، أو التى فيها جوامع هذا اللفظ ، أو جوامع الآيات التى تمثل أصول المعانى .

ــ وفى التفسير الموضوعى « الوسيط » : يأخذ جوامع الآيات ، التى تؤلف موضوعاً متكامل العناصر ، من اللفظ وأطرافه حسب الموازنة والاختيار .

ــ وفى التفسير « البسيط » : يأخذ الآيات كلها ، ويستقصى أطراف الموضوع ، وذلك فى الرسائل العلمية ، والتآليف المفردة الموسعة كما قدمنا(٢) .

ويستعان على جمع الآيات الكريمة بما يأتى :

أ ــ حفظ الصدور ، وهو خصوصية أمة محمد ﷺ ، لأن الله تعالى يسر كتابه ليجمع فى الصدور ، ويتمكن القارىء الحافظ من استرجاع آياته ، واستحضارها على لسانه فى أى وقت .

ب ــ الرجوع إلى المصحف الشريف لاستخراج الآيات ، وتقييدها فى مواضعها من البحث .

---

(١) أنظر مقال : « الدين ضرورة للحضارات » للمؤلف ، عدد مجلة « الأمة » القطرية رقم ٤٤ ــ شعبان ١٤٠٤ هـ .

(٢) أنظر المبحث « الثانى » من هذا الكتاب .

جـ ــ الرجوع إلى معاجم الألفاظ القرآنية ، أو معاجم الموضوعات على ما بيناه [1] وهذه الطريقة أسرع وأجمع مما قبلها ، وهى مما يسره الله تعالى لخدمة دينه وكتابه فى هذا الزمان ، وكتبها برهان ناهض على صدق الوعد الإلهى بحفظ القرآن ، حيث تزداد مباحثه دقة ، وإحصاء ، واستيعاباً ، فى الوقت الذى قل فيه حفاظه ، وكثر أعداؤه وحسّاده ، بل كان المستشرقون أنفسهم هم بعض أدوات هذا الحفظ الإلهى من حيث لا يشعرون ولا يريدون .

٥ ــ الخطوة الخامسة :

تصنيف الآيات الكريمة من حيث المكى والمدنى[2] ، وترتيبها من حيث زمن النزول ما أمكن ذلك ، فيعلم الباحث أن نزول هذه الآية كان فى أول العهد ، أو أوسطه ، أو آخره ، حتى تتضح له دقائق الموضوع القرآنى ، وليس ذلك بمتعين دائماً إلا فى الأحكام الشرعية التى تتوقف صحتها على معرفة الترتيب ، كالآيات التى نزلت على طريقة التدرج التشريعى مثل : آيات الخمر ، والربا .

فالمفسر إذا علم أن قوله تعالى : ﴿ .. **لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة** ... ﴾ آل عمران : ١٣٠ نزل قبل آيات البقرة التى تحرم قليل الربا وكثيره : « ٢٧٥ ــ ٢٨٠ » علم أن ذلك تدرج فى التشريع انتهى بالتحريم الكلى ، وهذا هو الحكم الصحيح .

ولو لم يعلم الترتيب فربما أخطأ فى الحكم الشرعى حين يجعل آية الأضعاف مقيدة لآيات الإطلاق فى البقرة ، فيكون المحرم هو « الأضعاف المضاعفة » فقط ، وهذا باطل .

ولا يستطيع المفسر أن يصل إلى معرفة صحيحة فى تقدير موقف القرآن من اليهود إلا إذا نظر فى الآيات « المكية » على حدة ، وعلم شدة تنديدها باليهود ، رغم بعدهم عن المسلمين يومئذ ، مما يقطع بأن هذا موقف تأصيل

(١) أنظر المبحث « الرابع » من هذا الكتاب .

(٢) المكى ما نزل قبل الهجرة مطلقاً ، والمدنى ما نزل بعد الهجرة مطلقاً ، ولو نزل فى مكة عام الفتح ، أو فى عرفات مثلاً ، وهذا هو الاصطلاح الراجح .

وتأسيس ، وأن خلافنا مع اليهود هو قضية : « اعتقاد وامتداد » ، لا قضية مرحلية ، لإصرار اليهود فى كل زمان على تحريف الوحى ، وطمس الحق ، والإفساد فى الأرض ...[1] .

وللعلماء مباحث مستفيضة لتحرير خصائص المكى والمدنى من القرآن الكريم ، وبيان ضوابط كل منهما ، وما ثبت منهما بيقين ، وما هو ثابت على سبيل الترجيح ، وما يحتمل الأمرين جميعاً ، وهذا قليل جداً فى جانب الأحكام الشرعية بالذات،بل لا يكاد يوجد فى هذا الجانب التشريعى .

ومن الكتب التى تعين على معرفة المكى والمدنى :

١ ـــ البرهان فى علوم القرآن للزركشى .
٢ ـــ الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى .
٣ ـــ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ـــ لمحمد عبد الباقى ـــ حيث يرمز للمكى بحرف : « ك » ، وللمدنى بحرف « م » ، وهو على القانون الذى قلناه من حيث ثبوت ذلك ، أو رجحانه ، أو احتماله ، فلا بد للباحث من التحرى والتثبت على كل حال .

٦ ـــ الخطوة السادسة :

فهم الآيات الكريمة قبل الشروع فى التفسير الموضوعى ، وهذا أمر ضرورى حتى يستطيع المفسر ترتيبها ، وتأليف عناصرها ، ولذلك ينبغى الرجوع إلى كتب التفسير التى تناسب الموضوع ، ليعلم معانى الآيات الكريمة فى مواضعها من ترتيب المصحف الشريف ، وليتبين أحوالها المتعددة من حيث الناسخ والمنسوخ ، أو العموم والخصوص ، ونحو ذلك .

وبذلك يكون التفسير التحليلى ، ضرورة للتفسير الموضوعى ، فهما يتعاونان ، ولا يتعارضان ، بل يتكاملان لخدمة النص القرآنى ، وإنضاج « علم التفسير » كله.

---

(١) انظر كتابى : « معركة الوجود بين القرآن والتلمود » ص ٧٧ وما بعدها ، وهو لون من التفسير الموضوعى يبنت فيه سراً من أسرار القرآن المعجز فى هذا الباب .

٧ ـــ الخطوة الســابعة :

بعد فهم الآيات الكريمة ، والنظر فيها مجتمعة ، يقسم المفسر الموضوع إلى عناصر وأجزاء ، منتزعة من صميم المعانى المقررة فى الآيات الكريمة ، ويربط بينها برباط علمى ، يجعل من الموضوع وحدة واحدة ، مسلسلة ، ومرتبة ترتيباً فنياً يتفق مع النمط القرآنى ، فيقدم ما يتعلق بذات الله على كل شيء ، وما يتعلق بالأصول على الفروع[١] ، وما يتصل بالفرائض على ما دونه ، وهكذا يقدم الأهم على المهم ، وجواهر الأشياء على أعراضها ، وفق خطة ونظام يبرز إعجاز القرآن فى موضوعاته ، كما هو معجز فى مواضع آياته ، المرتبة فى سورها ، لأن كليهما جاء بقدر موزون ، أو كما قال سبحانه :

﴿ .. كتاب أُحْكِمَتْ آياته ثم فُصِّلَتْ مِن لدن حكيم خبير ﴾ هود: ١

فإذا استوت هذه العناصر أمام نظر المفسر ، ضم إلى كل منها ما يلائمه من الآيات بلا تكلف ، ويفسر مفرداتها ، ومعانيها المتصلة بالموضوع اتصالاً وثيقاً ، مع الاقتصار على « موضع الدلالة » من الآية الكريمة إن كانت متعددة الأغراض ، لأن التفسير هنا مرتبط « بالموضوع » ، ولكل مقام مقال ، وما العلم إلا مراعاة مقتضى الحال .

وإذا كان « الموضوع » مما يَرِد عليه بعض الشبهات ، التمس الرد من آيات الموضوع ذاته ، فإن الله تعالى أودع كتابه معانى لا تحصى ، وردّ على كل معارض ومعاند إلى يوم القيامة بأصول جامعة ، وألفاظ حافلة ، ﴿ تُؤْتِى أُكُلَها كلّ حين بإذْن ربِّها ﴾ إبراهيم : ٢٥ .

فإن لم يفتح للمفسر[٢] من هذا ، التمس الرد من القرآن فى موضوع آخر مناسب لموضوعه ، كموضوع « الغيب » بالنسبة « لصفات الله تعالى » ، وكموضوع « الوحى » بالنسبة لموضوع الرسالة والرسل وهكذا .

---

(١) أنظر موضوع : « المعية فى القرآن الكريم » من هذا الكتاب على سبيل المثال .

(٢) مما نقطع به وجود عناصر متكاملة تامة فى كل موضوع ، بما فيها الرد على شبهات الموضوع ذاته ، ومع ترداد النظر ، وتكرار الفكر يفتح الله تعالى بما يشاء لمن شاء ،ولاعلم لنا إلا ما علمنا سبحانه وتعالى .

ولا يخرج عن إطار القرآن الكريم فى هذا الباب ، إلا إلى الآثار الصحيحة التى فى ذات الموضوع ، لأنها شارحة للقرآن[1] ، أما الردود العقلية ، والأبحاث الفكرية فلها موضع آخر غير التفسير « الموضوعى » ، وإلَّا ضاع هذا النوع فى غمارها ، كما حدث مع التفسير « التحليلى » قديماً .

٨ ــ أما الخطوة الأخيرة :

وهى التقيد بقواعد وضوابط هذا التفسير ، فالقصد منها لفت انتباه المفسرين إليها ، ووجوب مراعاتها ، حتى يتجنب الحشو ، والاستطراد ، والتقسيمات الفنية المحضة ،التى وردت فى مصطلحات العلوم المنطقية ، والفلسفية وغيرها ، ولا يتورط فى تقسيمات أو تقعيد قواعد لا تشهد لها نصوص القرآن الكريم المباشرة ، على ما نبينه ــ إن شاء الله ــ فيما يلى :

* * *

(١) سيأتى فى « المبحث السابع » أن الآثار لا تدخل فى عناصر الموضوع ، إنما تدخل فى الشرح فقط .

المبحث السـابع

قواعد وتنبيهات ضرورية

يشترط فى المفسر عامة شروط وآداب ضرورية ، بينها العلماء مفصلة مثل : الورع والتقوى ، والعلم بلغة العرب ، وعلوم القرآن ، وعلوم الحديث دراية ورواية ، حتى يميز الصحيح من السقيم ، وغير ذلك[1] وقد فصل العلماء أيضاً الأدوات التى يحتاج إليها المفسر ، والقواعد التى تحكم عمله كما هو مقرر فى مواضعه[2] .

كل هذا مقرر ومطلوب ممن يتصدى للتفسير بكل أنواعه .

ولكن هناك قواعد خاصة ، وضوابط ضرورية لا بد من مراعاتها فى « التفسير الموضوعى » على وجه الخصوص ، لأنه نوع من تفسير القرآن بالقرآن نصاً ، أو استنباطاً من نص ، ولأن الخلل فيه يوقع الخلل فى « موضوع » كامل ، وليس فى « موضع » واحد كما هو الشأن فى التفسير التحليلى ، الذى قد يتساهل فيه قليلاً ، لأنه فى حقيقته يقوم على الرأى المحمود ، والنظر فى اللغة والأدلة ، التى قد تختلف فيها الأنظار والأفكار .

وهذه قواعد وضوابط نراها ضرورية « للتفسير الموضوعى » بذاته ، وهى على سبيل التمثيل لا الحصر :

أولاً : الالتزام التام بعناصر القرآن :

فيجب على المفسر الالتزام بالعناصر التى استخرجها من النظر فى الآيات الكريمة ، على الوجه السابق بيانه ، ولا يصح أن يضيف عنصراً للموضوع من أى مصدر غير القرآن الكريم ، لا السنة النبوية ، أو اللغة ، أو ما تقتضيه القسمة العقلية ونحو ذلك .

---

(١) راجع الإتقان للسيوطى ج ٢ ص ١٧٥ وما بعدها « النوع الثامن والسبعون فى معرفة شروط المفسر وآدابه » .

(٢) المرجع السابق فى النوعين : « الأربعين ، والثانى والأربعين » .

كذلك لا يطوى عنصراً من القرآن بأى حجة يتصورها ، ولو كانت دعوى الدفاع عن القرآن .

وقد جاء زمان كان بعض المفسرين يخجل — تحت وطأة التفوق الحضارى للكفار — من تقرير حقائق القرآن فى تعدد الزوجات ، والطلاق ، والربا ونحوها ، فيؤولها بما يبطلها ، أو يهدر وجودها من عناصر القرآن .

فلما ذهبت السكرة بدت حقائق القرآن شامخة معجزة ، يثوب إليها المنكرون الآن بالإجلال والإكبار ، بعدما تبين لهم أنها الحق المبين .

والمسألة ينبغى أن تتقرر على الوجه التالى :

إن الله يعلم ما لا نعلم ، والقرآن أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض ، وقد رُكِّب على غاية العلم والحكمة فى الحذف والإثبات .

فكل إضافة أو نقص فى عناصره هى استدراك على القرآن ، وقول بالكذب على الله تعالى ، ينبغى أن يحذره المفسر غاية الحذر ، لأنه فى أقل الأحوال قد يفتح أبواب الخطأ التى تنسب إلى القرآن ، وما هى إلا أخطاء الإنسان ، التى لا يسلم منها عمل أحد من البشر — حاشا المعصومين — مهما صحت النيات ، وخلص القصد .

ومن هنا يأتى « **تنبيهان** » مهمان :

التنبيه الأول: عن وظيفة السنة النبوية فى التفسير الموضوعى :

فالمفسر يأتى بالحديث النبوى شارحاً ومبيناً للنص القرآنى ، ولا يصح أن يأتى به ليكون « منشئاً » لعنصر من عناصر الموضوع القرآنى .

لذلك لا نصنف عناصر الموضوع من حديث نبوى ما دمنا فى إطار الموضوع القرآنى ، وفى مجال التفسير الموضوعى لهذه العناصر بذاتها ، من غير زيادة عليها ، حتى تتحدد « موضوعات القرآن » مستقلة ، ويعلم القارىء حدود ما أنزل الله على رسوله من القرآن المتلو المتعبد بلفظه .

وهذا أيضاً ما يقتضيه التحرير العلمى الدقيق ، من وجوب التقيد بقيود الموضوع المراد بحثه :

فإن قال مثلاً : « العلم فى القرآن » تقيد فى عناصره ، وأمثاله بالقرآن فقط ، وتأتى السنة النبوية تفسيراً لمعانى العناصر والآيات الكريمة .

وإن قال : « العلم فى الكتاب والسنة » تقيد فى عناصره بالأصلين .

وإن قال : « العلم فى الإسلام » ضم إليهما أقوال الصحابة والتابعين .

وإن أطلق فقال : « بحث فى العلم » أضاف إلى ذلك ما شاء من مصادر التاريخ ، والفلسفة ، ومذاهب الفكر .. وهكذا .

وعلى هذا يحمل كلام شيخنا العلّامة الكومى :

« .. فإن أعوزه كمال ذلك الموضوع إلى حديث جاءت به السنة ، حتى يكمل له هيكله .. جاء به .. » .

لأنه يقول بعد ذلك :

« ... حتى يستوعب المفسر جميع نواحيه ، ويلم بكل أطرافه ، وإن أعوزه ذلك لجأ إلى التعرض لبعض الأحاديث المناسبة للمقام ، لتزيدها إيضاحاً وبياناً »[1] .

وعلى هذا أيضاً ينبغى أن يحمل كلام صديقنا المدقق الدكتور الفرماوى فقد جعل « منهج التفسير الموضوعى » فى خطوته السادسة هكذا :

« تكميل الموضوع بما ورد من حديث الرسول ﷺ إن احتاج الأمر ذلك ، حتى يكمل له هيكله ، ويزداد وضوحاً وبياناً »[2] .

نعم يوجد بعض توسع فى عبارة : تكميل الموضوع ، وكمال هيكله ، مما اقتضى التنبيه على ما ينبغى أن تحمل عليه ، خاصة ونحن جميعاً نلتمس السبيل إلى إحكام خطة التفسير الموضوعى ، وإرساء مناهج البحث فيه .

التنبيه الثانى: عن وظيفة كلام الصحابة والعلماء فى التفسير الموضوعى :

فهذا يأتى من باب أولى ـــ شارحاً للقرآن ، لا منشئاً لعنصر فى موضوع من موضوعاته .

---

(١) التفسير الموضوعى للقرآن الكريم ص ١٣ ، ١٧ .

(٢) البداية فى التفسير الموضوعى ص ٦٢ .

لأن المقصود – كما قلنا مراراً – هو إبراز موضوع قرآنى بعينه ، مرتبط بعناصر القرآن وحدها ، وكل كلام سواها يذكر فى تفسيرها عَرَضاً لا غَرَضاً ، وإلا وقع المفسر فى كثير من الأخطاء من حيث لا يقصد ، ولا يحب .

وقد قرأت كتاب « الصبر فى القرآن » لصديقنا العلامة الدكتور يوسف القرضاوى ، وقد أجاد فيه وأفاد ، وهو من الكتب القلائل التى تستحق أن تدرج تحت عنوان : « من التفسير الموضوعى » ، كما فعل المؤلف .

لكن وقع فى الكتاب تجاوز يسير فى بعض العناصر ، يقتضى التنبيه عليه ، تأكيداً لما نريده جميعاً من خدمة وتأسيس هذا العلم القرآنى الناشىء . فقد جاء « الفصل الأول » من الكتاب تحت عنوان : « حقيقة الصبر فى القرآن وضرورته »[1] . ثم جاء تحت هذا العنوان عنصر فرعي هو : « الصبر خصيصة إنسانية » .

ولم يذكر المؤلف الفاضل نصاً قرآنياً يؤيد هذا العنصر ، بل ذكر كلاماً للإمام الغزالى خلاصته :

« أن الصبر خصيصة إنسانية لا تتصور فى البهائم لنقصانها ، ولا فى الملائكة لكمالها » .

وهاهنا وقع الخطأ من جهتين :

أ – وضع هذه القاعدة تحت عنوان : « حقيقة الصبر فى القرآن » يوهم بظاهره أنها قضية مقررة فى القرآن ، أو عنصر من عناصر موضوع الصبر فى القرآن ، وليس كذلك .

ب – ويوهم أنها قضية صحيحة فى ذاتها ، وليس كذلك أيضاً :

لأن « الجنّ » مكلفون مثلنا ، ومطالبون بالصبر .

ولأن القرآن الكريم أثبت « للملائكة » نوعاً من الصبر يليق بهم ، وهو الاستمرار الدائم على الطاعة[2] قال تعالى : ﴿ .. فالذين عِنْد ربِّك يُسَبِّحون

(١) الصبر فى القرآن ص ١٠ .

(٢) ولا ينافى ذلك كونه جبلة وفطرة ، فهم يحمدون على هذا الاستمرار ، مما يدل على أن لهم نوعاً من الاختيار ، وهذا صبر يليق بهم عليهم السلام ، ولا يقاس على المطلوب من الإنسان .

له بالليل والنهار وهم لا يَسْأمُون ﴾ فصلت : ٣٨ .

وعكسه صبر « الشياطين » على الكفر والضلال .

ولأن من أسماء الله الحسنى : « **الصبور** »[1] ، وهو صبر يليق بكماله جل شأنه .

وفى هذا بلاغ ومقنع لوجوب التزام عناصر القرآن ، حين نتصدى لموضوع قرآنى ، أو تفسير موضوعى ، والله أعلم بأسرار كتابه الكريم .

ثانياً : التقيد التام بصحيح المأثور فى التفسير :

وهذا أمر ضرورى للمفسر الموضوعى ، حين يجمع الآيات ، ويصنفها فى مواضعها ، ويستخرج عناصرها ، حتى يفسر الموضوع كله على وجه صحيح لا اضطراب فيه ، وهذا يتمثل فى عدة أنواع .

١ ـــ ماصح وثبت من تفسير القرآن للقرآن يجب عليه التزامه لأنه أوثق المعانى ، أما ما كان من استنباط المفسر فليس من المأثور ، وهو كغيره من ضروب الاجتهاد بالرأى .

٢ ـــ ما ثبت من تفسير النبى ﷺ ، أو من تفسير الصحابة ، كلفظ « الظلم » فى آية الأنعام : ٨٢ ﴿ **الذين آمنوا ولمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ** .. ﴾ فإنه يصنف فى موضوع « الشرك » ، لا الجور والاعتداء ، لأن النبى ﷺ فسره بذلك صراحة[2] ، وأحال إلى آية فى القرآن الكريم ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم** ﴾ لقمان : ١٣ .

فثبت بيقين أن القرآن قد فسر القرآن فى هذا الموضع ، وأن النبى قد فسر اللفظ أيضاً ، فاجتمع فى هذا الحديث المثالان ، وكان أحدهما يكفى . والمفسر الموضوعى يصنف ما جاء فى سورة الفاتحة من وصف « المغضوب عليهم » فى موضوع الآيات التى تتحدث عن اليهود ، ووصف « الضالين » فى الآيات

---

(١) رواه الترمذى من حديث أبى هريرة مرفوعاً ، ، وانظر فتح القدير للشوكانى فى الأعراف : ١٨٠ .

(٢) الحديث رواه : أحمد والشيخان من حديث ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعاً .

التى تتحدث عن النصارى ، لأن النبى ﷺ فسرهما[1] بذلك ، ولا يلتفت إلى غير هذا التفسير،والمفسر الموضوعى يدرج قصة « موسى وفتاه » التى فى سورة الكهف مع موضوع قصص موسى كليم الله ، لأنه ثبت عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كذب نوفا البكالى حين زعم أنه موسى بن ميشى بن يوسف ، وقال ابن عباس وسائر السلف إنه : موسى بن عمران[2] .

٣ ــ ما ثبت من المفهوم والمعانى ودلالات الألفاظ ، وكان شائعاً ذائعاً متعارفاً عليه عند الكافة ، فى عهد رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين ، وهذا ما يسمى « بالحقيقة الشرعية » ، وهى تمثل الاصطلاح الإسلامى للألفاظ العربية .

فلا عبرة عند المفسرالموضوعى وهو يصنف الآيات ، ويؤلف الموضوع إلا بهذه المعانى إن وجدت ، ولا يلتفت إلى المعانى الطارئة ، ولا المصطلحات الحادثة بعد هذا العصر فى العلوم والمذاهب الفرعية ، والكلامية ، ونحوها مما جد بعد عصر النزول ، والراشدين ، وعلى سبيل المثال :

أ ــ كلمة « الشريعة » حقيقة شرعية فى الدين كله ، وليست مخصوصة بجانب منه كالفروع مثلاً .

وكذلك لفظ « الفقه » يطلق على فهم الدين كله ، وليس مجرد الفقه الاصطلاحى الخاص بالعبادات والمعاملات .

وقد استعملهما القرآن بهذا الإطلاق :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شريعة مِنَ الأمر فاتَّبِعْهَا ... ﴾ الجاثية : ١٩ .

﴿ .. لِيَتَفَقَّهُوا فى الدين ﴾ التوبة : ١٢٢ .

ب ــ « الملائكة » ، « والجن » ، والشيطان » هى « ذوات » حقيقية ، وليست كناية عن معان ، أو رموز لقوى الخير والشر فى النفس الإنسانية ، كما

---

(١) الحديث رواه : أحمد والترمذى ، وغيرهما من عدة طرق « انظر فتح القدير للشوكانى فى تفسير سورة الفاتحة » .

(٢) أنظر تفسير ابن كثير ، وفتح القدير للشوكانى ، والبخارى فى تفسير سورة الكهف .

حاول بعض المفسرين المحدثين أن يصورهم بها[1] ، مخالفاً بدهيات المعانى التى كانت شائعة عند المسلمين جميعاً ، وقت نزول القرآن ، شيوعاً لا ينازع قط ، وقد رأوا الملائكة « حديث جبريل عليه السلام » فى صورة إنسانية ، ورأى بعضهم الجن « حديث أبى هريرة فى البخارى » ، وغير ذلك من الواضحات .

جـ ــ « وآدم » عليه السلام هو أبو البشر ، وهو أول إنسان ، وقد خلق فى الملأ الأعلى ، وأسجدت له الملائكة ، وأسكن الجنة ، وأخرج منها بذنبه ، وهذه كلها حقائق شرعية لا سبيل إلى تأويلها كما حاول بعض الجهال ــ القائلين فى القرآن بغير علم ــ أن يصور آدم خارجاً من رحم الأرض ، وطين البحار ، متدرجاً فى أطوار الخلق ، كما زعمت نظرية : « النشوء والارتقاء » التى ماتت عند أصحابها أنفسهم ، ولا تصلح لتفسير الأساطير ، فكيف يفسر بها القرآن العظيم ؟!

ثالثاً : تجنب الحشو والاستطراد فى التعليق :

ذلك لأن القصد من التفسير الموضوعى هو إبراز موقف القرآن ذاته من موضوعه ، فإذا استطرد المفسر ، وتوسع فى التعليقات طغى ذلك على العناصر القرآنية ، وخرج من نطاق التفسير الموضوعى ، إلى كونه رأياً لصاحبه ، أو استطراداً لأدنى ملابسة ، كما حدث فى التفسير التحليلى من قديم ، وبالتالى يندرج هذا تحت اسم آخر هو : « الدراسات القرآنية » أو « من معانى القرآن » ، أو « حول القرآن » ، ونحو ذلك من الألفاظ العامة ، التى لا يضبطها صاحبها تحت موضوع قرآنى محدد ، أو يلتزم فيه نهجاً تفسيرياً محدداً .

وقد عاب العلماء قديماً على الإمام الرازى ، وحديثاً على الشيخ طنطاوى جوهرى تفسيريهما ، حتى قالوا : « فيهما كل شىء إلا التفسير » ، ولا شك أن العيب سيكون أشد إذا استطرد المفسر فى التفسير الموضوعى الذى من شأنه : « الموضوعية والتحديد » .

ومن هذا الباب كثير من الكتب التى تدرج فى التفسير الموضوعى ، تحت

(١) حكى هذا الرأى الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار عند تفسير قصة الملائكة فى أول سورة البقرة ، وينسب هذا إلى الشيخ محمد عبده .

عنوان قرآنى مثل : « الإنسان فى القرآن »[1] ، « واليهود فى القرآن »[2] ، فإنها فى الحقيقة دراسات مرسلة عن التقيد بمنهج التفسير الموضوعى الاصطلاحى ، وإن عدها بعض الكاتبين فى هذا الباب ، متأثرين بظاهر العنوان .

رابعاً : التدقيق التام قبل التقعيد والتأصيل :

فالتفسير الموضوعى يقوم على جمع الآيات ، وربما نظر المفسر فى مجموعها من غير إحصاء واستقصاء ، ثم أصدر حكماً عاماً ، أو أصّل أصلاً جامعاً ، أو وضع قاعدة كلية ، فيؤدى ذلك إلى غلط ، أو تخليط يحرف الكلم عن مواضعه .

لذلك ينبغى النظر الشامل ، والاستيعاب الكامل لكل الألفاظ القرآنية الواردة فى موضوع ما ، وتقليب الفكر والنظر فى استعمالاتها المتعددة ، وحصر الفروق بين أصل الوضع ، وواقع الاستعمال ، وعدم متابعة الغير فى ذلك إلا بعد التحرى ، والتحرير ، والفحص البصير .

وقد لفت العلماء الأنظار إلى ذلك من قديم ، لكن مع الأسف شاعت فى الكتب أخطاء جمة من جراء هذا التقعيد بلا تحرٍ ، أو لأخذ كلام غيرهم ونقله بلا نقد وميزان ، مما يجب الاحتياط منه فى التفسير الموضوعى بوجه أخص ، وهذه بعض أمثلة :

أ ـ « قال ابن فارس رحمه الله فى كتابه **الأفراد** : كل ما فى القرآن من

---

(١) لعباس العقاد ، وهو كتاب بديع يقارن بين الإنسان فى القرآن فى « ٥٠ صفحة » ، وبين الإنسان فى مذاهب الفكر والعلم فى « ١٢٠ صفحة » ، وهو تحليل فكرى يخرج عن نمط عنوانه ، إلى عنوان آخر كان خليقاً به هو : « مقارنة بين الإنسانين » أو نحو ذلك .

(٢) هو للأستاذ عفيف طبارة ، وليس فيه من التفسير الموضوعى إلا نحو ثلثه فقط « الباب الأول » ، وبقيته استطراد فى غير موضوعه مثل « الباب الثانى » : قصة إبراهيم عليه السلام « وما كان إبراهيم يهودياً » ، ومثل « الباب الثالث » : قصة يوسف عليه السلام ، وهو إسرائيلى وليس يهودياً بل كان حنيفاً مسلماً ، « والباب الرابع » : قصة موسى عليه السلام ، وما كان عليه السلام يهودياً أيضاً ، ثم « الباب الخامس » : أضواء على القصة فى القرآن ، فماذا بقى للموضوع الأصلى ؟ ولماذا هذا العنوان ؟؟ .

ذكر الأسف فمعناه الحزن ، إلا : ﴿ **فلما آسَفُونا انْتَقَمْنَا مِنْهم** ... ﴾ فمعناه أغضبونا ... »[1] .

وهذه قاعدة جليلة ، وتشير إلى قاعدة أخرى خلاصتها : « كل لفظ قيل بالاشتراك اللفظى بين الخالق والمخلوق فمعناه مختلف بما يليق بصاحبه » .

وقد أحسن ابن فارس رحمه الله فى تقريرها ، غير أن هذا النوع من القواعد يحتاج إلى غاية التحرى والنظر ، ولذلك أخطأ رحمه الله حين قال بعد ذلك : « وكل ما فيه من ذكر البر والبحر فالمراد بالبحر الماء ، وبالبر التراب اليابس ، إلَّا : ﴿ **ظَهَرَ الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس** ... ﴾ فالمراد به البرية والعمران »[2] .

لأن تفسير « **البر** » بالتراب اليابس تخصيص بلا مخصص ، وقد ألجأه ذلك إلى استثناء الآية المذكورة ، وضيق عليه واسعاً من المعانى ، ينقض القاعدة نقضاً .

والصحيح أن : « **البَرّ ضد البحر** »[3] مطلقاً ، فيشمل التراب اليابس ، والطين الذى ليس بحراً ، والعمران والبوادى ، والجبال الصخرية التى ليست تراباً ، بل يشمل « **الجوّ** » أيضاً ، لأنه ضد البحر ، وبذلك تستقيم جميع المعانى التى وردت بها الآيات الكريمة بلفظ « البر » .

فيدخل النقل الجوى فى الامتنان الإلهى على العباد بقوله تعالى : ﴿ **ولقد كَرَّمنا بنى آدم وحَمَلْنَاهم فى البَرّ والبحر** ﴾[4] ، وهذا من إعجاز اللفظ القرآنى ، الذى يتبدى للناس فى هذا الزمان ، ويخطىء من يحجّر منه واسعاً بتفسير ، أو بقاعدة غير مستوعبة .

وأيضاً يدخل قوله تعالى : ﴿ **أُحِلّ لكم صيدُ البحر وطعامُه مَتاعاً لكم وللسيّارة وحُرِّم عليكم صيدُ البرّ ما دمتم حُرُماً** ﴾[5] فلا شك أن « الجو »

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن جـ ١ ص ١٤٣ « النوع : ٣٩ معرفة الوجوه والنظائر » .

(٢) المرجع السابق .

(٣) معجم ألفاظ القرآن الكريم ــ مجمع اللغة العربية .

(٤) سورة الإسراء : ٧٠ .

(٥) المائدة : ٩٦ .

داخل فى البر هنا ، فلو اصطاد المحرم بسهم ، أو برصاصة طائراً فى الجو لوجبت عليه الكفارة .

وعلى تفسير الإمام ابن ‌ارس لا شيء عليه ، لأنه لم يصطد على التراب اليابس[1] ، أو هو حكم مسكوت عنه ، وكلاهما : « دعوى الإباحة أو السكوت » خطأ جاء من وضع القاعدة بلا استقراء كلى لمدلول « البر » فى القرآن الكريم .

ب ــ ومن هذا القبيل قول بعضهم : « كل شيء فى القرآن « قليل » ، « وإلا قليل » فهو دون العشرة »[2] .

وهذا كلام يدحضه ظاهر القرآن نفسه فى عديد من الآيات الكريمة[3] ، ويكفى قوله تعالى : ﴿ وقليل مِنْ عِبَادِىَ الشَّكُور ﴾ سبأ : ١٣ .

ولو لم يدخل فيهم إلا الأنبياء لكفى ، ولجاوزوا العدّ .

وقد سبق أن نبهنا على قاعدة « الريح والرياح » وبينا الخطأ فيها عند الكلام على فوائد التفسير الموضوعى بالمبحث الخامس .

والغرض أن ينتبه من يتعرض للتفسير الموضوعى غاية الانتباه ، ويأخذ حذره حتى لا يقع فى حكم قاصر ، أو قاعدة ناقصة ، أو أصل منقوض ، وأولى الناس أن « يتبينوا » وأن « يتدبروا » القرآن هم علماؤه ومفسروه ، والله يعصمنا جميعاً من الزلل خاصة فى كتابه ودينه .

جـ ــ ولشيخ شيوخنا العلامة محمد عبد الخالق عضيمة رحمه الله تعالى دراسات علمية جامعة، سبق أن نبهنا عليها[4]، وقد نحا فيها نحواً عجيباً فريداً، تجعل من أسلوب القرآن حكماً فى كل ما يعرض للدارس من قوانين النحو ، والصرف ، وتسجل الظواهر اللغوية والنحوية فى ضوء الأسلوب القرآنى

---

(١) لا يقال إنه اصطاد وهو على التراب اليابس لذلك وجبت الكفارة ، لأننا نقول : لو مدّ شبكة فى البحر فصاد منه وهو على التراب اليابس فلا شيء عليه ، فلا بد من إدخال « الجو » فى معنى البرّ ، كما هو معناه على الحقيقة ، والله أعلم .

(٢) الإتقان فى الموضع السابق جـ ١ ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٣) أنظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن .

(٤) انظر المبحث الرابع ، والخامس من كتابنا هذا .

الإحصائى ، بعد أن استبد بها الشعر دهراً طويلاً ، وبذلك أصبحت قواعد القرآن معياراً لهذا الباب ، يصحح الأخطاء القديمة ، ويُردّ إليه ما يجد ويستحدث من قضاياه[1] .

ويقول الشيخ رحمه الله :

« وللنحويين قوانين كثيرة لم يحتكموا فيها لأسلوب القرآن ، فمنعوا أساليب كثيرة جاء نظيرها فى القرآن ، من ذلك :

— ذكر سيبويه قُبْحَ « كُلّ » المضافة إلى نكرة فى أن تلى العوامل ... وجاءت « كلّ » المضافة إلى نكرة مفعولاً به فى ٣٦ موضعاً فى القرآن الكريم ....

— منع ابن الطراوة أن يقع المصدر المؤول من « أنْ » والفعل مضافاً إليه ....

جاء هذا فى ثلاثة وثلاثين موضعاً من القرآن .

— منع النحويون وقوع الاستثناء المفرغ بعد الإيجاب ، وعللوا ذلك بأن وقوعه بعد الإيجاب يتضمن المحال أو الكذب .

وفى القرآن ثمانى عشرة آية وقع فيها ... وفى بعضها كان الإيجاب مؤكداً مما يبعد تأويله بالنفى كقوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ** ﴾ البقرة : ٥٤ .... »

ثم يقول الشيخ رحمه الله :

« ولبعض النحويين جرأة عجيبة : يجزم بأن القرآن خلا من بعض الأساليب من غير أن ينظر فى القرآن ، ويستقرى أساليبه ، ...... « وذكر أمثلة كثيرة » .... كذلك رأينا بعض النحويين يخطىء فى حصر ما جاء فى القرآن حينما يتعرض لذلك ... »[2] ثم ذكر الأمثلة .

---

(١) راجع مقدمة كتاب : « دراسات لأسلوب القرآن الكريم » القسم الأول ج ١ ص ٢ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ٧ — ١٤ مع اختصار يسير .

وما فعله الشيخ رحمه الله هو المنهج ، وهو الخليق أن يحتذيه كل عالم فى فنه ، خاصة أصحاب « التفسير الموضوعى » ، ليكون القرآن العظيم حكماً ومهيمناً كما أراده ربنا جل شأنه .

خامساً : مراعاة خصائص القرآن الكريم :

ذلك لأن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى ، نزل بلسان عربى مبين ، فاجتمع له من الخصائص ما لم يجتمع لكلام آخر ، فى أى لسان ، فهو كلام معجز ، تحدى الله تعالى الإنس والجن، والعرب خاصة بلفظه ونظمه ، ومضامينه ومعانيه .

فهو من جهة قائم على أتم الحقائق ، والإحاطة بالأشياء ، وتمام الصدق والعدل : ﴿ **وتَمَّت كلمةُ ربّك صِدْقاً وَعَدْلاً لامُبَدّل لكلماته وهو السميع العليم** ﴾[1] . وهو من جهة أخرى قائم على أتم وجوه الكلام العربى وأوفاها ، وقد صنع فى لغة العرب ضرباً من الكلام جديداً وفريداً ، هو نوع قائم برأسه ، متميز عما عداه ، برىء كل البراءة من نقائص البشر فى لغتهم ، ومثالبهم فى استعمالاتهم ، مع كونه يركب الكلام من مفرداتهم ، ويجرى على سنن تراكيبهم ، وهذا هو الإعجاز ، ولعل هذا الوجه هو سر حروف الفواتح فى أوائل سورها ، والتى يأتى ذكرُ القرآن بعدها خمساً وعشرين مرة ، من تسع وعشرين سورة [2].

وكتاب هذا شأنه ينبغى مراعاة خصائصه الذاتية عند تفسيره ، ويجب هذا بوجه أخص عند تفسيره موضوعياً ، لأنه يتقرر بالاجتماع ما لا يتقرر فى الانفراد ، والنظرة الكلية تبرز دقائق الحقائق ، إذا تقيد المفسر بمراعاة هذه الخصائص ، ولو غفل عنها لحظة اضطرب معه أصل الموضوع ، ناهيك عن استخلاص قواعده ، وكلياته ، ودقائقه .

وهذا الباب من أدق أبواب العلوم القرآنية ، وهو خليق بأن يفرد له العلماء المعاصرون مزيداً من الأبحاث والرسائل ، لأنه متشعب الحقائق

---

(١) سورة الأنعام : ١١٥ .

(٢) لم يذكر بعد فواتح : «مريم ــ العنكبوت ــ الروم ــ ن» مباشرة ، وإنما ذكر خلال السور لحكم قررها العلماء .

والمسائل ، وسنتناول بعضه بإيجاز على سبيل التنبيه :

أ ـــ القرآن أصل الأصول جميعاً :

فهو الحاكم على غيره ، وهو المهيمن على ما سبقه ، وهو الحكم عند التنازع فى القواعد والفروع ، وهو الأصل الذى ينبغى أن تقاس عليه أصول العلوم جميعاً : فى اللغة والأدب ، والفقه والأصول ، والسير والتاريخ ، والقوانين والشرائع ، والقصص والغيب ، وسائر فنون الناس .

فإذا قال القرآن فى شىء من هذا فقوله الفصل ، وحكمه الأصل ، وتقريره الحق والصدق ، وإن خالفته أوهام الناس ، أو فرحوا بما عندهم من العلم المحدود ، فإن الله : ﴿ **بِكُلِّ شَىء مُحيط** ﴾ فصلت : ٥٤ .

ويقرر هذا الأصل أن الله تعالى جعل القرآن شاهداً ورقيباً على كتب الوحى السابقة ، فغيرها أحرى وأولى بهيمنته[١] : ﴿ **وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْن يديه مِنَ الكتاب ومُهَيْمِناً عليه فَاحْكُم بينهم بِمَا أَنْزَل اللهُ ولا تَتَّبِعْ أهواءهم عمّا جاءك مِنَ الحق ...** ﴾ المائد : ٤٨ .

وهذا أصل يتقرر عليه ما بعده :

ب ـــ القرآن غاية فى الإحكام والإتقان :

لأنه معيار الأشياء وميزانها ، فلا بد أن يكون مركباً على أتم الوجوه وأوفاها فى لفظه ، ونظمه ، ومعناه .

فليس فى القرآن قط كلمة مكررة لمحض التكرار[٢] ، وإنما هى لغرض حكيم فى كل موضع ، ولمعنى مقصود فى كل موقع .

وليس فيه حرف زائد على الإطلاق ، وإنما تجتلب فيه الحروف والكلمات ليؤدى كل منها قسطاً من المعانى ، لا يؤدى بسواها ، ولا يقوم بغيرها .

---

(١) المهيمن : الشاهد ، وقيل الرقيب ، والقفّان على غيره ، يقال فلان قفان على فلان إذا كان يتحفظ أموره « أنظر نزهة القلوب فى تفسير غريب القرآن للسجستانى » فى الآية الكريمة .

(٢) راجع فى هذا كتاب : « البرهان فى متشابه القرآن » للكرمانى ، وقد طبع حديثاً تحت عنوان : « أسرار التكرار فى القرآن » ـــ تحقيق عبد القادر عطا .

وليس فيه أقوال ظنية ، أو جزافية ، أو تقريبية ، وإنما هى الحقائق القاطعة ، والتحديد الصارم فى كل خبر ، أو قصة ، أو حكم .

ويتقرر هذا كله بقوله تعالى : ﴿ .. **كتاب أُحْكِمَتْ آياتُه ثُمّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حكيم خبير** ﴾ سورة هود : ١ .

ومن ثم كان على من يتصدى للتفسير الموضوعى أن يلاحظ هذا الميزان ، وهو يجمع الآيات الكريمة ، ويؤلف موضوعها على معانيها ، ويستخرج عناصرها من ألفاظها ودلالاتها ، فيعلم تمام العلم أن كل كلمة قد وضعت فى مكانها ، وأن كل حرف يذكر أو يحذف فإنما هو بمعيار ومقدار ، وكل تقديم أو تأخير فى موضع دون موضع إنما هو لغرض يراد،ينبغى أن يبرزه فى عناصر الموضوع .

ومثال ذلك قوله تعالى فى التحدى بالقرآن :

١ — ﴿ **قُلْ لَئِن اجْتَمَعَت الإِنْسُ وَالجِنُّ على أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذا القرآن لا يَأْتُون بِمِثْلِه** ﴾ الإسراء : ٨٨ .

٢ — ﴿ .. **فَأْتوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِه مُفْتَرَيَاتٍ** .. ﴾ هود : ١٣ .

٣ — ﴿ .. **فأتوا بسورة مِثْلِه** ... ﴾ يونس : ٣٨ .

فالآيات الكريمة تتحدى الكفار أن يأتوا بالقرآن ، أو بعشر سور ، أو بسورة واحدة ، والمطلوب فى الأطوار الثلاثة أن يأتوا بشىء مماثل للقدر المتحدى به تمام المماثلة ، ولذلك جاء فيها جميعاً كلمة : « مِثْله » من غير حرف التبعيض : « مِنْ » .

فلما عجزوا جاء الطور الرابع والأخير يطالبهم بسورة تماثل القرآن مماثلة جزئية ، ولو فى بعض نواحيه ، ولذلك جاءت « مِنْ » فى موضعها وميقاتها ، لتؤدى قسط المعنى المطلوب بذاته فى هذا المقام فقال تعالى :

٤ — ﴿ **وإنْ كُنتم فى ريْبٍ مِمّا نَزَّلنا عَلَى عَبْدنا فَأْتُوا بسورة مِّن مِّثْلِه** .. ﴾ البقرة : ٢٣ .

ولذلك عقب الله تعالى عليها هنا بالنفى التام :

﴿ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ... ﴾ البقرة : ٢٤ .

كما عقب الطور الأول بالنفى العام : ﴿ .. لا يأتون بمثله .. ﴾ الإسراء : ٨٨ فاجتمع النفى فى طرفى التحدى ، إثباتاً للعجز ، وتقريراً لإعجاز القرآن فى بداية الموضوع ، ونهايته ، وسبحان من هذا كلامه .

وأئمتنا الأعلام كانوا يوقنون بهذه القاعدة تماماً ، ولكنها أهملت فى التطبيق كثيراً ، فأكثر بعضهم القول بزيادة الحروف فى القرآن الكريم ،وهم يفسرون القرآن ، أو يتكلمون فى اللغة[1] ، وهذا أمر استنكره المحققون من العلماء قديماً وحديثاً ، فلا يغتر المفسر بما يجده فى الكتب من هذه الأقاويل ، ولا يتابع غيره بلا حجة أو تمحيص .

يقول السيوطى رحمه الله فيما يجب على المفسر :

« .. يتجنب لفظ الزائد فى كتاب الله تعالى ، فإن الزائد قد يفهم منه أنه لا معنى له ، وكتاب الله منزه عن ذلك ، ولهذا فرّ بعضهم إلى التعبير بدله بالتأكيد ، والصلة ، والمقحم .. »[2] .

والمحققون من العلماء يمنعون هذه الإطلاقات منعاً باتاً ، ويقولون بضرورة كل حرف فى موضعه تماماً ، وعلى سبيل المثال :

فقد قال كثير من المفسرين بوجوب زيادة « الكاف » فى قوله تعالى : ﴿ ليس كَمِثله شىء ﴾ الشورى : ١١ ، فراراً من القول بوجود مِثْل لله تعالى ، وهو محال .

وقد رد العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله ــ مقرراً ضرورة وجود هذا الحرف بذاته ، ليؤدى المعنى المقصود من الآية الكريمة ، وهو نفى وجود « ما يشبه المِثْل » ، لتقرر « نفي المِثْل » عند العقلاء ، فكان الخليق بالنفى هو الأول ، لأنه قد يدب إلى النفس دبيب الوساوس والأوهام احتمال

---

(١) أنظر كتاب : « مغنى اللبيب .. » لابن هشام جـ ١ ص ٢٤٨ على سبيل المثال وهو يمثل لزيادة « لا » النافية بأمثلة قرآنية عديدة ، مع أنه إمام جليل،ماكان يعجزه الوصول إلى بعض أسرار القرآن .

(٢) الإتقان جـ ١ ص ١٨٢ « النوع : ٤١ فى معرفة إعراب القرآن » .

وجود شبيه المثل ... وهو بحث نفيس جداً ، ويقرر هذا المبدأ تقريراً واضحاً (١).

ولذلك يجب على المفسر أن يقدم هذه القاعدة بين يديه دائماً ، فيجعل لكلام الله تعالى إجلالاً كلياً ، ثم ينقب عن المعانى الخفية بعد هذه النية ، ولا بد أن يصل — بإذن الله — إلى الفهم الصحيح ، وصدق الله :

﴿ **والذين جاهدوا فينا لَنَهْدِيَنَّهم سُبُلَنَا وإنَّ اللهَ لمع المحسنين** ﴾ آخر العنكبوت .

جـ — كتاب الهداية :

فقد أنزل الله تعالى القرآن لغرض واحد حدده تحديداً فقال سبحانه :
﴿ **ذلك الكتابُ لا رَيْب فيه هُدىً للمتقين** ﴾ البقرة : ٢ .

﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ** ﴾ البقرة : ١٨٥ .

وكل ما فيه هو لتحقيق هذا الغرض ، ابتداء من إعجازه الذى هو دليل النبوة ، حتى زجره ووعيده ، وما بين ذلك من دلائل الخلق ، وعجائب القدرة ، وحقائق الكون والحياة ، وكلها من وسائله لقبول هديه ونوره .

فالقرآن إذن ليس كتاب علوم وفنون مما تعارف عليه البشر فى الطب ، والفلك والكيمياء ونحوها .. ، وإنما تورد فيه حقائق هذه العلوم وعجائبها من خلال الدعوة إلى الإيمان بالخالق الأعلى ، وبقدرته الباهرة المطلقة ، وعلمه المحيط ، ونظامه المتقن فى الكون ، وعنايته البالغة بالأحياء والأشياء ، وقهره وجبروته فوق عباده ، خاصة بالإحياء والإماته ، ثم البعث ليوم لا ريب فيه .

ومن هنا كان على المفسر حين يجمع الآيات فى موضوع ما أن يراعى وجهة القرآن الأصلية ، فيقرر هذه الحقائق العلمية الفرعية من خلال الأصل الذى سيقت له ، ولا يترك الوسائل لتطغى على المقاصد ، ولا يسرف فى الاشتغال بالدليل عن المدلول ، فإن ذلك يجره إلى سلسلة من الأخطاء منها : أن

---

(١) أنظر كتابه القيم : « النبأ العظيم » ص ١٣٠ — ١٣٦ .

يقرر حقائق القرآن من خلال الحقائق العلمية الثابتة والعكس هو الصحيح ، لأنّ القرآن هو الحاكم عليها ، ولأن ثباتها نسبى إضافى ، وثبات القرآن مطلق نهائى .

ومنها : أن يجعل من « نظريات » العلوم والمذاهب الفكرية تفسيراً للقرآن وهى حُوّل قُلّب لا ثبات لها ولا استقرار .

ومنا : أن يجهد نفسه فى إقناع الناس بجانب « العلم » وربما أفلح فى ذلك ، ثم يقصر فى إقناعهم بجانب « الإيمان » لطول ما بذل فى الجانب الأول ، فيكون جهداً ضائعاً بلا فائدة .

د ــ القرآن عربى اللسان لا الصفات :

فالقرآن العظيم أنزل بلسان عربى مبين ، وجرى على لغة العرب فى المفردات والتراكيب ، وجاء على سننهم فى الأساليب ، واتخذها أداة ووعاء لمراميه ، لذلك اشترط فى المفسر معرفة اللغة العربية بل إتقانها .

لكن العربية لغة بشرية ، تخضع لما فيهم من فضائل ورذائل ، لذلك دخلها ضرورة الشعر ، وجفاء البادية وغلظتها ، ورقة الحواضر وعذوبتها ، وفيها الهجاء المقذع . وفيها التصوير الفنى الكذوب ، حتى قالوا فى الشعر : « أعْذبه أكْذَبه » ، وزعموا أن لكل شاعر شيطاناً ينفث على لسانه ، وما هى إلا شياطين الإنس ﴿ ... **فى كل واد يهيمون**﴾ الشعراء : ٢٢٥ .

وهنا مفترق الطرق :

فالقرآن كلام الله ، ﴿ **وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغى لهم وما يستطيعون** ﴾ الشعراء : ٢١٠ ، ٢١١ . ﴿ **وَمَا هو بقول شاعر ..** ﴾ ﴿ **ولا بقول كاهن ..** ﴾ سورة الحاقة : ٤١ ، ٤٢ .

وقد جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ..

لذلك أخذ من العربية أجل وأسمى ما فى لسانها وأساليبها .

وتجرد عن كل مثالبها ونقائصها ، فى أدواتها ، وأغراضها على سواء .

ثم منحها من روح الله عطاء جديداً ، فوقف العربى يسمع لغته ، ومفرداته، لكن فى لفظ ونظم جديد، وسمو وروح جديد، فبهت وتحير، ثم تفكر ، فأسلم من أسلم مبهوراً ، أو أعجب — مع كفره — بحلاوته وطلاوته مقهوراً .

إذا تقرر هذا — ولا بد أن يتقرر فى قلب المفسر وعقله — ترتبت عليه أمور خطيرة وجليلة منها :

١ — براءة القرآن من كل مثالب اللغة فى ذاتها ، أو مثالب أهلها ، فلا نجد فيه— كما قلنا من قريب — حرفاً زائداً ، ولا تكراراً عقيماً ، ولا ضرورة ملجئة ، ولا معاظلة البادية ، أو خنوثة الحاضرة ، ولا فحش القول ، ولا إقذاع الهجاء ، ولا أكاذيب التصوير الفنى ، ولا قعقعة الألفاظ فى غير موضعها ، ولا جعجعة فارغة المعانى بلا طِحْن ، ولا بذاءة الغزل والتشبيب ،وغير ذلك مما حفلت به لغة العرب مع جمالها ، وفصاحة أهلها ، وبلوغهم ذروة البيان يومئذ ، بل لا تخلو لغة فى الأرض من مثل ما نقول وأكثر ، إلا أن يخرج الناس من طبائعهم وبشريتهم ، وهذا من المستحيلات .

لكن هذا المستحيل قد حدث فعلاً فى دنيا الناس على وجه غير مسبوق ولا معهود ، فظل الناس على طبائعهم ، وجاءهم كتاب الله تعالى بلغتهم وكلامهم ، ولكنه النموذج الأسمى ، والمثل الأعلى .

ومن هنا يبطل كل ما لهج به كثير من المؤلفين قديماً وحديثاً ، حين يتقولون فى القرآن بغير علم ولا حق ، بحجة أنه عربى جرى على سنن كلام العرب ومعهودهم ، ولولا ذلك لأنكرته العرب ثم يجيزون فيه الضرورة ، والزيادة ، ورعاية الفواصل لِأَوْهَى سبب ونحو ذلك .

وقد أحسن السيوطى رحمه الله حين يرد على مثل هذا :

« .. وقال ابن الخشاب : اختلف فى جواز إطلاق لفظ الزائد فى القرآن ، فالأكثرون على جوازه ، نظراً إلى أنه نزل بلسان القوم ومتعارفهم .... والتحقيق أنه إن أريد بالزيادة إثبات معنى لا حاجة إليه فباطل ، لأنه عبث ، فتعين أن إلينا به حاجة ، لكن الحاجة إلى الأشياء قد

تختلف بحسب المقاصد ، فليست الحاجة إلى اللفظ الذى عدّه هؤلاء زيادة ، كالحاجة إلى اللفظ المزيد عليه .

وأقول : بل الحاجة إليه كالحاجة إليه سواء . بالنظر إلى مقتضى الفصاحة والبلاغة ، وأنه لو ترك كان الكلام بدونه ... أبتر خالياً عن الرونق البلاغى ، ومثل هذا يشهد عليه البيانى الذى خالط كلام الفصحاء ... ، أما النحوى الجافى فعن ذلك بمنقطع الثرى »[1] .

٢ ــ الأصل فى القرآن الحمل على الحقيقة ، ولا يصار إلى المجاز إلا بدليل ، وتتعين الحقيقة فى العقائد ، والأحكام الشرعية جميعاً ، والأخبار ، وأسماء الرسل ، ومعجزاتهم ، ووقائع القصص جميعاً ، فهذا وأمثاله حقائق ، مقصودة بذاتها ، لا يصح تأويلها ، ولا صرفها عن ظاهرها ، ولا ادعاء معانى باطنة لها ، ولا زعم اقتضاء التصوير الفنى لأسلوبها ، وغير ذلك من الدعاوى .

وقد قال تعالى ﴿ إنّ الذين يُلْحِدُون فى آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَينا ... ﴾ فصلت : ٤٠ .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : « هو أن يوضع الكلام على غير موضعه » والحقائق فى صفات الله تعالى تحمل على ما يليق به جلّ شأنه ، من غير تكييف ولا تمثيل ، وإلا كانت وضْعاً للكلام فى غير موضعه .

٣ ــ ليس كل مجاز يصلح للقرآن .

فمجازات القرآن تأتى فى الأساليب غالباً ، وهى مجازات لها طرف من الحقيقة فى الواقع ، أو فى علم الله ، لذلك ليس كل مجاز فى اللغة يصلح القول به فى القرآن ، فقد يكون المشبه به مجهولاً لنا ، أو متخيلاً ، ولكنه فى علم الله حقيقة ثابتة .

فمثل قوله تعالى : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوس الشياطين ﴾ الصافات : ٦٥ حقيقة فى علم الله ،لأنه يعلم الطرفين جميعاً ، وإن كان المشبه به عندنا متخيلاً مجهولاً . فلا يصح أن نقول عن الآية إنها صورة متخيلة ، وإنما نقول إنها

---

(١) الإتقان جـ ١ ص ١٨٢ « النوع : ٤١ » مع بعض تصرف يسير .

حقيقة أطلعنا الله عليها ، وإن كنا نجهل حقيقة طرفيها جميعاً : « طلع شجرة الزقوم ، ورؤوس الشياطين » .

٤ ـــ عدم القول بالترادف فى القرآن :

فقد اختلف العلماء فى قضية الترادف اللغوى ، والصحيح أنه موجود فى لغة العرب على قلة ، وغالب الكلمات المتقاربة بينها فوارق دقيقة ، كالقعود والجلوس ، والخوف والخشية ونحوهما مما يظن فيه الترادف التام وليس كذلك .

لكن القرآن الكريم ليس فيه لفظان مترادفان تمام الترادف ، وإنما يقوم الأسلوب القرآنى على مراعاة أدق الفروق بين الألفاظ ، ويضع كل لفظ فى موضعه المناسب تماماً ، وهذا ما ينبغى أن يتنبه له المفسر الموضوعى .

فلفظ : « القصاص » فى قوله تعالى ﴿ **ولكم فى القِصَاص حَيَاةٌ** ﴾ البقرة : ١٧٩ . يخالف لفظ « القتل » فى مدلوله ، وسعته ، وإيحائه بسببه ، وإن كانا يشتركان فى بعض الأفراد ، ولذلك آثره القرآن بالذكر هنا .

ولفظ « الجهاد » يفترق عن : « القتال » ، وعن « الحرب » فى جوانب كثيرة ، ولذلك صار علماً فى القرآن والسنة على بذل الجهد فى سبيل الله باللسان ، والمال ، والنفس ...

وكذلك لفظى الكمال والتمام فى قوله تعالى :

﴿ **اليوم أكْمَلْتُ لكم دِينَكُمْ وأتْمَمْتُ عليكم نِعْمَتى..** ﴾ المائدة : ٣ . يرجع كل منهما إلى معنى : فالتمام يرجع إلى شمول العدد ، والكمال يرجع إلى جودة الصفات ، فيحصل الكم والكيف جميعاً فى دين الله تعالى ، ولذلك رضيه الله تعالى لنا ديناً ، فاللهم « اجعل الإسلام مُنْتَهى رِضَانا »[1] .

* * *

---

(١) هذا جزء من دعاء علمه النبى ﷺ لبعض أصحابه ، وقد رواه : الطبرانى من حديث عبد الله بن عمرو ، والحاكم فى المستدرك وأبو يعلى فى مسنده عن بريدة .

تتمات ورد شبهات

أولاً : حكم الجمع الموضوعي وتفسيره :

وفى ختام هذا المبحث نعود إلى قضية من بدهيات العلوم الإسلامية ، ونعنى بها : « حكم التفسير عامة ، والموضوعى منه خاصة » .

وإنما نذكرها هنا توطئة بين يدى رد الشبه التى ستأتى بعد قليل .

ومعلوم أن تفسير القرآن الكريم من أجل الأعمال ، لأنه اشتغال بفهم كلام الله تعالى ، وبيانه للناس ، وقد أمر الله تعالى بالأمرين جميعاً فى عديدمن الآيات الكريمة ، حتى أنها لتصلح أن تكون « موضوعاً » قرآنياً إذا جمعت الآيات المتعلقة به فى شتى السور .

ولذلك قال السيوطى رحمه الله :

« أجمع العلماء أن التفسير من فروض الكفايات ، وأجل العلوم الثلاثة الشرعية .

قال الأصبهانى : أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن ، بيان ذلك : أن شرف الصناعة إما بشرف موضوعها مثل الصياغة ... ، وإما بشرف غرضها مثل : صناعة الطب ... ، وإما لشدة الحاجة إليها كالفقه ، .. فصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجهات الثلاث :

لأن موضوع التفسير كلام الله تعالى ...

والغرض منه الاعتصام بالعروة الوثقى .

وأما شدة الحاجة إليه ، فلأن كل كمال دينى أو دنيوى مفتقر إلى العلوم الشرعية وهى متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى »[1] .

والتفسير الموضوعى هو نوع من أنواع التفسير ، بل هو أقربها إلى التفسير

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن جـ ٢ ص ١٧٥ ملخصاً « من النوع السابع والسبعين فى معرفة تفسيره » .

بالمأثور ، أو إلى تفسير القرآن بالقرآن على وجه الخصوص ، وهو ألصقها جميعاً بمعنى تدبر الآيات الكريمة فى قوله تعالى :

﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب** ﴾ « سورة ص : ٢٩ » .

ثانياً : وجوه الترتيب فى القرآن وموقع الجمع الموضوعى منها :

نزل القرآن الكريم منجماً على مدار ثلاثة وعشرين عاماً تقريباً ، وكان كلما نزل شيء منه أمر النبى ﷺ بوضعه فى مكان معين ، من سورة معينة ، وكانت هذه النجوم القرآنية تتضمن أغراضاً شتى توزعت فى سور القرآن الكريم ، ومن هنا كان للقرآن الكريم وجوه متعددة فى ترتيبه هى بإيجاز :

١ ــ **ترتيب النزول** : حيث كانت الآيات الكريمة تنزل على حسب الوقائع والأحوال ، أحياناً بعض آية ، أو آية ، أو عدة آيات ، أو سورة كاملة .

وقد بدأ هذا الترتيب بصدر سورة « العلق » : ﴿ **إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ...** ﴾ وانتهى بالآية الكريمة ٨١ من سورة البقرة ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمَاً تُرْجَعُونَ فيه إلى الله ...** ﴾ وهذا الترتيب هو أساس البحث والدراسة عند العلماء ، لأن عليه يترتب معرفة الناسخ والمنسوخ ، والمطلق والمقيد ، وتدرج التشريع ، وتاريخه ونحو ذلك ، ولا يوجد ضبط كامل لهذا الترتيب ، وإنما يوجد كما قلنا « فى المكى والمدنى » أشياء مقطوع بترتيبها نزولاً ، وأشياء راجحة ، وأشياء محتملة . وهذا قليل جداً فى الأحكام .

٢ ــ **ترتيب التلاوة** : وهو الموجود فى المصاحف الآن ، وقد رتب على هذا الوجه بأمر النبى ﷺ ، وفق ما علَّمه جبريل عليه السلام أخذاً من اللوح المحفوظ ، وهو الذى كان يقرأ به النبى ﷺ ، فى الصلاة والتلاوة ، ويحفّظه أصحابه ، ويدارسه به جبريل فى رمضان ، وهذا الترتيب هو المتواتر ، المتعبد بتلاوته ، والمتحدى به ، وقد رتب على هذا النمط لحكم وأسرار كثيرة ، سنتحدث عن بعضها بعد قليل إن شاء الله .

٣ ــ **ترتيب الموضوعات** : وهو الذى تجمع فيه الآيات المتعلقة بكل موضوع على حدة ، وفى مكان واحد ، للنظر فيها مجتمعة ، واستخراج عناصرها ، ومعرفة حقائقها عن طريق تفسيرها تفسيراً موضوعياً .

وهذا الوجه هو أساس البحث والدراسة عند العلماء من قديم مثل الوجه الأول ، وكان عمدتهم فى استخراج حقائق القرآن وأحكامه ، فى العقائد ، والفقه ، وغيرهما ، مثل آيات الخمر ، والربا ، وأقسام القرآن ونحو ذلك .

وكل ما جد عليه هو الاتجاه به نحو مزيد من التخصص ، وتحديد الموضوعات ودراستها دراسة تلائم حاجة الإنسان فى هذا الزمان ، وتبرز وجهاً من وجوه الإعجاز فى القرآن .

وأصل هذا النوع هو أمر يقينى موجود فى القرآن ، ويمكن النظر فيه واستخراجه بلا تكلف ولا تعسف ، أما طرائق الترتيب الفنى ، أو التصنيف العلمى ، فهى وجوه دراسية يمكن أن تتعدد ، فترتب الموضوعات على أساس حروف المعجم مثلاً ، أو على أساس أغراض المكى والمدنى ، أو على أساس شعب الدين الأربعة الجامعة « العقائد ، الأخلاق ، العبادات ، المعاملات » ونحو ذلك مما يتعلق بكيفيات الدراسة والبحث ، لا بأصل القضية ذاتها .

٤ ــ **ترتيب النظام القرآنى** : أو ما يسمى « بالوحدة الموضوعية » فى السورة الواحدة ، أو فى القرآن الكريم كله .

والمراد به أن القرآن كأنه كله كلام واحد ، والآيات والسور تتكامل لخدمة وبيان هذا الأمر الواحد كل فى موضعه .

وينطبق هذا أيضاً على السورة باعتبارها وحدة قرآنية متميزة :

يقول الدكتور دراز رحمه الله :

« ولقد وضح لنا ... أن هناك تخطيطاً حقيقياً واضحاً ومحدداً ، يتكون من ديباجة وموضوع ، وخاتمة « أى فى السورة الواحدة » .

فتوضح الآيات الافتتاحية الأولى من السورة الموضوع الذى ستعالجه فى خطوطها الرئيسية ، ثم يتبع ذلك التدرج فى عرض الموضوع ، بنظام

لا يتداخل فيه جزء مع جزء آخر ، وإنما يحتل كل جزء المكان المناسب له فى جملة السورة ، وأخيراً تأتى الخاتمة التى تقابل الديباجة »[1] .

وهذا الذى يقوله الشيخ رحمه الله أمر تقوم عليه الأدلة ، وتطمئن إليه النفس والعقل ، ولكن لا يزال البون بعيداً فى وضع هذا على قوالب علمية محددة ، تنتقل به من باب الالتماس والاجتهاد ، والظن وكثرة الاختلاف ، إلى باب الحقائق المحددة المعالم والأوصاف ، ويومئذ يبرز لون جديد آخر من وجوه الإعجاز القرآنى الفياض ، وإنه لآت بإذن الله .

ثالثاً : شبهات وردها :

ولقد وردت بعض الشبهات على مبدأ « الجمع الموضوعى » للقرآن الكريم ، وما يترتب عليه من « التفسير الموضوعى » ملخصها :

١ ــ أن الله تعالى قد ذم مثل هذا الاتجاه فى قوله تعالى :

﴿ كما أنْزَلنا على المُقْتَسِمِين * الذين جَعَلوا القرآن عِضِين * فوربّك لنسألنّهم أجمعين * عمّا كانوا يعملون ﴾ سورة الحجر ٩٠ ــ ٩٣ .

٢ ــ أن الجمع الموضوعى هو تقطيع « للوحدة القرآنية » التى سماها : « السورة » ، وإحلال لوحدة أخرى مكانها هى « وحدة الموضوع » .

٣ ــ الجمع الموضوعى إخلال بنظام ترتيب القرآن المعجز ، المتواتر ، المتعبد بتلاوته على هذا النمط الموجود فى المصحف فقط .

٤ ــ وفيه معنى الاستدراك على الله تعالى ، إذ لو شاء لجعل القرآن على الترتيب الموضوعى من أول الأمر .

والجواب عن هذا بإيجاز :

أولاً : معنى : « عِضِين » فى الآية الكريمة : فِرَقاً وأَقْسَاماً ، أى أن الكفار جعلوا **القرآن** هكذا ، بعضه **سحر** ، **وبعضه كهانة** ، وبعضه **شعر** ، وغير ذلك من أباطيلهم التى لا وجود لها فى القرآن الكريم . أما « الجمع

---

(١) مدخل إلى القرآن الكريم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١١٩ .

الموضوعى » فغير هذا جملة وتفصيلاً ، لأننا نجعل بعضه فى موضوع « **التوحيد** » ، **وبعضه فى** « **إثبات النبوة** » ، وبعضه فى « **القيامة** » ، وهكذا كل موضوع هو تقرير لحقائق القرآن ذاته . وقد روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

« هم أهل الكتاب جزؤوه أجزاء ، فآمنوا ببعضه ، وكفروا ببعضه »[1] « والجمع الموضوعى » وتفسيره هما إيمان بالكتاب كله ولله الحمد .

ثم هما « تجميع » لحقائق كل موضوع ، وليس فيهما تجزئة وتفرقة لمعانى القرآن ، فبطل الاستدلال بالآيات الكريمة على ذم الجمع الموضوعى .

ثانياً : القول بأنه تقطيع لأواصر الآيات ، ومخل بالنَظْمِ المعجز هو قول باطل مردود . لأننا لا نؤلف بهذا « الجمع الموضوعى » قرآناً يتلى ، أو يتعبد بتلاوته على هذا الوجه ، فإن هذا لا يشك مسلم فى جرمته ، أو كفر من يستحله ..

وإنما هذا « الجمع الموضوعى » مقصود به البحث والدراسة العلمية ، لاستخراج كنوز القرآن فى جوانب الحياة ، على نمط يلائم العصر ، ويؤكد الإعجاز القرآنى .

ومثله فى هذا كمثل « ترتيب النزول » فإن مقصده الدراسة ، واستخراج الأحكام الصحيحة ، وليس التلاوة .

ورحم الله علماءنا فقد ردّوا على مثل هذه الشبهة قديماً ، كما روى الإمام الزركشى رحمه الله :

« قال بعض مشائخنا المحققين :

قد وهم من قال : لا يطلب للآى الكريمة مناسبة ، لأنها على حسب الوقائع المتفرقة .

وفصل الخطاب : أنها على حسب الوقائع تنزيلاً ، وعلى حسب الحكمة ترتيباً ،فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما فى الكتاب المكنون ، مرتبة

---

(١) أنظر صحيح البخارى ، كتاب التفسير ، « تفسير سورة الحجر » ج ٥ ص ٢٢٢ .

سوره وآياته كلها بالتوقيف .

وحافظ القرآن لو استفتى فى أحكام متعددة ، أو ناظر فيها ، أو أملاها ، لذكر آية كل حكم على ما سئل ، وإذا رجع إلى التلاوة لم يتل كما أفتى ، ولا كما نزل مفرقاً ، بل كما أنزل جملة إلى بيت العزة ... »[1] .

ثالثاً : أما القول بأن الجمع الموضوعى استدراك على الله تعالى ، ولو شاء لجعله على النظام الموضوعى من أول الأمر .

فالجواب : أن الله تعالى جعل القرآن موضوعات محددة مرتبة من أول الأمر ، وهى فى القرآن على قسمين :

الأول : قسم محدد مستقل بسورة ، لا تتناول إلا موضوعاً واحداً كما فى سورة : « الفيل ــ قريش ــ المسد ــ الإخلاص ــ نوح ــ الجن ــ القدر ــ القارعة » .

الثانى : موضوع محدد قائم برأسه ، مبثوث فى سور مختلفة لحكم كثيرة ، فيجمع موضوعياً من سوره ، للدراسة ، لا للتلاوة .

لكن يبقى لدينا السؤال عن : حكمته بث الموضوع الواحد فى سور شتى ؟ وإيثار ترتيب السور على هذا النمط المتواتر فى المصحف دون ما عداه ؟ والحكمة فى ذلك ــ والله أعلم ــ واسعة متشعبة منها :

١ ــ تيسير حفظه وتلاوته :

لأن الله تعالى تعهد بحفظ القرآن إلى يوم الدين ، وجعل لذلك وسائل شتى منها تيسير حفظه فى الصدور ، والتشويق إلى تلاوته دائماً .

وترتيب القرآن على نمطه المتواتر للتلاوة هو أيسر ترتيب يحفظ ، وأشوق نص يتلى ويكرر ، لأن الأغراض وزعت على سوره ، ومزج بعضها فى بعض مزجاً عجيباً ، وفق خطة ونظام معجز ، فلا يزال القارىء ــ للحفظ أو التلاوة ــ ينتقل بين الآى والسور لا يمل ، ولا يزهد ، بل يزداد إقبالاً

---

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى جـ ١ ص ٣٧ ، وقائل هذا هو الشيخ : ولى الله الملوى المنفلوطى رحمه الله .

كلما فرغ من غرض ، ممتزج بقصة ، مشتملة هى على عبرة ، ومفضية إلى موعظة حسنة ... وهكذا .

ولعل هذا بعض أسرار قوله تعالى ﴿ **ولقد يَسَّرْنا القُرآن لِلذِّكْر فهلْ مِن مُدَّكِر** ﴾ سورة القمر : ١٧ .

٢ ــ التلطف فى عرض موضوعاته دائماً :

ذلك لأن هذا النمط من ترتيب التلاوة يستدرج القارىء بغاية اللطف ، إلى الإلمام بجميع أغراض القرآن ، كلما تلا شيئاً منه ، وإلى تذكيره بها دائماً فلا ينعزل عن بعضها أبداً ، وهذا ضرب من الإعجاز فى القرآن الكريم عجيب .

ذلك لأن الإنسان مفطور على حب « الانتقاء » ، فيختار ما تميل إليه نفسه ، ويعرض عما عداه ،إعراضاً دائماً ، أو موقوتاً حسب حاجته ، وهو فى ذلك كثير التقلب ، كما قيل بحق : « وللناس بعدد رؤوسهم آراء »، وسريع الملل ودائم التحول بين الأشياء والأضداد .

وبما أن اللهتعالى هو « الذى علم القرآن » و « خلق الإنسان » ، ويعلم أسرار فطرته ، لذلك جاء بالقرآن العظيم على هذا الضرب المعجز من معالجة الفطرة الإنسانية . وملاءمة أحوالها التى تنفعها . فلو جعل القرآن الكريم أبواباً موضوعية : باباً للصلاة ثم ينتهى الحديث فيه ، وآخر للزكاة ، وثالثاً للعقيدة على حدة .. إلخ .

لو جعل القرآن على هذا النمط لأقبل كل قارىء على ما تهواه نفسه من أبواب المصحف ، وأهمل ما عدا ذلك .

أما حين وزعت الموضوعات على نمط ترتيب التلاوة المعجز ، فإن القارىء ينتقل بينها فى يسر ، وبلا إحساس بالفواصل بين ما يرغب فيه وما يرغب عنه ، لأنهما مزجا مزجاً حكيماً ، فالنذارة مزجت بالبشارة ، وأحوال النار قرنت بأحوال الجنة ، والقصة اشتملت على العقيدة ، والأحكام الشرعية عرضت من خلال الأمثال والصور البلاغية ، وهكذا تتسرب

الموضوعات والأغراض جميعاً — فى لطف بالغ — إلى نفس القارىء ، وكأنهما عناصر شتى من الغذاء ، والدواء ، والفاكهة ، مزجت فى قوارير من فضة ، فطابت قلباً وقالباً ، وصار مزاجها محبوباً وغالباً ، يتلقاه الإنسان من كل أقطاره بالقبول والإقبال ، والشوق والإجلال .

فلما تم ذلك كله من خلال ترتيب التلاوة ، واستقر القرآن فى الأرض استقرار الأبد ، التفت العلماء إلى أغراض القرآن وموضوعاته يستخرجونها ، كل بما يلائم زمانه ، حتى جاء هذا العصر الذى يحتاج إلى « الجمع الموضوعى » بمعناه المحدد ، فوفق الله تعالى العلماء لاستخراج موضوعات القرآن متكاملة متجاورة ، ووضعها على مناهج « التفسير الموضوعى » لاستخراج عناصرها ، وبيان ما بينها من قرابة ماسة ، ومناسبة خاصة ، رغم تباعد الزمان ، وتعدد الوقائع التى نزلت عليها نجوم القرآن .

ولعل أصدق تصوير لهذه المعانى كلها هو قول النبى ﷺ فى وصف القرآن : « ... هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يَخْلُق عن كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ...[1] » .

* * *

(١) رواه الترمذى .

الباب الثانى

نماذج من التفسير الموضوعى

- الموضوع الأول : الوحدانيــة والتوحيـد
- الموضوع الثانى : المعية فى القرآن الكريم
- الموضوع الثالث : التبعية فى القرآن الكريم
- الموضوع الرابع : العلم والعلماء فى القرآن
- الموضوع الخامس : الآخرة ومشاهدها فى القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الموضوع الأول

الوحدانية والتوحيد فى القرآن الكريم

تمهيد وتعريف ـ الوحدانية والتوحيد .
ضلال البشر فى عقيدة التوحيد .
موقف القرآن الكريم الشامل :

- سر الاهتمام ـ جوامع الألفاظ ـ أصل الأصول .
- أساس دعوة الرسل جميعا : (إجمالا وتفصيلا) .
- الربوبية والألوهية وصفان لايفترقان .
- التوحيد مجموع الوصفين معا .
- التوحيد عقيدة شاملة .
- الأساليب والاستدلال .
- الشرك ظنون وأوهام .

تمهيـــد وتعريف :

يقال فى اللغة (وَحِـُدَ) بكسر الحاء وضمها أى صار منفردا ، إذ أصل (الوحدة) الانفراد ، أو كما يقول الراغب رحمه الله ، « هى الشيء الذى لاجزء له ألبتة »(١) .

ويقال : وحَّدَه توحيدا أى جعله واحدا ، أوعدّه واحدا . و « الواحد » مشترك لفظى يطلق على الله تعالى وعلى غيره مع ملاحظة الفرق بين الوحدة فى الحالين .

فالوحدة فى جانب الخلق جميعا عارضة تقبل التحول ، بل قد تكون ادعائية .

كقولهم : فلان « واحد دهره » ، أو « نسيج وحده » .

أما الوحدة فى جانب الخالق جلّ شأنه فهى أصلية غير عارضة ، ولا مدّعاة ، وهى حقيقة يقينية لاتقبل التحول والانتقال ، وقد أحسن الراغب رحمه الله حين قال بعد أن بين استعمالات لفظ (الواحد) :

« والوحدة فى كلها عارضة ، وإذا وصف الله تعالى بالواحد فمعناه هو الذى لايصح عليه التجزى ولا التكثر »(٢) .

ولفظ « أحد » مشترك لفظى كذلك لكنه إذا وقع وصفا فلا يكون إلا لله تعالى لأنه « أكمل من الواحد » كما قال أبو حاتم(٣) ، وأوفى دلالة على معنى الوحدة .

---

(١) المفردات للراغب الأصفهانى مادة (وحد) ص ٥١٤ .

(٢) السابق ص ٥١٥ .

(٣) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (النوع الأربعون فى معرفة الأدوات التى يحتاج إليها المفسر) جـ ١ ص ١٤٦ .

الوحدانية والتوحيد :

(فالوحدانية) صفة ذاتية لله تعالى ، (والتوحيد) إيمان المكلف واعتقاده أن الله تعالى متصف بذلك .

ولذلك يقول صاحب القاموس المحيط :

« التوحيد الإيمان بالله وحده ، والله الأوحد والمتوحد ذو الوحدانية »[1] .

« والوحدانية » مصدر بمعنى « الوحدة » زيدت عليه ألف ونون للمبالغة فى أصل المعنى ونظيره لفظ : ربانية ، وروحانية ، وجسمانية فى النسبة إلَى الرب ، والروح والجسم على وجه المبالغة .

وجاء لفظ « الوحدانية » على هذا البناء للدلالة على اتصافه تعالى بالوحدة المطلقة البالغة غاية الكمال ، والثابتة له سبحانه قبل أن يكون الخلق جميعا كما قال تعالى : ﴿ **هو الأول والآخر** ﴾ سورة الحديد : (٣)

وكما قال ﷺ : « **كان الله ولم يكن شىء غيره** »[2] .

أما (التوحيد) شرعا فهو :

الإيمان الجازم بتفرد الله تعالى فى ذاته وصفاته وأفعاله ، ونفى الشركاء عنه سبحانه اعتقادا وعملا على الوجه الذى جاء به الوحى الإلهى على ألسنة الرسل عليهم السلام .

ويتلخص من هذا :

أن (الوحدانية) هى صفة لله تعالى ، وهى حقيقة قائمة بذاته جل شأنه سواء اعترف الناس بذلك أم لم يعترفوا .

(والتوحيد) هو اعتقاد المكلفين بهذه الصفة على وجهها الشرعى ، فهو

---

(١) القاموس المحيط جـ ١ (باب الدال) (فصل الواو) .

(٢) رواه البخارى عن عمران بن حصين فى كتاب (بدء الخلق) من كتابه الجامع الصحيح ؛ (جـ ٤ ص ٧٣) .

تكليف من الله لعباده ابتداء .

وهو امتثال من العباد لهذا التكليف انتهاء .

ولا يتحقق « التوحيد » إلا إذا امتثل العباد لما كلفهم به ربهم على الوجه المشروع .

صفات الله تعالى وأسماؤه :

وقد علمنا الوحى الإلهى أن لله تعالى صفات كثيرة : كالعلم ، والقدرة ، والإرادة،والوحدانية من هذه الصفات الجليلة .

وعلمنا أن لله الأسماء الحسنى مثل : الخالق ، الرازق ، المصور .

(والواحد) من هذه الأسماء الحسنى(١) .

وقد عنى الوحى الإلهى أبلغ العناية ببيان وتقرير كل مايتعلق بأسماء الله الحسنى ، وصفاته العليا ، وجعل ذلك رأس الإيمان ، ولب الاعتقاد ، خاصة صفة (الوحدانية) باعتبارها الصفة الجامعة لكل كمال يليق بالله تعالى .

الوجود الإلهى حقيقة مسلّمة :

فالله تعالى متصف بصفة « أوّلية الوجود » ، وهو متفرد بوجوب هذا الوجود ، ومن المقرر الثابت أن عامة الأمم كانت تسلم بهذا لله سبحانه وتعالى ، ولا تمارى فى ذلك لما يأتى :

أولاً : لأن الله تعالى علم أباهم آدم الأسماء كلها ، ثم علمهم أبوهم آدم أول حقائق العلم وهو وجود الله تعالى .

ثانياً : لأن الله تعالى أخذ على بنى آدم العهد والميثاق أنه ربهم ، قال تعالى :

﴿ وإذْ أخَذَ ربُّكَ مِنْ بنى آدم مِنْ ظُهورهمْ ذرّيَتَهم وأشْهَدَهم عَلَى أنفسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكم قالوا بَلَى شَهِدْنا .. ﴾ .

سورة الأعراف : (١٧٢)

ثالثاً : لأن الرسل جميعاً ترادفوا بين الأمم على كلمة واحدة فى الدعوة إلى

(١) جاء فى ذلك فى حديث أبى هريرة الذى رواه الترمذى ، وابن حبان ، والحاكم ، والبيهقى .

الإيمان بالله تعالى .

رابعاً : لأن الله تعالى فطر الناس على أن لهم ربا وخالقا ، وكل مولود يولد على هذه الفطرة كما قال تعالى : **﴿ فأَقِمْ وجْهَك للدِّين حَنِيفاً فِطْرة الله التى فَطَر الناس عليها لاتبْديلَ لِخَلْق الله ذلك الدِّين القَيِّم .. ﴾** .

سورة الروم : (٣٠)

ومن هنا اجتمعت دلائل الخلق ، والعهد ، والعلم ، والعقل ، والوحى على التسليم بوجوده سبحانه وتعالى تسليما مطلقا ، وشاع ذلك بين الناس منذ درجوا على الأرض .

وقد استفاض القرآن الكريم فى تقرير هذه الحقيقة التاريخية ، وبيان شيوعها وذيوعها بين الأمم من أقدم عصور التاريخ .

قال تعالى على لسان قوم نوح : **﴿ ولوْ شاء الله لَأنْزَلَ ملائكة ﴾** .

سورة المؤمنين : (٢٤)

وقال تعالى على لسان عاد وثمود :

﴿ فإنْ أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثْل صاعقة عاد وثمود * إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألّا تعبدوا إلا الله قالوا لوشاء ربنا لأنزل ملائكة ﴾ .

سورة فصلت : (١٣ ، ١٤)

ولم ينكر وجود الله تعالى فى الأمم السابقة إلاّ صنفان :

الأول : « الدهريون » وهم قلة قليلة فى كل أمة ، كانوا ينسبون الأفعال إلى الدهر وطبائع الأشياء ، وقد قص القرآن مقالتهم ، وجهّلهم ، قال تعالى : **﴿ وقالوا ماهى إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحْيا وما يُهْلِكُنا إلاّ الدَّهرُ ومالهم بذلك مِنْ عِلْم إنْ هم إلاّ يظنون ﴾** .

سورة الجاثية : (٢٤)

الثانى : المكابرون أصحاب اللجاج المحض ، والحجاج الباطل الذى لايخرج

عن نطاق الهذيان والهزل ، وغالبا مايكون ذلك فى مواقف الخصومة والجدال مع الرسل عليهم السلام ، ومثال ذلك محاورة ابراهيم عليه السلام للنمرود .

قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الذى حَاجَّ إبراهيمَ فى ربِّه أَنْ آتاه اللهُ المُلْكَ إِذْ قال إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الذى يُحْيِي ويُمِيت قال أنا أُحْيِي وأُمِيتُ قال ابراهيم فإِنَّ الله يأْتِي بالشمس مِنَ المشرق فَأْتِ بها مِنَ المغرب فَبُهِتَ الذى كَفَر ...** ﴾ .

سورة البقرة : ٢٥٨

وفى هذا الموقف أيضا قال فرعون لموسى عليه السلام : ﴿ .. **وما رب العالمين** ﴾ ؟ .

سورة الشعراء : (٢٣)

فلم يكن النمرود ولا فرعون يجهلان وجود الله تعالى ، وإنّما جادلا بالباطل حفاظا على الملك والسلطان واستتباع الناس لهما ، لذلك سرعان مابهت النمرود وانقطع ، أما فرعون فقد لجّ فى عناده حتى أخذه الله نكال الآخرة والأولى ، وأعلن إيمانه وإسلامه بعد فوات الأوان(١) .

ولهذا لم يتوسع القرآن كثيرا فى هذه القضية لكونها حقيقة مسلّمة عند عامة الأمم ، وإنما عرض لها فى ايجاز ردًّا على الملحدين والمكابرين ، كما قال تعالى : ﴿ **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غير شىء أَمْ هم الخالقون * أَمْ خَلَقُوا السموات والأرضَ بل لايوقنون** ﴾ .

سورة الطور : (٣٥ ، ٣٦)

ضلال البشر فى عقيدة التوحيد :

ومع اعتراف الأمم بالوجود الأعلى انحرفوا فى أمر التوحيد ، وضلوا فيه ضلالا مبينا ؛ فأشركوا مع الله تعالى غيره ، وجعلوا معه آلهة أخرى ، واتخذوا من دونه أندادا يحبونهم كحب الله . وقد لقن الشيطان أتباعه فرية خبيثة إذ زعموا أن الله تعالى قد أعطى لبعض « القوى » فى الكون تفويضا وسلطانا ؛

---

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿ ... حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلاّ الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ الآيات سورة يونس : ٩٠ — ٩٢

وجعل لهم نفوذا وتأثيرا ، لذلك يتقرب إليهم الناس ليكونوا واسطة بينهم وبين الله تعالى فى الشفاعة لهم ، أو دفع الضر عنهم ، أوجلب النفع لهم ، وتدرجوا حتى عبدوا من دون الله كل ماسولته لهم أوهامهم وشياطينهم، ابتداء من الملائكة وبعض الرسل ؛ وانتهاء بالجن والكواكب والملوك والكهان ، بل لم يزل الشيطان يستخف من اتبعه من الغاوين ، حتى هوى بهم إلى أسفل سافلين فعبدوا الشجر والحجر ، والحشرات والبقر ، والشمس والقمر ، وغير ذلك من المخلوقات التى لاتملك لنفسها ضرا ولا نفعا ، ولا تملك موتا وحياة ولا نشورا .

موقف القرآن من الوحدانية والتوحيد :

وقد وقف القرآن موقفا شاملا فى هذا الباب ، وعنى بأمر الوحدانية والتوحيد غاية العناية ، وأبرزهما فى الآيات المكية والمدنية جميعا ، وموقف القرآن فى هذا الجانب واسع مستفيض ، يحتاج إلى مجلدات تفرد له ، ولكننا فى الجانب الوسيط من (**التفسير الموضوعى**) نأخذ جوامع الآيات الكريمة التى تجلى لنا هذا الموقف الشامل ، والذى نلخصه فى الفقرات التالية :

أولاً : سر الاهتمام البالغ :

لأن « **الوحدانية** » صفة جامعة من صفات الله تعالى كما قلنا« **والتوحيد** » عقيدة ملزمة لايقبل عمل العبد إلا إذا قام بها على وجهها الشرعى ، ولأن (**التوحيد**) هو العقيدة التى كثر فيها انحراف البشر عن حقائق الفطرة التى خلقوا عليها ، وعن حقائق الوحى الإلهى الذى جاء على ألسنة الرسل جميعا عليهم السلام ، كما سنبين بعد قليل إن شاء الله .

ثانياً : جوامع الألفاظ :

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه القضية الكبرى (الوحدانية والتوحيد) بألفاظ شتى تدور حول تقريرها وتأكيدها بطريق الإثبات ؛ أو النفى لأضدادها مثل لفظ : الواحد ، والأحد ، والرب ، والإله ، ومثل الشرك والشركاء ، والشفعاء والأولياء ، والدعاء والعبادة وغير ذلك كثير ، وعلى سبيل المثال :

فقد ورد لفظ (**واحد**) وما تفرع منه فى القرآن الكريم فى **ثمانية وستين** موضعا[1] منها **ثمان وعشرون مرة** وصفا لله تعالى ، وتقريرا لوحدانيته مثل :

﴿ وإلهكم إِلٰهٌ وَاحِدٌ لا إله إلاَّ هو الرحمن الرحيم ﴾ .

سورة البقرة : (١٦٣)

ومثل قوله تعالى : **﴿ وإذا ذُكِر اللهُ وَحْدَه اشْمَأَزّت قلوبُ الذين لايؤمنون بالآخرة ﴾** .

سورة الزمُر : (٤٥)

وقد ورد لفظ (**أَحَد**) فى القرآن الكريم **خمسا وثمانين مرة**[2] .

ومن العجيب أنه جاء منها (مرة واحدة) وصفا لله تعالى وهو قوله تعالى فى سورة الإخلاص : **﴿ قل هو الله أحد ﴾** وكأن هذا نوع من التأكيد لأحديَّة الله تعالى من حيث اللفظ والمعنى والعدد جميعا .

وقد ورد لفظ (أحد) بصيغ أخرى ــ **غير الوصف** ــ تتعلق بالله تعالى بوجه مّا ، مثل ردّ الأحدية إليه عن طريق الاستثناء قال تعالى : **﴿ .. ولا يَخْشَوْن أحداً إلاّ الله ﴾** . سورة الأحزاب : ٣٩ .

ومثل نفى الشركاء مطلقا قال تعالى : **﴿ عَالِمُ الغَيْبِ فلا يُظْهِر على غَيْبِهِ أحدا ﴾** .   سورة الجنّ : (٢٦)

﴿ ولا يُشْرِك فى حُكْمه أحدا ﴾ .   سورة الكهف : (٢٦)

﴿ إنّ الله يُمْسِكُ السمواتِ والأرضَ أنْ تزولا ولئن زالتا إنْ أمسكهما مِنْ أحَدٍ مِنْ بَعْدِه ﴾ .   سورة فاطر : (٤١)

ثالثا : أصل الأصول جميعا :

فالقرآن العظيم يتحدث عن (**الوحدانية**) باعتبارها الصفة الإلهية الجامعة لكل صفات الكمال . فهو سبحانه واحد فى ذاته ..

وهو سبحانه واحد فى صفاته فلا يشاركه أحد فى علمه ولا فى قدرته ،

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة (وحد) ص ٧٤٥

(٢) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة (أحد) ص ١٥

أو إرادته ، أو حكمته ، أو أى صفة من صفاته جل شأنه .

وهو واحد فى أفعاله سبحانه فلا يشاركه أحد فى خلقه ، ولا رزقه كما قال تعالى فى كلمة جامعة ﴿ **ليس كمثله شىء وهو السميع البصير** ﴾ .
سورة الشورى : (١١)

والمعنى : أن الله تعالى متفرد (بالوحدانية) المطلقة ، وكل شىء فى الكون كله ـــ سواه ـــ مبثوث على نمط الزوجية المكرورة ؛ ذات الأشباه والنظائر .

والقرآن الكريم يتحدث عن (**التوحيد**) باعتباره رأس الإيمان ، والأصل الذى ينبغى أن يتقرر فى النفس والقلب قبل كل شىء ، ثم فى العمل والسلوك ، لأنه مقياس كل شىء بعده ، فلا يقبل عمل بدونه ، ولا تقبل شفاعة ، ولا تعطى مغفرة لمن أخل به قال تعالى :

﴿ **إنّ الله لايغفِر أنْ يُشْرَكَ به ويغفر مادون ذلك لِمَن يشاء** ﴾ .
سورة النساء : (٤٨ ، ١١٦)

رابعاً : أساس دعوة جميع الرسل عليهم السلام :

فقد قرر القرآن الكريم أن الأساس الذى قامت عليه دعوة الرسل هو تقرير وحدانية الله تعالى ، وتنزيهه عن الشركاء والأنداد ، والأبناء والآباء ، وصرف وجوه العباد له وحده فى العبادة والطاعة ، والذكر والدعاء ، والاستعانة والاستغاثة ، والتوكل ونحو ذلك من كل مالا يليق إلا به سبحانه وتعالى .

وقد قرر القرآن الكريم هذا المعنى وأكده بطريقين :

الأول : الطريق الاجمالى :

قال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا مِنْ قَبْلِك مِنْ رسولٍ إلاّ نُوحى إليه أنّه لا إلٰه إلا أنا فَاعْبُدُون** ﴾ .

سورة الانبياء : (٢٥)

فهذا تعميم على سبيل الحصر بأن كل رسول قد أوحى إليه أن الله تعالى

متصف **بالوحدانية** : (لا إله إلا أنا) ومستحق **للتوحيد** من العبيد : (فاعبدون) . وقال تعالى فى هذا المعنى أيضا : ﴿ **ولقد بعثنا فى كلِّ أمّةٍ رسولا أنِ اعْبدوا الله واجْتَنِبُوا الطَّاغُوت** ﴾ .

سورة النحل : (٣٦)

والآية الكريمة تقرر أن الأمم جميعا بعث فى كل منها رسول ، وكان أول دعوة كل رسول فى كل أمة : أن اعبدوا الله ولا تشركوا به الطواغيت .

والطواغيت كل ماعبد من دون الله تعالى ، وهو مشتق من الطغيان .

الثانى : الطريق التفصيلى :

وهو الذى يذكر فيه القرآن الرسل بأسمائهم ، وكيف كان التوحيد هو رأس دعوتهم جميعا ومن ذلك :

١ ــ ما جاء فى قصة (**نوح**) عليه السلام ، وهو أول رسول إلى أهل الأرض قال تعالى : ﴿ **لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم مِنْ إلٰهٍ غَيْرُه** ﴾ .

سورة الأعراف : (٥٩)

٢ ــ وقال تعالى عن (**هود**) عليه السلام :

﴿ **وإلى عَادٍ أخاهم هُوداً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم مِنْ إلٰهٍ غيرُه** ﴾ .

سورة الأعراف : (٦٥) وسورة هود : (٥٠)

٣ ــ وبنفس الألفاظ قال تعالى عن (**صالح**) عليه السلام :

﴿ **وإلى ثمودَ أخاهم صالِحاً قال ياقومِ اعبُدُوا اللهَ مالكم مِنْ إلٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾ .

سورة الأعراف : (٧٣) هود : (٦١)

٤ ــ وهى هى التى جاءت على لسان (**شعيب**) عليه السلام قال تعالى :

﴿ **وإلى مَدْيَن أخاهم شُعَيْباً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم مِنْ إلٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾ .

سورة الأعراف : (٨٥) ، هود : (٨٤)

٥ ــ أما (**إبراهيم**) عليه السلام فقد تحدث القرآن بتفصيل وافر عن دعوته إلى التوحيد ، وبشتى الصيغ والأساليب ، فى المواقف المتعددة ، وفى **الأحوال** المختلفة .

ولعل السر فى توسع حديث القرآن عن إبراهيم عليه السلام أنه أبو الأنبياء الذين جاءوا بعده ﷺ أجمعين ، وكان **اليهود** ، **والنصارى** ، **والعرب** يعترفون بنبوته وأبوته لهم ، بل ويعتزون بالانتساب إليه عليه السلام،ومن هنا توسع القرآن فى الحديث عن إسلامه ، ودعوته البليغة إلى التوحيد ، ونبذ الشرك، وعن **محاوراته** المفحمة للمشركين ، وموقفه العملى الصارم من الأصنام : سخريةً منها ، وتحطيماً لها ، وتبكيتا لعبّادها ؛ وبذلك تقوم الحجة على المنتسبين إليه من اليهود ، والنصارى ، ومشركى العرب الذين حرّفوا جميعا دين الحق ، ووقعوا فى ضروب من الوثنية الطامسة الدامسة ، وبذلك تسقط دعواهم أنهم على دين ابراهيم كما قال تعالى ردا عليهم مجتمعين : ﴿ **ماكان إبراهيمُ يَهوديّا ولا نَصْرانيا ولكنْ كان حَنِيفاً مُسْلما وما كان مِنَ المشركين** ﴾ .

سورة آل عمران : (٦٧)

ويقول تعالى عنه وعن المؤمنين معه :

﴿ **قد كانت لكم أُسْوَةٌ حَسنة فى إبراهيمَ والذين معه إذْ قالوا لقومهم إنَّا بُرَءَاءُ مِنكم وممّا تعبدون مِنْ دونِ الله كَفَرْنَا بِكم وبَدَا بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاءُ أبدا حتّى تُؤمنوا بِالله وحْدَه ..** ﴾ .

سورة الممتحنة : (٤)

وسيأتى الكثير من ــ حديث القرآن عن دعوة ابراهيم عليه السلام إلى التوحيد الخالص .

٦ ــ وعن (**موسى**) عليه السلام يقول تعالى له :

﴿ **وأنا اخترتك فاستمع لِمَا يُوحى * إننى أنا الله لا إله إلاّ أنا فاعبدنى** ﴾ .

سورة طه : (١٣ ، ١٤)

٧ ـــ وعن (**عيسى**) عليه السلام يقول تعالى :

﴿ .. وقال المسيح يابني إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ .

سورة المائدة : (٧٢)

٨ ـــ أما (**محمد**) ﷺ فقد بعث بالدعوة العالمية الشاملة ، وبالتقرير الأوفى ، وبالبيان الأعلى فى شأن الدين كله عامة ، والتوحيد منه خاصة ، وقد أمده القرآن العظيم بأتم الحجج والبراهين ، وسجل أقاويل الكفار ، وردود الوحى عليها ، حتى تكون حجة الله بالغة باهرة إلى يوم الدين ، وحتى لاتكون للناس على الله حجة بعد ختم النبوة لأن القرآن هو صوتها الممدود ، ودعاؤها الموصول ، وفيه أكمل حديث عن التوحيد تقريرا وإثباتا ، وردا على المشركين والملحدين ، وإبطالا للشرك وكل ضروب الوثنية والانحراف عن التوحيد .

ويكفى مثالا لهذا ماأمره الله تعالى أن يقوله للناس فى كلمات جامعة : **﴿ قل هو الله أحد ۞ الله الصَّمَد ۞ لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ۞ ولم يكن له كُفُواً أحَد ﴾** .

فهذه السورة الكريمة على وجازتها جامعة لكل مايليق بالله تعالى وحده من صفات الكمال : توحيدا ، وتنزيها له عن الشركاء ، والأشباه ، ثم هى مصححة لضلالات المشركين وأهل الكتاب فى باب الاعتقاد .

إن الآية الأولى تثبت (الوحدانية) لله تعالى على أبلغ الوجوه ، لأن لفظ (أحد) أكمل من الواحد كما قلنا ، ولذلك لايوصف به إلا الله تعالى : والآية الثانية : بيان لأسباب أحديته إذ أنه هو وحده السيد الكامل فى جميع صفاته وأفعاله ، وهو المقصود فى جميع الحوائج وهو الغنى عن كل شىء ؛ بل كل شىء محتاج إليه .

والآيتان الثالثة والرابعة تقرير لهذه الأسباب أيضا ، لأنه سبحانه متفرد عن الأصول والفروع ، وما يلزمهما من الصاحبة أمّا أو زوجا ، ومتفرد عن

الشبيه والمماثل وإن لم يكن أصلا أو فرعا[1] .

خامسا : الربوبية والألوهية وصلتهما بالتوحيد :

وقد تحدث القرآن الكريم طويلا عن الربوبية والألوهية ، وأبطل كل ادعاء لأحدهما من دون الله تعالى : وأثبت أنه **لا ربّ** ولا إله بحق إلا الله تعالى ، وأوجب سبحانه وتعالى على عباده أن يفردوه بهما معا فى التوحيد .

والرب شرعا يطلق على معان أجمعها :

(أ) المربِّى الذى تعهد خلقه بالتنشئة والتربية ، وقضاء الحاجات ، على معنى أنه هو المتصف بكل صفات التأثير من : خلق ، ورزق ، وملك ، وإحياء وإماته ، وتدبير ، وهداية ... إلخ .

(ب) السيد المطاع النافذ الحكم :

والإله يطلق على معان أجمعها :

(أ) المعبود الذى يستحق وحده أقصى غايات التذلل والخضوع من صلاة ، وذكر ، وحبّ ، وخوف وتوكل ، ودعاء ، ونذر ، وقسم به سبحانه وتعالى .. إلخ .

(ب) المستعلى على عباده الخليق بالطاعة فيما أمر ونهى .

وصفان لا يفترقان :

ومن هنا يتضح التلازم التام بين الربوبية والألوهية ، وأنهما لاينفصلان من حيث الحقيقة الشرعية ، ومن حيث الوجود الواقعى لما يأتى :

أولاً : لأنهما وصفان لذات واحدة ، لايوجدان فى غيرها ؛ ولا يجتمعان فى سواها ، ولا يتحققان بمعناهما الصحيح إلا (لله) الواحد الأحد .

ثانياً: لأنهما يجتمعان فى معنى مشترك بينهما وهو المعنى: (ب) من كل منهما ، وإن اختص كل منهما بمعنى خاص به كما رأينا فى المعنى: (أ) .

---

(١) انظر تفسير الآية الكريمة فى تفسير البيضاوى ، والخازن ، وأبى السعود .

الوحدانية والتوحيد مجموع الأمرين :

ومن هنا يتضح أيضا أن :

(الوحدانية) تعنى اتصاف الله تعالى وحده (بالربوبية والألوهية) جميعا . (والتوحيد) يعنى وجوب افراده سبحانه وتعالى بالأمرين جميعا فلا يقال : (توحيد الربوبية) هوكذا .. ، ولا يقال (توحيد الألوهية) هو كذا ، لأن التوحيد لايقبل التجزئة أصلا حتى يقوم أحد الوصفين مقام الآخر فى الإطلاق ، ولأن المجاز لايصار إليه فى حقائق الاعتقاد .

أما من حيث الحقيقة الشرعية : (**فالتوحيد**) هو أن يؤمن العبد بأن الله تعالى هو وحده صاحب كل صفات التأثير والكمال ، وأنه لذلك مستحق للعبادة والطاعة .

فإذا أقرّ العبد بأحدهما فقط لم يكن موحدا ، وإنما يقال هو مقرّ أو معترف بأحدهما ، ولكن لايصح أن يسمى (موحّدا) لأن التوحيد هو مجموع الأمرين جميعا .

ولهذا لم يطلق القرآن على الكفار أنهم (موحدون) توحيد الربوبية حين أقروا أن الله تعالى هو الخالق ، المالك : الرازق[1] ، وإنما سماهم كفارا ، ومشركين .[2] ؛ لأنهم لم يأتوا بحقيقة التوحيد الجامعة ، وإنما أقروا بوصف منها ، والتوحيد لايقبل التجزئة أصلا ، فمن أشرك فى وصف فقد أشرك فى الكل ، لأنه لم يأت بحقيقة مسمى : (التوحيد) الشرعى الجامعة .

ولذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **إن الله لايغفر أنْ يُشْرك به ويغفر مادون ذلك لِمَن يشاء** ﴾ .

سورة النساء : (٤٨ ، ١١٦) .

---

(١) كما قال تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله ﴾ سورة يونس : ٣١

(٢) يقول تعالى بعد الآية السابقة ﴿ كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لايؤمنون • قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده .. ؟ ﴾ سورة يونس : ٣٣ ، ٣٤

استعمالات الوصفين :

والقرآن الكريم يورد هذين الوصفين على أربعة وجوه :

الوجه الأول : استعمال اللفظ فى معناه الخاص به فقط .

مثال الربوبية : ﴿ **اقرأ بِاسْم رَّبك الذى خَلَق** ﴾ فالخلق من أخص معانى الربوبية لذلك وقع صلة للموصول الذى وصف به (الرب) ، تحديدا للمعنى المراد بالرب هنا .

مثال الألوهية : ﴿ **لا إله إلاّ أنا فاعْبدنى** ﴾ فالإله هنا بمعنى المعبود .

الوجه الثانى : استعمال كل لفظ منهما فى معناه الخاص به مع جمعهما فى مكان واحد .

قال تعالى : ﴿ **قل هو ربِّى لا إله إلاّ هو عليه توكّلْتُ وإِليه مَتاب** ﴾ .
سورة الرعد : (٣٠)

أى هو (ربى) خالقى ومالكى ورازقى ... ألخ .

﴿ **لا إله إلاّ هو** ﴾ أى المعبود الذى لامعبود سواه .

فكل لفظ أفاد معناه الخاص به ، وجمع بينهما لبيان حقيقة التوحيد الجامعة للمعنيين جميعا ، لذلك جاءت آيات أخرى تبين المعنى المقصود عقب كل لفظ منهما مثل قوله تعالى : ﴿ **ذلكم الله ربكم خالق كلِّ شىء لا إِله إلاّ هو فأنىّ تؤفكون** ﴾ .

سورة غافر : (٦٢)

فالخلق متصل بمعنى (**الرب**) ؛ واستنكار الانصراف عن عبادته متصل بمعنى (**الإله**) الحق ، وقد جاء المعنيان صراحة فى قوله تعالى :

﴿ **ذلكم الله ربكم لا إله إلاّ هو خالق كل شىءٍ فاعبدوه** ﴾ .
سورة الأنعام : (١٠٢)

وهو من النوع المعروف فى البديع باللف والنشر المرتب ، إذ الخلق عائد إلى معنى (الرب) ، والأمر بالعبادة عائد إلى معنى (الإله) على الترتيب

الواقع فى صدر الآية الكريمة .

الوجه الثالث : استعمال اللفظين فى المعنى المشترك بينهما وهو (السيد المطاع) ؛ ومثال ذلك :

(أ) قال تعالى ﴿ **قل أغيرَ الله أبغِى رباً وهو ربّ كلّ شىء** ﴾ .
سورة الأنعام : (١٦٤)

فسياق الآيات يدل على أن المراد (بالرب) هنا السيد المطاع فى أمره ونهيه المفهوم من قوله تعالى قبلها ﴿ **قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دِيناً قِيماً ملّة إبراهيم حنيفا ...** ﴾ .

(ب) وقال تعالى : ﴿ **اتَّخذُوا أحْبارَهُم ورُهبَانَهم أرْبابا مِنْ دون الله والمسيحَ بنَ مريم وما أُمِرُوا إلاّ ليعبُدُوا إلٰهاً واحَداً لا إِلٰه إلاّ هُو** ﴾ .
سورة التوبة : (٣١)

وربوبية الأحبار والرهبان هنا بمعنى طاعتهم طاعة مقدسة فى أمور الحلال والحرام ، ومعنى عبادة الإله الواحد فى قوله : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا** ﴾ أى ليطيعوا سيدا واحدا لهم ، لأن المقام عن (الطاعة فى التشريع) كما جاء فى حديث عدىّ بن حاتم أنه دخل على النبى ﷺ وهو يقرأ هذه الآية ، وكان عدىّ قد تنصر فى الجاهلية فقال : إنهم لم يعبدوهم[1] ، فقال له النبى ﷺ : « بل إنهم حرّموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » .. رواه الترمذى والطبرى وغيرهما ..

الوجه الرابع : استعمال كل لفظ مكان الآخر ..

وذلك لما قلنا من التلازم التام بينهما ، فإذا ذُكر أحدهما دل على الآخر باعتبارهما وصفين منفردين لذات واحدة، ولا يليق أحدهما إلا بالله تعالى ، فإذا ذُكر (الرب) فُهم منه أنه المستحق للعبادة والطاعة وحده ، وإذا ذكر (الإله) فهم منه أنه الخالق الرازق المالك لأنه لايكون (إلها) حقا إلاّ بهذه الصفات .

---

(١) ظن عدىّ بن حاتم أن العبادة المذكورة فى الآية الكريمة هى العبادة المخصوصة كالصلاة لهم ، أو دعاؤهم ... فبين له النبىّ ﷺ نوع العبادة المقصودة

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حَدَائِقَ ذاتَ بَهْجَة ماكان لكم أنْ تنبتوا شَجَرَها أأله مع الله ﴾ .

سورة النمل : (٦٠)

فالسؤال فى أول الآية وقع عن أشياء تتصل بالخلق ، والرزق ، والقدرة ، والتدبير وغيرها من صفات التأثير التى هى معنى لفظ (**الرب**) فكان المقام يقتضى سؤالهم فى آخر الآية عن ذلك فيقال: (**أرب مع الله؟**) ولكن وقع السؤال بقوله : (**أأله مع الله**) ؟ لأن اللفظين متلازمان لافرق بينهما من حيث الواقع ، وإن كان استعمال كلمة (إله) هنا قد جاء لحكمة عظيمة لأنه سألهم عن محل النزاع مباشرة والمعنى : أرب يخلق ويرزق مع الله فيستحق التأليه معه ؟ ولما كان الخلق والرزق والتدبير ليس محل نزاع كثير ، وإنما النزاع فى عبادة غير الله لذلك عاجلهم باستنكار اتخاذ آلهة مع الله تعالى .

والمثال الثانى قوله تعالى :

﴿ اعْبُدوا الله ربى وربكُم ﴾ .　　　　سورة المائدة : (١١٧)

والمقام يقتضى أن يقول : اعبدوا الله إلهى وإلهكم ، ولكن استعمل كلمة (الرب) مكان (الإله) للتلازم التام بين الكلمتين كما قلنا .

والحكمة هنا ـــ والله أعلم ـــ أن ذكر (الرب) فيه تصريح بعلة العبادة وهوما يتضمنه الرب من معانى الخلق والرزق .. إلخ ، والمعنى اعبدوا الله الذى خلقكم ورزقكم وتولاكم فى سائر أموركم .

سادساً : التوحيد عقيدة شاملة :

ومما تقدم يظهر جليا أن (التوحيد) الذى أمرنا الله تعالى به إنما هو عقيدة شاملة تستوجب يقين القلب ، وإسلام الوجه لله تعالى قولا وعملا ، وإفراده سبحانه وتعالى وحده (**بالعبادة**) كالصلاة ، والدعاء ، والنذر ، والطواف ، والذّكر (**وبالطاعة**) فى شئون الحياة أى فى تشريعات الحلال والحرام .

فالتوحيد ليس قضية كلامية ، أو جدلية ، وإنما هو التزام شامل بدين الله

تعالى فى كل نواحى الحياة الإنسانية ..

لذلك قص علينا القرآن الكريم كيف جعل الرسل جميعا على رأس دعوتهم اجتناب الطواغيت التى تعبد من دون الله ، خاصة فى أمر الشرائع والأحكام قال تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾ . سورة النحل : (٣٦)

ولذلك جعل الرسل جميعا مدخلهم إلى تغيير حياة أهل الجاهليات هو (التوحيد) ، لأن التوحيد يعنى رد الحكم والتشريع إلى الله تعالى ، فى العقائد والأخلاق ، والعبادات والمعاملات ، فإذا فعل الناس ذلك سهل تغيير ماهم عليه من فساد وضلال .

يقول تعالى على لسان (**شعيب**) عليه السلام :

﴿ **قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان** ﴾ . سورة هود : (٨٤)

فالآية الكريمة ترتب على التوحيد وجوب الالتزام بشريعة الله فى التجارة والتصرفات المالية .

ويقول صالح لقومه : ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون * ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون** ﴾ .

سورة الشعراء : (١٥٠ ــ ١٥٢)

فقد رتب النهى عن طاعة أوامر الزعماء الضالين على تقوى الله ، وطاعة الشرع الذى جاءهم به عليه السلام من عند الله ...

ويقول تعالى لنبيه (**محمد**) ﷺ :

﴿ **قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق** ﴾ .

سورة الأنعام : (١٥١)

فقد جعلت الآية الكريمة التوحيد (أو النهى عن الشرك) رأس الأمر فيما بعده من الأوامر والنواهى .

فتقرر إذاً اختصاص الله تعالى وحده بالطاعة فى التشريع ، كما اختص بالعبادة وحده ، وهذا هو معنى التوحيد فى شموله وسعة مدلوله .

يقول الدكتور / محمد عبدالله دراز رحمه الله بعد كلام طويل عن سورة البقرة .

« ... الخطوة الأولى : تقرير وحدة الخالق المعبود ... الخطوة الثانية : تقرير وحدة الآمر المطاع ... **وهى** ركن من عقيدة **التوحيد** فى الإسلام ، فكما أن من أصل التوحيد ألاّ تتخذ فى عبادتك إلٰها من دون الرحمن الذى بيده الخلق والرزق .. كذلك من أصل التوحيد ألا تجعل لغيره حُكْماً فى سائر تصرفاتك ، بل تعتقد ألاَّ حكم إلاَّ لَهُ، وأن بيده وحده الأمر والنهى ، والحلال ماأحله الله ، والحرام ماحرمه الله ، ومن استحل حرامه ، أو حرّم حلاله فقد كفر ... »[1] .

سابعاً : أساليب القرآن فى الحديث عن الوحدانية والتوحيد :

جاءت أساليب القرآن فى هذا الباب على غاية التفنن والابداع ، تلطفا فى استدعاء الناس إلى التوحيد ، وتأليفا لقلوبهم ، ولفتا لأسماعهم وأبصارهم ، وإقامة للحجة عليهم بكل الأساليب ومن ذلك :

(١) أسلوب الخبر المجرد بيانا للحقّ ، وإعلاما للخلق كما قال تعالى :
﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ، ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ .
سورة البقرة : (١٦٣)

(٢) **أسلوب الخبر المؤكد** : والمؤكدات التى جاء بها القرآن فى شأن الوحدانية والتوحيد كثيرة متنوعة ومنها :

أ ــ التأكيد بإنَّ .
ب ــ التأكيد باللام
جـ ــ التأكيد بالقسم

ومثالها جميعا قوله تعالى **﴿ والصّافات صفاً * فالزّاجراتِ**

---

(١) راجع هذا البحث القيم فى كتاب النبأ العظيم ص ٢١٧ وما بعدها

زجْرا ، **فالتاليات ذِكْرا * إنّ الٰهَكم لَواَحِد * ربُّ السموات والأرض وما بينهما وربّ المشارق ﴾**

سورة الصافات : (١ ـــ ٥)

د ـــ التأكيد بأساليب القصر :

- كأسلوب النفى والاستثناء ، فى قوله تعالى : **﴿ لا إله إلاّ أنا ﴾**

  سورة طه : (١٤)

- وأسلوب القصر « بإنما » : **﴿ قل إنما هو إله واحد ، وإنّنى بَرِىء مما تشركون ﴾** سورة الأنعام : (١٩)

- وأسلوب القصر بالتقديم والتأخير : **(إيّاك نَعْبد)** فتقديم المفعول (إياك) أفاد قصر العبادة على الله تعالى وحده ، وأصل الجملة : (نعبدك) .

- وأسلوب القصر بتعريف طرفى الجملة : **﴿ ... الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب ﴾** سورة الشورى : (١٠)

  فتعريف الخبر (ربى) أفاد أنه مقصور على المبتدأ ، أى الربوبية مقصورة على الله تعالى .

(٣) **أسلوب الطلب كالاستفهام التقريرى** ، أو الانكارى ، قال تعالى : **﴿ أأرْباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾** .

سورة يوسف : (٢٩)

وقال تعالى : **﴿ أإلٰـه مع الله تعالى الله عما يشركون ﴾** .

سورة النمل : (٦٣)

ومن هذا النوع الطلبى فعل الأمر مثل : (قل هو الله أحد) فإن نظرت إلى أول الجملة كانت انشائية طلبية لصدارة فعل الأمر (قل) ، وإن نظرت إلى مضمون الجملة أو مقول القول كانت خبرية ، وفى الحالين هى إثبات للوحدانية ، وأمر بالتوحيد على أبلغ الوجوه وأوفاها ، ولذلك كانت السورة المصدرة بهذه الآية الكريمة تعدل ثلث القرآن كما جاء فى الحديث الصحيح .

(٤) **أسلوب الأمثال** : وهو باب واسع فى القرآن الكريم ، يقصد به تقرير

المعانى فى نفس السامع ، وتصويرها فى صورة محسوسة ملموسة عن طريق التشبيه ، أو الاستعارة أو غيرهما من أساليب البيان ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **مَثَل الذين اتّخَذُوا مِنْ دون الله أولياءَ كَمَثَلِ العنكبوت اتّخذت بَيتا وإنّ أوْهن البيوت لبيتُ العنكبوت لوكانوا يعلمون * إنّ الله يعلم مايدعون مِنْ دونه مِنْ شىء وهو العزيز الحكيم * وتلك الأمثال نضربها للناس وما يَعْقِلهُا إلاّ العالمون** ﴾

سورة العنكبوت : (٤١ ــ ٤٣)

فقد ضرب الله تعالى مثلا للذين يستنصرون بآلهة غير الله ، سورهم فيه بأنهم يستنصرون بأضعف شىء ، وكأنهم العنكبوت فى بيتها الهش الذى تمزقه الريح ، وتقتحمه الحشرات ويعبث به الصبيان فلا يغنى عن أهله شيئا .

وقال تعالى : ﴿ **ضرب الله مَثَلاً رَجُلافيه شركاء مُتَشَاكِسُون وَرَجُلاً سَلَماً لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون** ﴾ سورة الزمر : (٢٩)

فهذان مثلان : **للمشرك** فى تخبطه وحيرته ، **وللموحّد** فى راحته وسلامته ، ولا يستويان أبدا كالا يستوى عبد مملوك **يسومه** سادته سوء العذاب ، وعبد مملوك لمالك واحد لايشق عليه بكثرة الأوامر واختلاف المذاهب .

(٥) **أسلوب المحاورة** : وهو الذى يورد فيه الحديث عن **التوحيد** من خلال حوار يجرى بين طرفين أو أكثر ، فيتقرر فى النفس أكثر من الخبر المجرد .

قال تعالى : ﴿ واذْكر فى الكتاب إبراهيمَ إنّه كان صِدّيقا نبيا * إذ قال لأبيه ياأبَتِ لِمَ تعْبدُ مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ﴾ . سورة مريم : (٤١ ، ٤٢)

فالآيات الكريمة لم تأت على طريقة الخبر المجرد ، وإنما جاءت على سبيل المناقشة بين طرفين ، وهى تورد حوارا بين ابراهيم عليه السلام وبين أبيه المشرك ، فسأل ابراهيم أباه لم تعبد آلهة صماء عمياء لاتغنى

عنك شيئا ؟ وهو سؤال يبين حقيقة هذه الآلهة الباطلة، ويتضمن صفات الله الخليق وحده بالعبادة .

(٦) **أسلوب القصــة** : وهو أسلوب من أوسع أساليب القرآن فى **التوحيد** وغيره ، وقد عنى القرآن الكريم بهذا الأسلوب ، وأكثر منه ، لما للقصة من تأثير فى النفوس ، وسهوله فى الحفظ ، وانتشار وذيوع بين الناس ، وأوضح مثال لذلك قصة ابراهيم عليه السلام مع قومه وأصنامهم ، وتحطيمه لها ، وتقريره للتوحيد من خلال المشاهد المتتابعة التى جرت بينه وبين قومه ، كما قص الله علينا ذلك فى عديد من سور القرآن الكريم كالشعراء ، والصافات ، والأنبياء ومنها : أنه بعد أن حطم الأصنام سألوه عليه السلام فسخر منهم ، وأحالهم إلى الأصنام فرجعوا إلى أنفسهم يتلاومون ثم كان ماقصه القرآن الكريم : ﴿ .. **ثم نُكِسُوا على رؤوسهم لقد عَلِمْتَ ماهؤلاء ينطقون * قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم * أفٍّ لكم ولما تعبدون مِنْ دون الله أفَلَا تعقلون** ﴾ .

(القصة بتمامها فى سورة الأنبياء : ٥١ ــ ٧٠)

وفى هذا تقرير **للتوحيد** بأبلغ أسلوب وأقواه ، ونفى للشرك على أتم وجه وأوفاه ، فضلا عما فيه من تحقير للإصنام ، وسخرية بالغة بعبّادها ، الذين ألغوا عقولهم ، وخروا عليها صمًّا وعميانا .

ثامنا : الاستدلال القرآنى :

الدليل هو مايتوصل به إلى معرفة صحة الشىء وصدقه، أو إثبات هذه الصحة بطريق من طرق الاثبات .

ولقد جاء القرآن الكريم يقرر مبادىء وتعاليم ، ويقيم عليها دلائل صدقها وصحتها ، ويحث الناس على طلب الدليل ، وفهم البراهين .

وقد استوعب القرآن الكريم الاستدلال على صحة **عقيدة الوحدانية** ، وأنها الحق المبين ، وأنّ كل شريك أو معبود مع الله تعالى هو كذب وافتراء ؛ بل كلها أصنام وأوهام لاحق فيها ، بل لاحقيقة لها فى باب الألوهية كما قال تعالى : ﴿ **أفرأيتم اللَّاتَ والعُزّى * ومناةَ الثالثةَ الأخرى * ألَكُم الذَّكَر وله**

الأنثى * تلك إذاً قِسْمةٌ ضيزَى * إنْ هي إلاَّ أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من سلطان إنْ يتّبعون إلاَّ الظنَّ وما تَهْوَى الأنفس ولقد جاءهم مِنْ رَبّهم الهدى ﴾ .

سورة النجم : (١٩ ـــ ٢٣)

والمعنى أن هذه التى تسمونها آلهة ليس لها من حقيقة الألوهية أدنى نصيب ، وإنما هى أسماء على غير حقائق كالغول ، والعنقاء وغيرها من الأشياء المتوهمة ، ولذلك يقول القرآن متحديا المشركين :

﴿ أفَمَنْ هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سَمُّوهم أمْ تنبئُونه بما لايعلم فى الأرض أمْ بظاهر مِنَ القول ﴾ .

سورة الرعد : (٣٣)

والمعنى : أنّ الله تعالى رقيب وعليم بكل شيء ، وقد جعل له المشركون شركاء لاحقيقة لهم ، وإنما عبدوها بظنون من القول ، وأوهام من الفكر باطلة .

ويقول تعالى منددا بالمشركين الذين يعبدون الأوهام المطلقة ، تحت هذه الأسماء المخترعة : **﴿ ويعبدون مِنْ دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئُون الله بما لايعلم فى السموات ولافى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ .**

سورة يونس : (١٨)

لذلك لم يترك القرآن دليلا يصلح لخطاب البشر إلاّ أورده على أتم الوجوه ؛ حتى لنقول إنه لم يسق الدليل على صحة **الوحدانية** أو وجوب **التوحيد** فقط ، وإنما أوجب على الناس أن يتدبروا هذه الأدلة ، وأن يفهموها ويحصّلوها ـــ ولو إجمالا ـــ حتى يكونوا على بينة فى أعظم حقائق الوجود ، وحتى يكون إيمانهم على غاية الاستقرار ، ولذلك نوّع الأدلة فى هذا تنويعا عجيبا حتى تناسب جميع الناس على اختلاف مستوياتهم وعصورهم .

أنواع الأدلة القرآنية :

وسنتحدث عن ثلاثة أنواع منها على سبيل الإيجاز :

النوع الأول : الأدلة الحسية (أو الكونية) .

وهو الذى يستخدم فيه القرآن الكريم الكائنات للتدليل على وجود الله تعالى ووحدانيته ، وسعة قدرته وعظيم حكمته .

والقرآن الكريم يتخذ كل شيء فى الكون دليلا له ، خاصة وجود الكون من العدم ، وانتظامه على قوانين مطردة ، ونواميس محكمة ، وقيامه على غاية التدبير ، والتكامل بين أجزائه ، والعناية بما فيه من عجائب الأشياء والأحياء .

وفى كل هذا يتجه القرآن الكريم إلى الإنسان مخاطبا قلبه وفكره ، ومطالبا أن يتأمل بحسه هذه الموجودات ، لينتقل من ملاحظتها فى أوضاعها المختلفة إلى ماوراءها وليدرك من هذه المقدمات الحسية البدهية نتائجها القاطعة ، فيعلم أن لهذا الكون ربا موجدا ، وإلها واحدا مطلق القدرة والإرادة ، واسع العلم والحكمة .

وبذلك يدور الدليل بين السمع والبصر ، والفكر والنظر ، والمقدمات البدهية القريبة ، والنتائج السهلة المسلّمة .

وهذا النوع على سهولته ويسره هو أقوى أنواع الأدلة ، وأقربها إلى القلوب والنفوس ، وأعظمها فى التأثير والإقناع ، لدلالته على المطلوب بذاته ومن أقصر سبيل ، بخلاف أدله **الفلاسفة والمتكلمين** التى تدل على المطلوب دلالة ناقصة وتحتاج مقدماتها إلى برهنة واستدلال فى الغالب ، بل قد تحتاج النتائج نفسها إلى دليل آخر خارج عنها ، مما يعقّد الاستدلال ، لطول مقدماته ، وكثرة وسائطه ، وصعوبة طرقه على أكثر الناس ؛ وذلك كاستدلالهم بحدوث العالم على أن له محدثا ، ويستدلون على حدوث العالم ، بتقسيمه إلى جواهر وأعراض ، ثم يثبتون حدوث كل منها بمقدمات طويلة ، وكل هذا ينتهى إلى أن للعالم محدثا ، وهذه نتيجة ناقصة لأنها لم توصلنا إلى من هو المحدث ؟ وهذا يحتاج إلى دليل آخر لإثباته خارج عن نطاق علومهم ، وضروب منطقهم .

ولكن القرآن العظيم يطوى هذا الشتات ، ويضع الإنسان أمام حقائق الكون مباشرة ، ليوقن بنفسه أن الذى أبدع هذا الكون ونظمه إله واحد ، هو

الله رب العالمين ، الذى صدّق المرسلين فيما بلغوه عنه جل شأنه :

ولذلك يحث سبحانه وتعالى عباده على النظر فى الكون جملة : ﴿ **أولم ينظروا فى ملكوتِ السّموات والأرض وما خلق الله مِنْ شىء** ﴾ .
سورة الأعراف : (١٨٥)

ويأمر سبحانه بالنظر فى دقائق هذا الكون : ﴿ **قل انظروا ماذا فى السموات والأرض** ﴾ : سورة يونس : (١٠١)

ويلفت حواسهم وقلوبهم إلى عجائب هذا الكون الكلية ، والجزئية :
﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسِىَ وأنبتنا فيها مِنْ كل زوج بهيج * تَبْصِرَةً وذِكْرى لكل عبد منيب * وَنَزَّلْنَا مِنَ السماء ماءً مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد * والنخل باسقاتٍ لها طَلْع نضيد ...** ﴾ .
سورة قٓ (٦ ـــ ١٠)

والآيات فى هذا النوع كثيرة جدا ، ومن أراد المزيد فليقرأ عجائب هذا الاستدلال القرآنى فى سورة (الرحمن ، والواقعة ، والملك ، والمرسلات ، والنبأ ، والنازعات ، وعبس ، والغاشية ، والشمس) وغير ذلك فى القرآن المجيد .

النوع الثانى : الأدلة النفسية (أو الداخلية) .

وهى التى تعتمد فى انتزاع الدليل على **الوحدانية** من داخل الإنسان لامن خارجه،ومن أعماق شعوره الداخلى ، ووجدانه الباطنى ، لا من مدركات حواسه المعروفة .

وهذا الدليل بالغ الأهمية للإنسان ، وفى قضية الإيمان بالذات ، حتى يحاط به من خارجه ومن داخله جميعا ، فتمتلىء نفسه يقينا لايتسرب إليه ريب ولا قلق .

وكم من إنسان امتلأ عقله بالمعارف ، والأرقام ، وفنون الإحصاء ، وامتلأت حواسه بعجائب هذا الكون ولكنه يمضى متبلد الإحساس بسبب

تعطل وجدانه الداخلى كما قال تعالى : ﴿ **فإنها لاتعمَى الأبصار ولكن تَعْمَى القلوب التى فى الصدور** ﴾ . سورة الحج : (٤٦)

ومن هنا اهتم القرآن العظيم ببيان هذا الدليل النفسى ، وساق الآيات تذكيرا للناس بهذا الجانب الفذ الذى أهملوه وعطلوه ، وطمروه تحت ركام من الشبهات والشهوات التى رانت على قلوبهم فأظلمتها وأماتتها .

يخبرنا الله تعالى أن المشركين الذين يعطلون **التوحيد** ، ويشركون مع الله **آلهة** أخرى فى كل شئون حياتهم ، ويجادلون غاية الجدل دفاعا وحمية عن أوثانهم — يخبرنا الله تعالى أن هؤلاء **يحملون فى أعماق نفوسهم دليل الوحدانية** ، ويمضون صما وعميانا عنه فى الرخاء ، حتى إذا مستهم شدة جائحة انتفض الدليل فى صدورهم **حياً نابضاً** ؛ حين لاتغنى الأصنام أو الأوهام عن أصحابها شيئا هم فى أشد الحاجة إليه .

وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ **وإذا مسّكم الضرّ فى البحر ضلّ مَنْ تَدْعُون إلاَّ إياه** ﴾ . سورة الإسراء : (٦٧)

ويسألهم القرآن سؤال تقرير عن حقيقة يعلمونها وإن كابروا فيها ، ثم يكررها لهم زيادة فى التقرير والتأكيد فيقول : ﴿ **قل أرأيتَكُم إنْ أتاكُم عذابُ الله أوْأتَتْكُم الساعةُ أغَيْرَ الله تدعون إنْ كنتم صادقين * بل إيّاه تَدْعُون فيكشف ماتدعون إليه إنْ شاء وتَنْسَوْن ماتشركون** ﴾ .
سورة الأنعام : (٤٠ — ٤١)

وينتزع لهم القرآن من حياتهم صورة واقعية حية ، تعتمد على هذا المعنى الذى تتجه فيه النفوس إلى مالك القوى والقدر اتجاه شعور وفطرة ، وخضوع ودعاء ، وتنسى ماعداه سبحانه حين تكتنفها الأخطار الماحقة : ﴿ **هو الذى يُسيِّركم فى البر والبحر حتىّ إذَا كنتُم فى الفلك وجَرَيْنَ بهم بريح طيبة وفَرِحُوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج مِنْ كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دَعَوُا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين** ﴾ . يونس : (٢٢)

النوع الثالث : الأدلة العقلية :

وهى الأدلة التى تعتمد على عمليات نظرية فكرية ، كترتيب المقدمات واستخراج نتائجها حسب ضوابط وقوانين وراء بداهة الحس ، ومشاعر النفس ، وإن كان الإدراك فى الجميع راجعا إلى العقل ؛ والأدلة العقلية **أوسع مدى من أشكال المنطق اليونانى ، وضروبه المنتجة ، لذلك لم يتقيد القرآن العظيم بهذا النمط الفكرى ، وإنما جاء على نمط خاص فى الاستدلال العقلى هو ضرب من إعجازه الذى تفرد به .**

وقد استخرج العلماء منه أنواعا كثيرة منها :

١ ــ الدليل البدهى :

وهو الذى يقوم على استخدام الحقائق المشهورة ، والبديهات المستقرة فى ابتناء الدليل عليها،فيذعن الخصم للدليل إذعانا إن كان منصفا .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **بديع السموات والأرض أنَّى يكونُ له وَلَد ولَمْ تكن له صاحبة** ﴾ . سورة الأنعام : (١٠١)

فحيث تقرر أن الولد لايكون من غير أم ، فقد بنى القرآن على هذه الحقيقة المسلمة دليل بطلان مانسبوه إليهْ من الولد ، لأنه ليس له صاحبة فمن أين يأتى الولد ؟ .

والدليل كما نرى سهل واضح يشبه الدليل الحسى فى كونه يدل على المطلوب مباشرة ، ولا يحتاج إلى مقدمات تنظم على وجه مخصوص ، ولابد من دليل على النظرى منها ، وغير ذلك من التعقيدات التى تصرف الذهن عن المطلوب الأصلى بكثرة الوسائط ، والاشتغال بالمقدمات ، والاستدلال عليها ثم على نتائجها أحيانا كما بينا .

٢ ــ دليل التمانع :

وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ **لو كانَ فيهما آلهةٌ إلا الله لَفَسَدَتَا** ﴾ . سورة الأنبياء : (٢٢)

وتقرير هذا الدليل أن يقال : لو كان للعالم صانعان لكان تدبيرهما لايجرى على نظام ، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما .

وذلك لأنه لو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته فحينئذ : إما أن تنفذ إرادتهما معا فيتناقض لاجتماع الضدين .

وإما ألا تنفذ إرادتهما معا فيؤدى إلى عجزهما ، أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدى إلى عجزه ، والإله لايكون عاجزا ، فبطل ماأدى إليه وهو افتراض التعدد ، وثبت نقيضه وهو (**الوحدانية**) .

٣ ــ دليل التسليم :

وهو الذى يُسَلَّم فيه بوقوع المستحيل تسليما جدليا ، ثم يُسْتَدَل على عدم فائدة هذا المحال على تقدير وقوعه ، ومثاله قوله تعالى :

﴿ مااتَّخذَ اللهُ مِنْ ولد وما كان معه مِنْ إله إذاً لذهب كل إلٰه بما خَلَق ولَعَلَا بعضُهم على بعض سبحان الله عما يصفون ﴾ .

سورة المؤمنون : (٩١)

ومعنى الآية الكريمة :

ليس معه تعالى من إله ، ولو سُلِّم جدلا أن معه إلها لزم من ذلك التسليم ذهاب كل إله من الإثنين بما خلق ، واستعلاء بعضهم على بعض ، فلا يتم فى العالم أمر ، ولا ينفذ حكم ، ولا تنتظم أحواله ، والواقع المشاهد خلاف ذلك ، ففرض إلهين فصاعدا محال لما يلزم عليه من المحال[١] .

الشرك ظنون وأوهام :

وفى ختام هذا **الاستدلال على صحة التوحيد** ، يبرز القرآن العظيم وجها آخر من وجوه الاستدلال ، حين يطالب المشركين ويتحداهم أن يقيموا دليلا واحدا ــ من أى نوع ــ على صحة عقيدتهم فلا يستطيعون ، بل لا يملكون إلا التعلق بالظنون والأوهام ، والاحتجاج بفعل آبائهم الذين قال عنهم

---

(١) راجع كتاب : الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (النوع الثامن والستين) ج ٢ ص ١٣٦ ومابعدها ، وفيه تفصيلات عديدة من هذه الأدلة

القرآن : ﴿ أَوَلَوْ كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ .

سورة البقرة : (١٧٠)

ومن هذا التحدى الشامل قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم ماتدعون مِنْ دون الله أرونى ماذا خَلَقُوا مِنَ الأرض أمْ لهم شِرْكٌ فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أوْ أثَارَةٍ مِنْ عِلْم إنْ كنتم صادقين ﴾ .

سورة الأحقاف : (٤)

أى أن الآلهة التى تعبدونها لم تخلق شيئا فى الكون ، وليس عليها دليل من كتب الله المنزلة ، ولا بقية من أثر علمى صحيح ، وإن ادّعيتم شيئا من ذلك فأثبتوه إن كنتم صادقين .

ولما كانوا عاجزين عن ذلك ، بيّن القرآن الكريم حقيقة عقائدهم ، وأنها مجرد ظنون فاسدة قال تعالى :

﴿ يظنون بالله غير الحق ظنّ الجاهلية ﴾ .

سورة آل عمران : (١٥٤)

ويقول عن أصنامهم :

﴿ إنْ هى إلاّ أسماءٌ سميتموها أنتم وآباؤكم ماأنْزَل الله بها مِنْ سُلْطان إنْ يتبعون إلاّ الظنَّ وما تَهْوَى الأنفُس ولقد جاءهم مِنْ ربهم الهدى ﴾ .

سورة النجم : (٢٣)

فالحمد لله الذى جاءنا بهذا الهدى ، وعلمنا الحق الذى قامت على صحته أدلة الحس والنفس ، والعقل والنقل ، ليزداد الذين آمنوا إيمانا ، وليكونوا على غاية اليقين بوحدانية رب العالمين ، وبأن توحيده هو الحق المبين ، والصراط المستقيم ، وما الشرك والإلحاد إلا لوثات وضلالات عارية من كل دليل ، بل هى مضادة لكل فكر وعقل سليم .

* * *

الموضوع الثانى

المعيّة فى ضوء القرآن الكريم

المعنى اللغوى للمعيّة .
ورودها فى القرآن الكريم .
موقف القرآن الكريم الشامل :

- الأنواع الجامعة للمعية وأقسامها وما يتفرع من كل
- معية الله تعالى لعباده (العامة والخاصة)
- المعية الدينية مع رسل الله (إجمالا وتفصيلا)
- الجماعة المسلمة فريضة وضرورة لإقامة الإسلام

المعنى اللغوى :

الْمَعِيَّة ــ بتشديد الياء ــ نسبة إلى لفظ (مع) ، وهو لفظ يقتضى الاجتماع إما:فى المكان نحو : هما فى الدار،أو فى الزمان نحو : ولدا معا .. وإما فى الشرف والرتبة نحو : هما معا فى العلو ، ويقتضى معني النصرة ، وأن المضاف إليه لفظ (مع) هو المنصور نحو قوله : ﴿ **لاتحزن إنّ الله معنا** ﴾ أى ناصرنا[1] . وقال الإمام اللغوى ابن هشام :

(مع) : اسم بدليل التنوين فى قولك : (معاً) ودخول الجار فى حكاية سيبويه ذهبت مِنْ معه .. وتسكين عينه لغة غَنْم وربيعة لاضرورة ...

وتستعمل **مضافة** فتكون ظرفا ولها حينئذ ثلاثة معان :

أحدهما : موضع الاجتماع ...

الثانى : زمانــه ...

الثالث : مرادفة (عند) وعليه حكاية سيبويه السابقة .

ومفردة ، فتنون ، وتكون حالا[2] ... إلخ ...

ويقول صاحب القاموس المحيط :

(مع) : اسم قد يسكن وينون ، أو حرف خفض ، أو كلمة تضم الشيء إلى الشيء ، وأصلها معا ، أو هى للمصاحبة ، وتكون بمعنى عند ، وتقول : كنا معا ، أى جميعا .. والمَعْمَعِيّ الذى يكون مع من غَلَب[3] ...

ورود (مع) فى القرآن الكريم :

وقد ورد هذا اللفظ فى القرآن الكريم **احدى وستين ومائة مرة فى معظم** سور القرآن الكريم[4] ...

ولم تستعمل هذه الكلمة فى القرآن الكريم **مفردة** ، وقعت **مضافة** دائما ،

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص ٤٧٠ .

(٢) انظر كتاب مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ج ١ ص ٣٣٣ بتصرف يسير

(٣) القاموس المحيط للفيروزبادى ج ٣ ص ٨٥ (باب العين فصل الميم)

(٤) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة (مع) ص ٦٦٨ ومابعدها

اخر سورة العنكبوت : (٦٩)

وإما إلى ضمير[2] نحو : ﴿ **لا تحزن إنّ الله معنا** ﴾ .

سورة التوبة : (٤٠)

(**والمعية**) فى القرآن الكريم تعطى معانى كثيرة متعددة : مدحا أو ذما ، وحقيقة أو مجازا ، وعموما أو خصوصا على مانبينه إن شاء الله تعالى .

قال السيوطى رحمه الله : « وأصلها لمكان الاجتماع ، أو وقته ، نحو : ﴿ **ودخل معه السجن فتيان** ﴾ ، ﴿ **أرْسِلْه معنا غداً** ﴾ .

وقد يراد بها مجرد الاجتماع والاشتراك من غير ملاحظة المكان والزمان . نحو : ﴿ **وكونوا مع الصادقين** ﴾ ، ﴿ **واركعوا مع الراكعين** ﴾ .

أما نحو : ﴿ **إنّى معكم** ﴾ ... ﴿ **وهو معكم أينما كنتم** ﴾ فالمراد به العلم والحفظ والمعونة مجازا[3] .

الأنواع الجامعة (للمعية) فى القرآن الكريم :

وحين نتأمل الآيات الكريمة التى ورد فيها لفظ (مع) ، ونردُّ الأشباه والنظائر إلى أصول جامعة ، نجدها تتلخص إجمالا فى الأنواع التالية :

النوع الأول : معيّة الله تعالى لعباده .

---

(١) وردت مضافة إلى اسم ظاهر (٥٦) مرة .

(٢) وردت مضافة إلى ضمير المفرد المخاطب (معك) ١١ مرة .
وإلى ضمير المخاطبين (معكم) ٢٧ مرة .
وإلى ضمير الاثنين المخاطبين (معكما) مرة واحدة .
وإلى ضمير المتكلم المجموع (معنا) ٦ مرات .
وإلى ضمير المتكلم المفرد (معى) ١١ مرة .
وإلى ضمير المفرد الغائب (معه) ٣٤ مرة .
وإلى ضمير الغائب المجموع (معهم) ١٤ مرة .
وإلى ضمير المفردة الغائبة (معها) مرة واحدة (راجع المعجم المفهرس ..) .

(٣) الاتقان فى علوم القرآن (النوع الأربعون فى معرفة الأدوات التى يحتاج إليها المفسر) لفظ (مع) من حرف الميم جـ ١ ص ١٧٦ .

النوع الثانى : معيّة العباد لله تعالى .

النوع الثالث : معيّة الناس لما حولهم من الأحياء والأشياء .

وسنتحدث عن كل منها تفصيلا على الترتيب السابق إن شاء الله تعالى :

النوع الأول : معية الله تعالى لعباده :

وقد وردت فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم وبصيغ شتى ، مضافا إلى الاسم الظاهر نحو : ﴿ **إنّ الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾ .
آخر سورة النحل : (١٢٨)

ومضـافة للضمائر بأنواعها نحو : ﴿ **وهو معكم أينما كنتم** ﴾ .
سورة الحديد : (٤)

ولفظ (**المعية**) معناه الاجتماع والصحبة كما علمنا ، وهو إذا أسند إلى الله تعالى احتمل — من حيث هو (**معية الذات**) و (**معية الصفات**) ، أى هو معكم بذاته ، أو هو معكم بصفاته .

ولكن العلماء **سلفا وخلفا** مجمعون على أن (**معية الذات**) **هنا غير مرادة** ، وإنما المراد معيته تعالى لعباده **بصفاته اللائقة** بمعنى المعية ، كالعلم والحفظ والنصرة ونحوها[١] .

ومعية الله تعالى لعباده على ماورد فى القرآن قسمان :

القسم الأول : (**المعية العامة**) للخلق جميعا ، والمراد بها معية العلم ، والرزق ، والتدبير ، ونحو ذلك مما يليق به تعالى ، ويصلح للخلق عامة ، ومن هذا النوع قوله تعالى ﴿ **مايكون مِنْ نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهم ولا خمسة إلاّ هو سادسهم ولا أدنى مِنْ ذلك ولا أكثر إلاّ هو معهم أينما كانوا** ﴾ .
سورة المجادلة : (٧)

أى معهم بعلمه وسلطانه وقدرته سبحانه وتعالى[٢] .

---

(١) راجع فى هذا كتاب الأسماء والصفات للبيهقى ص ٤٣٠ ، وكتاب مناهل العرفان للزرقانى جـ ٢ ص ١٨٢ .

(٢) انظر مانقله البيهقى فى الأسماء والصفات عن سفيان الثورى ، ومقاتل بن حيان وغيرهما من علماء السلف ص ٤٣٠ وما بعدها .

القسم الثانى : (**المعية الخاصة**) ولا تكون إلاّ للمؤمنين الصادقين من عباد الله تعالى ومعناها حينئذ النصرة ، أو التأييد ، أو الرعاية والرحمة والعناية ، أو الحفظ ، والمعونة ، أو إجزال الثواب ورفع الدرجات ، أو تكفير السيئات ونحو ذلك من المعانى التى لاتليق إلا بعباد الله المؤمنين .

وهذا الضرب يضاف فى القرآن للمؤمنين بصيغ شتى .

- فيضاف **للملائكة** ﴿ **إِذْ يُوحِي ربك إلى الملائكة أنِّي معكم** ﴾ .
سورة الأنفال : (١٢)

والمعنى (معكم) بحفظى وتأييدى ومعونتى .

- ويضاف إلى **الأنبياء** عليهم السلام ﴿ **قال لاتخافا إننى معكما أسمع وأرى** ﴾ . سورة طة : (٤٦)

والمعنى : (معكما) بحفظى ورعايتى ونصرتى ، والمخاطب بها موسى وهارون عليهما السلام .

- ويضاف إلى **المؤمنين** بأوصافهم المحمودة كالإحسان ، والتقوى ، والصبر مثل : ﴿ **إن الله مع الصابرين** ﴾ ، ﴿ **إن الله مع المتقين** ﴾ .
سورة البقرة : (١٥٣ ، ١٩٤)

والمراد معهم بالتأييد ، والرعاية ، وحسن الجزاء والتوفيق .

- وقد يضاف إلى **ذوات معينة** بالشروط التى تجعلهم مؤمنين مستحقين لهذه المعية الإلهية العظيمة ، ومنه قوله تعالى : خطابا لبنى إسرائيل : ﴿ **وقال الله إِنِّي معكم لَئِنْ أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا** ﴾ سورة المائدة : (١٢)

أى أن رعاية الله تعالى ونصرته لهم مشروطه بإقامة الصلاة وما بعدها من الشروط . قال ابن رجب رحمه الله :

«... من حفظ حدود الله تعالى ، وراعى حقوقه وجد الله معه فى كل أحواله حيث توجه ، يحوطه ، وينصره ، ويحفظه ، ويوفقه ، ويسدده : ﴿ **إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾ .

قال قتادة : من يتق الله يكن معه ، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التى

لاتغلب ، والحارس الذى لاينام ، والهادى الذى لايضل ..

فهذه المعية الخاصة تقتضى النصر ، والتأييد ، والحفظ ، والاعانة ، بخلاف المعية العامة المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ .. **إلاّ هو معهم أينما كانوا** ﴾ فإنها تقتضى علمه واطلاعه ومراقبته لأعمالهم ، فهى مقتضية لتخويف العباد منه » [1] .

والقرآن العظيم يبين لنا أن هذه « **المعية الإلهية الخاصة** » تكون فى أخص أحوالها وفى أجل جلالها ، حين تتعلق برسول كريم من رسل الله ، فى مواقف الخطر أو مواطن الشدة والفزع .

فحين أحيط بموسى عليه السلام وصار البحر أمامه ، والعدو وراءه ، والهلع يغشى قومه تجلت له المعية الإلهية المنقذة قال تعالى :

﴿ **فلما تراءى الجَمْعَان قال أصحابُ موسى إنا لَمُدْركون ، قال كلا إنّ معىَ ربى سيهدين * فأوحينا إليه أن اضربْ بعصاك البحر فانفلق فكان كل فِرْق كالطَّوْدِ العظيم * وأزلفنا ثَمّ الآخرين ، وأنجينا موسى ومَنْ معه أجمعين ، ثُمّ أغْرَقْنا الآخرين** ﴾ . سورة الشعراء : (٦١ — ٦٦)

وحين أحيط برسول الله ﷺ وبكى أبو بكر صاحبه فى الغار وقال : لو نظر الكفار تحت أقدامهم لرأونا ، حينئذ استعصم رسول الله ﷺ بالمعية الإلهية المنقذة فكان ماقاله الله تعالى :

﴿ **إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذْ أخرجه الذين كفروا ثانىَ اثنين إذْ هُمَا فى الغار إذْ يقول لصاحبه لاتحزن إنَّ الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيَّده بجنود لَمْ تَرَوْهَا وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى وكلمةُ الله هى العليا والله عزيز حكيم** ﴾ سورة التوبة : (٤٠)

والقرآن الكريم يرتب — فى الموضعين — معونة الله (بالفاء) بعد ذكر المعية مباشرة فيقول : ﴿ **فأوحينا إليه** ﴾ ويقول : ﴿ **فأنزل الله سكينته عليه** ﴾ وهذا إيذان بسرعه حياطته وحفظه سبحانه وتعالى لعباده المرسلين ، حين يلوذون بسلطانه ويعتصمون بمعيته ، وفى هذه بشرى للمتقين ، وذكرى

[1] انظر كتاب : جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى ص ١٢٨ .

للمؤمنين العابدين ، وإن الله على نصرهم لقدير .

النوع الثانى : معية العباد لله تعالى :

وقد وردت فى القرآن الكريم على وجه وقصد واحد هو **إبطال الشرك والشركاء** ، ومنع أى لون من ألوان هذه المعية الشركية لله تعالى .

وقد جاءت كلمة (مع) مضافة إلى لفظ الجلالة (الله)[1] ثمانى عشرة مرة فى القرآن الكريم ، وكلها تستنكر اتخاذ (إله مع الله) تعالى بأساليب متعددة منها :

١ ــ أسلوب النفى الصريح :

قال تعالى : ﴿ **والذين لايَدْعُون مع الله إلها آخر ..** ﴾ .

سورة الفرقان : (٦٨)

وقال تعالى : ﴿ **مااتّخذ الله مِنْ ولد وما كان معه مِنْ إله** ﴾ .

سورة المؤمنون : (٩١)

٢ ــ أسلوب النهى الصريح :

قال تعالى : ﴿ **لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموماً مخذولا** ﴾ .

سورة الإسراء : (٢٢)

وقال تعالى : ﴿ **فلا تَدْعُ مع الله إلها آخر فتكون مِنَ المعذَّبين** ﴾ .

سورة الشعراء : (٢١٣)

وقال تعالى : ﴿ **وأنَّ المساجدَ لله فلا تدعوا مع الله أحدا** ﴾ .

سورة الجن : (١٨)

٣ ــ أسلوب الاستفهام الإنكارى :

قال تعالى : بعد أن عدد نعمه الباهرة على عباده فى السموات والأرض :

﴿ **أأله مع الله** ﴾ ؟ سورة النمل : (٦٠ ــ ٦٤)

وقال تعالى : ﴿ **قل أئنكم لتشهدون أنَّ مع الله آلهةً أخرى ؟ قل لاأشهد قل إنما هو إله واحد ..** ﴾ . سورة الأنعام : (١٩)

---

(١) أو الضمير العائد إلى لفظ الجلالة كما هو واضح من الأمثلة القرآنية .

٤ ـ أسلوب الخبر التهديدى :

قال تعالى : ﴿ **الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون** ﴾ .
سورة الحجر : (٩٦)

وقال تعالى : ﴿ **الذى جعل مع الله إلها آخر فألْقِياه فى العذاب الشديد** ﴾ . سورة ق : (٢٦)

ومضمون هذا النوع من الأخبار هو النهى الجازم عن الفعل الذى ورد عليه التهديد والإنذار والاستنكار .

٥ ـ أسلوب الشـــرط :

قال تعالى : ﴿ **ومَنْ يَدْعُ مع الله إلها آخر لابرهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لايفلح الكافرون** ﴾ سورة المؤمنون : (١١٧)

وقال تعالى : ﴿ **قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا** ﴾ سورة الإسراء : (٤٢)

والمعنى : لو كان مع الله تعالى آلهة أخرى كما يزعم المشركون ، لترتب على ذلك أن تطلب هذه الآلهة طريقا إلى الله تعالى بالمغالبة والقهر ، ليستولوا على ملكه كفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض[١] ولا وجود لهذه المغالبة إطلاقا بالمشاهدة ، فبطل ماأدى إليها وهو افتراض التعدد ، وثبت نقيضه وهو **الوحدانية** ، فوجب **التوحيد** .

والخلاصـــــة :

أن القرآن الكريم يمنع منعا جازما أى معية من العباد لله تعالى ، لذلك تفنن فى أساليب هذا المنع وأكثر منها ، حتى لايدع شائبة شك أو شرك فى قلوب الناس .

ذلك لأن (**المعية**) معناها ـ كما قلنا ـ الاجتماع ، والاشتراك ، والمصاحبة ، فإذا استعملت فى جانب العباد مع الله كانت موهمة ـ ولو بأدنى

---

(١) هذا المعنى هو الذى رجحه الإمامان البغوى والخازن فى تفسيريهما ، وهناك معنى آخر هو أن هذه الآلهة لو وجدت لتقربت إلى ربها ذى العرش ، وكلا المعنيين مبطل للشرك ، مثبت للوحدانية ، موجب للتوحيد .

شيء — للشركة مع الله عز وجل بوجه من الوجوه المحتملة .

ولهذا لم يرد فى القرآن الكريم استعمال هذا الأسلوب مثبتا قط ، حماية لجانب الوحدانية ، وتأكيدا لوجوب التوحيد ، وسَدًّا لذرائع الشرك ولو كانت واهية .

وفى هذا دليل بالغ على إعجاز القرآن الكريم ، وحكمته البالغة فى اختيار الألفاظ والأساليب التى تؤدى المعانى المطلوبة ، على غاية من السلامة والاستقامة .

ومن هنا ينشأ سؤال :

هل يجوز أن يؤتى فى غير القرآن بمثل هذا الأسلوب فيقال مثلاً :

« كن مع الله يكن معك » ؟

والجـــــواب :

أن هذا أسلوب لم يرد فى القرآن الكريم كما قلنا ، فالأولى عدم استعماله موافقة للقرآن من جهة ، وتحقيقا لمقصده وحكمته التى ذكرناها ، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه .

لكن هذا الأسلوب من ناحية المعنى صحيح على تقدير :

كن مع الله تعالى بالانقياد والطاعة ، يكن معك بالتوفيق والمغفرة والتأييد ونحو ذلك . ولهذا المعنى نظائر كثيرة فى الكتاب والسنة مثل :

﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ سورة البقرة : (١٥٢)

﴿ إن تنصروا الله ينصركم ﴾ سورة محمد : (٧)

وقال النبى ﷺ لابن عباس :

« احْفَظ اللهَ يَحفَظْك ... » ، (رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح) وفى رواية : « تعرّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة » .

وكل هذه الألفاظ متقاربة المعنى والغاية ، وتثبت ماقلناه من صحة المعنى ، ولا يترتب عليها ماحظ فى منع استعمال المعية ، والله تعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه

النوع الثالث : معية الناس لما حولهم من الأحياء والأشياء :

وهى تنقسم بحسب مراتبها وأطرافها إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : معية الناس لغيرهم من الخلائق .

وهى قليلة الورود فى القرآن الكريم بلفظ (مع) ومنها قوله تعالى :

﴿ وسخرنا مع داود الجبال يُسَبِّحْن والطير ﴾ .

سورة الأنبياء : (٧٩)

﴿ ياجبالُ أوِّبِى معه والطير ﴾ سورة سبأ : (١٠)

والمراد مصاحبتها له فى التسبيح ، والتعظيم لله تعالى ، وهذا على سبيل الحقيقة ولا وجه لحمله على المجاز بلا ضرورة ، لأنها (ذوات) مدرِكة .

ومن معية (**المعانى**) قوله تعالى :

﴿ قالوا طائركم معكم ﴾ سورة ياسين : (١٩)

والمراد بالطائر هنا : العمل ، أو سبب التَّطيّر وهو التشاؤم ، لأن الكفار تطيروا برسلهم ، فردّوا عليهم أن عملكم مصاحب لكم ، وهو سبب ما أنتم فيه من بلاء الدنيا ، وأصله أن الناس كانوا يعتقدون فى حركة الطير الحقيقى تفاؤلا أو تشاؤما ، ثم أطلق التطير على كل تشاؤم ولو من غير رؤية طَيْر أصلا .

القسم الثانى : معية الناس بعضهم لبعض .

وقد وردت فى القرآن الكريم بصيغ شتى . على سبيل المدح أو الذم ، وعلى طريق الإثبات أو النفى ، والأمر أو النهى ونحو ذلك .

ومن أمثلتها قوله تعالى فى المدح :

﴿ فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما ﴾ .

سورة النساء : (١٤٦)

وفى الذم يقص كلام المنافقين لأئمة النفاق وهم اليهود فيقول : **﴿ وإذا خلَوْا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم .. ﴾** سورة البقرة : (١٤)

ومن النهى قوله تعالى :

﴿ فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ﴾ .

سورة النساء : (١٤٠)

القسم الثالث : المعية بين الرسل والناس :

وهـــى وجهــــان :

الوجه الأول : معية الرسل للناس .

والأصل أن يكون الناس فى معية الرسل عليهم السلام ، لكن جاء القرآن الكريم بصيغ عديدة تجعل للرسل ضربا من المعية مع غيرهم من الناس ومن ذلك :

١ ـــ معية التربص والانتظار :

وتكون فى مواقف التحدى ، ومواطن الخلاف بين الأمم ورسلهم قال تعالى على لسان هود عليه السلام :

﴿ قال قد وقع عليكم مِنْ ربكم رِجْسٌ وغَضَب أتجادلوننى فى أسماءٍ سميتموها أنتم وآباؤكم مانَزَّلَ الله بها من سلطان فانتظروا إِنى معكم مِنَ المنتظرين ﴾ .

سورة الأعراف : (٧١)

وعلى لسان شعيب يقول تعالى :

﴿ ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يُخْزيه ومَنْ هو كاذب وارتقبوا إِنى معكم رقيب ﴾ .

سورة هود : (٩٣)

ويأمر الله تعالى (**محمدا**) ﷺ أن يقول لقومه :

﴿ قل هل تربصون بنا إِلاّ إِحْدى الحُسْنَيَيْنِ ونحن نتربَّص بكم أنْ يُصيبكم الله بعذاب مِنْ عِنْده أوْ بأيدينا فتربَّصوا إِنّا معكم متربِّصون ﴾ .

سورة التوبة : (٥٢)

والقرآن الكريم مستفيض بهذا النوع ، والمراد بالمعية فيه مطلق المشاركة

فى الفعل : (التربص ، أو الانتظار ، أو الارتقاب وكلها متقاربة) . والمعنى : انتظروا وأنا شريك لكم فى الانتظار حتى يفتح الله بين الحق والباطل .

٢ ــ معية الصبر والالتزام :

وتكون بحمل النفس على التزام جانب الضعفاء والمساكين من المؤمنين ، الذين جرت سنة الله تعالى بأن يكون عامة أتباع الرسل منهم ، وأن يكون نصر الله لدعوته على أيديهم .

ولذلك أمر الله الرسل أن يلزموا معية هؤلاء ، وألا تخدعهم وعود المستكبرين المترفين .

قال تعالى : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يَدْعون ربهم بالغداة والعَشِيِّ يريدون وجهه ولا تعدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع مَنْ أغفلنا قلبه عن ذِكْرِنا واتَّبع هواه وكان أمْرُه فُرُطا** ﴾ . سورة الكهف : (٢٨)

٣ ــ معية الصحبة والمخالطة :

كقول الخضر لموسى عليه السلام : ﴿ **إنك لن تستطيع معى صبرا** ﴾
سورة الكهف : (٦٧ ، ٧٢ ، ٧٥)

والنفى واقع على الاستطاعة لاعلى المعية ، لأن موسى صحب الخضر فعلا وخالطه ، ومشيا معا ليتعلم منه موسى عليه السلام ، ولما لم يصبر على مارأى من العجائب قال له العبد الصالح : (هذا فراق بينى وبينك) أى فراق المصاحبة والمخالطة .

٤ ــ المعية الممنوعة المحرمة :

ولا تقع إلا بصيغة النهى ، والمقصود بها مفارقة المبطلين ومفاصلتهم حتى يتميز المحق من المبطل ، والخبيث من الطيب .

قال تعالى : ﴿ **فلا تقعدْ بعد الذِّكْرَى مع القوم الظالمين** ﴾ .

قال تعالى : ﴿ **قل هلمّ شهداءكم الذين يشهدون أنّ الله حرَّم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم** ﴾ سورة الأنعام : (٦٨ ، ١٥٠)

والمراد النهى عن مشاركة الضالين ، أو الاجتماع بهم فى أحوالهم الباطلة ؛ بل ينبغى مهاجرتهم ، ومتاركة أماكن باطلهم ، وعدم إعطائهم كلمة يحتجون بها لباطلهم ؛ والمقصود تهييج نفس النبى ﷺ ليظل دائما متجدد النفور من الباطل وأهله ، لأن ذلك المنهى عنه قد وقع منه عليه السلام[1] .

الوجه الثانى : معية الناس للرسل عليهم السلام .

وهى على ضربيـــن :

الضرب الأول : معية فى غير أمور الدين .

قال تعالى عن يوسف عليه السلام :

﴿ **ودخل معه السجن فَتَيَانِ** ﴾ سورة يوسف : (٣٦)

أى شاركاه فى زمان الدخول أو مكانه ، لأنهما كانا من أصحابه وأتباعه .

وقال تعالى : عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام :

﴿ **فلما بَلَغ معه السَّعْىَ** ﴾ سورة الصافات : (١٠٢)

أى بلغ إسماعيل السعى مع أبيه ، وهو المشى معه إلى الجبل كما قال ابن عباس رضى الله عنهما ، أو بلغ أن يتصرف مع أبيه ، ويعينه فى عمله[2] .

ولم يكن إسماعيل نبيا حينئذ كما هو معلوم .

الضرب الثانى : المعية الدينية :

وهى التى تكون فى شأن الرسالة والدين ، والتى قامت عليها دعوة الرسل أجمعين ، وكانت طريقهم المتفرد لتحقيق الحق فى أرض الله ، وإقامة حكمه بين عباده ، ومقارعة الجاهليات وطواغيتها العتاة .

فالمراد بالمعية هنا :

إيمان الناس بالرسل عليهم السلام ، وصحبتهم لهم ، وانقيادهم لأمرهم .

---

(١) الراجح أن الخطاب للنبى ﷺ فى الآيتين ، وهو من باب التهييج والإلهاب أو تعليم لأمته .. كما يقول المفسرون .

(٢) انظر تفسير الخازن والبغوى وغيرهما فى تفسير هذه الآية الكريمة ..

وقد استفاض القرآن العظيم استفاضة بالغة فى الحديث عن هذه « المعية » بيانا لحقائق الدين ، وتعليما للمؤمنين ، وإلزاما للعاملين المجاهدين ، وإرشادا لمن يبحث عن الطريق الأقوم لنصرة دين الله تعالى على نهج المرسلين ، وفق ماعلموه من الوحى الإلهى الحكيم .

وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل نوجزه فيما يأتى :

أولاً : الإسلام دين الله تعالى :

وقد شرعه تعالى للناس منذ خلقهم ، وحين علَّم آدم الأسماء كلها ، وأمره ونهاه بما يناسب حياته يومئذ .

ثم لما أهبط إلى الأرض زوده بمنهاج الهدى الإلهى ، وحذره من عواقب مخالفته فقال تعالى : ﴿ **قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عَدُوّ فإمّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّى هُدى فَمَن اتّبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضَنْكا ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾ .

سورة طه : (١٢٣ ، ١٢٤)

ثانياً : الجاهلية الطارئة :

ولما انتشرت ذرية آدم فى الأرض ، وتطاولت عليهم المدة ، أخذت المعاصى تزحف عليهم ، واختلفت عقائدهم وأخلاقهم ، وضلوا فى عباداتهم ومعاملاتهم التى جلاها لهم الوحى الإلهى ، وقد عبر القرآن عن هذا الضلال بكلمته الجامعة : (**الجاهلية**) وهى كل انحراف عن دين الله تعالى فى الأصول أو الفروع من الأفراد أو المجتمعات .

(فالجاهلية) إذن هى وضع طارىء على الأصل السابق عليها وهو (**الإسلام**) . والجاهلية هى وضع معتدٍ ، جائر ، مصادم للحق الأصيل الذى نزل به الوحى الإلهى من قديم .

ثالثا : رسالات الله تعالى :

وحين تبلغ الجاهلية مداها ، وتنحى الإسلام ، وتحل مكانه فى عامة شئون الحياة ، حينئذ يتدارك الله تعالى عباده برحمته ، فيرسل لهم رسولا

هاديا ، يدعو الناس إلى **التوحيد** ، وإسلام الوجه لله رب العالمين ، ونبذ ماهم عليه من أباطيل الجاهلية ، والكفر بطواغيتها ، الذين يشرعون للناس مالم يأذن به الله .

رابعاً : الصراع بين الحق والباطل :

ولقد كان هؤلاء يقفون فى وجه رسالات الله تعالى حَجَر عَثْرة ، ويؤلّبون الناس عليها ويصدون عن سبيل الله بكل سبيل ، ويتذرعون بشتى الحيل ، والحجج الباطله ، ليدحضوا بها الحق . وكان المال ، والسلطان ، وقيادة الناس ، ومصالحهم ، بأيدى هؤلاء الطواغيت الذين يقومون على **تجمّع وترابط مّا ، ابتداء من القبيلة ، وانتهاء إلى الدول المنظمة ، والممالك الواسعة ، ذات الحكومات والجيوش ، والشرط والأعوان ... إلخ .**

وكان على رسل الله عليهم السلام أن يقفوا أمام هذا كله ، وأن يبلغوا رسالات ربهم ، وأن يعملوا عملا دائبا لردّ الناس إلى دين الله تعالى ، عبر صراع طويل ومرير مع طواغيت الجاهلية ، وسادتها وكبرائها ، أو « أكابر مجرميها » كما وصفهم القرآن الكريم (الآية ١٢٣ من سورة الأنعام) .

خامسا : الأمة الجديدة :

ومن هنا اتجه الرسل عليهم السلام إلى **تكوين أمّة جديدة** فى قلب مجتمعات الجاهلية ، تَكُون تحت قيادة رسولها ، أمّة واحدة من دون الناس ، متميزة بدينها ، وولائها ، ومعيتها ، حتى يفتح الله بينهم وبين الجاهلية بالحق ، فيعود الإسلام جديدا كما بدأ أول مرة ، بعد أن كان غريبا مطاردا من الجاهلية الجهلاء وطواغيتها المترفين المفسدين .

ولذلك لم يقتصر الرسل عليهم السلام على دعوة الناس إلى الإيمان بهم فقط ، وإنما سلكوهم معاً فى أمة واحدة ، وجعلوهم فى معيتهم ، وطالبوهم بالانقياد التام لما جاءوا به من عند الله ، من خلال وجودهم فى هذه الأمة الجديدة .

سادساً : صيغ جامعـــة :

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه العلاقة المترابطة بين المؤمنين ورساهم

بصيغ كثيرة مثل : **الطاعة ، والاستجابة ، والنصرة .**

ومن أجمع هذه الصيغ ماجعلناه عنوانا لهذا الموضوع أعنى صيغة : (**المعية**) وصيغة : (**التبعية**) كما سنبينها فى موضعها إن شاء الله تعالى ..

سابعاً : تفصيل القرآن لهذه المعية :

يورد القرآن العظيم لفظ (**مع**) بيانا لعلاقة المؤمنين برسلهم فى مختلف العصور الجاهلية ، والتى تتطلب (**أمة جديدة**) من المؤمنين ، يناط بها مسئولية الجهاد الدائب لإقامة حكم الله فى الأرض ، وتنحية الجاهلية من الهيمنة على شئون الحياة ؛ أو بعبارة أدق لإعادة الناس إلى الإسلام دينهم الأصلى الذى خلقوا عليه ، ثم طمرته الأهواء والشهوات والضلالات .

وإيراد (المعية) بلفظها أو بمعناها فى العديد من قصص الرسل تعنى : تقرير أصل جامع فى دعوة الإسلام وهو : وجوب إقامة هذه الأمة المترابطة ، التى يتحقق من خلالها إقامة دين الله ، فى أرض الله .

ذلك لأن العلاقة بين المؤمنين ورسلهم لم تكن مجرد رابطة الإيمان بدين واحد فقط ، وإنما هى تجمع مترابط الأصول والفروع ، والرأس والأعضاء ، يُشدّ بعضه إلى بعض برباط **الإيمان أولاً** ، ثم **المعية والصحبة المستقرة** ثانيا ، مع مايعنيه ذلك من انقياد وولاء ، وتوحد فى الوجهة والسلوك ، والمواقف ، والعمل لنصرة دين الله ، وتنحية الجاهلية عن السيطرة والاستعلاء ، ثم الاستمرار على ذلك حتى يأتى وعد الله الحق ، أو يموت الرسول والمؤمنون وهم على محجّة الطريق ، ونور اليقين .

وحين نتابع الآيات الكريمة التى قررت المعية مع الرسل عليهم السلام نجد أننا أمام موقف محدد ، ومتحد ، ومتكرر مع الرسل عليهم السلام ويتلخص فى أن المؤمنين :

(١) أمة جديدة مترابطة .
(٢) تتبع قائدا وإماما .
(٣) ويحكمها منهاج ربانى مبين (بمقاصده ووسائله) .

والآيات الكريمة تتحدث عن هذه المعية بطريقين :

الأول : الطريق الإجمالي :

وهو الذى تذكر فيه (المعية) بلا تحديد لاسم نبى بعينه ، فتعطى معنى العموم أو القاعدة المطردة مع الجميع ، لأن ذلك خطة الرسل طوال التاريخ .

قال تعالى : ﴿ **وكأيِّن مِنْ نبى قاتل معه رِبّيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضَعُفوا وما استكانوا** ﴾ .

سورة آل عمران : (١٤٦)

والمعنى : كم من نبى — أى كثير من الأنبياء — قاتل معه جموع كثيرة فصبرت على ماأصابها فى سبيل الله تعالى ، وثبتوا على ذلك .

فالآية الكريمة تثبت (**معية**) المؤمنين لأنبيائهم ليس فى **الصحبة العامة** فقط ، وإنما فى أبلغ شعبها ، **وهو الجهاد** تحت قيادتهم ، والصبر والثبات على ذلك بلا ضعف ولا استكانة .

وذكر الكثير من الأنبياء هنا لايعنى استثناء غيرهم من حكم المعية ، لأن المراد هنا معية الجهاد والقتال ، وليس كل نبى توفرت له الجماعة التى يقاتل بها أعداء الله ، وليس كل نبى أمر بالقتال كعيسى عليه السلام الذى رفع قبل التمكين .. إلخ .

وقال تعالى : ﴿ **أمْ حسِبْتم أنْ تَدْخُلوا الجَنّة ولمّا يأتكم مَثَلُ الذين خَلَوْا مِنْ قَبْلكم مستهم البأساء والضراء وزُلْزِلوا حتى يقولَ الرسولُ والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ ألَا إنّ نَصْرَ الله قريب** ﴾ .

سورة البقرة : (٢١٤)

فالآية الكريمة تصف أتباع الرسول — أىّ رسول — (**بالإيمان ، والمعية**) أى (آمنوا معه) ، وهى معية قامت وسط المحن والشدائد المتطاولة ، ولم يرخص القرآن للمؤمنين فى تركها أو تأجيلها ، وإنما اعتبر (**المعية**) **سنّة الله الماضية المطردة** ، ولذلك دعا أصحاب محمد ﷺ إلى مثلها ، وحثهم على الثبات فى (معية) نبيه ﷺ ، مقررا أنهم سيصيبهم فى هذه المعية ماأصاب إخوانهم المؤمنين من قبل .

وقال تعالى : ﴿ **ويوم يَعَضّ الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا** ﴾ سورة الفرقان : (٢٧)

والمعنى : أن كل ظالم سيعض على يديه من شدة الندم يوم القيامة ، لأنه فرّط فى (معية) الرسول[١] . وهذه المعية حقيقة مقررة حتى لدى الكفار لكثرة مادعاهم الرسل إليها ، ولأنهم رأوها تطبيقا واقعا فى « **جماعة** » المؤمنين الذين عاصروهم ، وشهدوا أحوالهم (مع) الرسول فى زمانهم .

الثانى الطريق التفصيلى :

وهو الذى يتتبع القرآن الكريم فيه النبى باسمه ، ويسجل (معية) المؤمنين له من خلال ذكر قصته مع قومه ، أو من خلال حديثه عنه بوجه ما ، وهذه أمثلة قرآنية متتابعة :

(١) معية نوح عليه السلام :

يكثر القرآن الكريم من ذكر معية المؤمنين لنوح عليه السلام ، وفى هذا تقرير بليغ بأن **قيام الجماعة المؤمنة هو أصل قديم فى دعوة الأنبياء** عليهم السلام ، لأن نوحا هو أول رسول إلى أهل الأرض (كما ثبت فى الصحيح من حديث الشفاعة العظمى)[٢] .

قال تعالى : ﴿ **وما آمن معه إلاّ قليل** ﴾ سورة هود : (٤٠)

والآية الكريمة تثبت لأتباعه أمرين متلازمين شرعا هما :

(الإيمان) . (والمعية)[٣] .

---

(١) ألفاظ الآية الكريمة عامة ، والمراد (بالرسول) الجنس العام ، وحتى لو أريد بالرسول محمد ﷺ ، فالعبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب الذى قيل أن الآية نزلت عليه وهو قصة عقبة بن أبى معيط .. إلخ ، والراجح العموم ويدخل فيه محمد ﷺ دخولا أوليا ..

(٢) صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٠٦ (كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى ﴿ إنا أرسلنا نوحا إلى قومه ... ﴾) .

(٣) التلازم بينهما حكم شرعى ، وإلا فيمكن انفكاك الأمرين واقعا ، فيؤمنون به من غير معية له ، ولذلك نص القرآن الكريم على الأمرين جميعا ، أو ينص على المعية فقط لأنها تستلزم سبق الإيمان عليها ، خاصة فى أوقات المحن التى لايتصور معها نفاق والله أعلم ..

ولذلك لما اشتد الأمر وتطاول الكفر ، دعا نوح ربه لنجاته هو ومن اتصف بالأمرين جميعا :

﴿ قال رب إنَّ قومى كذبون * فافتح بينى وبينهم فتحا ونجّنى ومَنْ مَعِىَ مِنَ المؤمنين ﴾ الشعراء : (١١٧ ، ١١٨)

بل لما كانت (المعية) هنا تدل على الصحبة والإيمان السابق عليها ؛ جعلها الله سبحانه وتعالى سببا فى النجاة من الطوفان الرهيب واقتصر على ذكرها :

﴿ فإذا اسْتَوَيْتَ أنت ومَنْ معك على الفُلْك فقل الحمد لله الذى نجّانا من القوم الظالمين ﴾ سورة المؤمنون : (٢٨)

﴿ فأنجيناه ومَنْ معه فى الفلك المشحون ﴾ .

سورة الشعراء : (١١٩)

لقد كان نوح عليه السلام يصارع طواغيت الجاهلية فى قومه ، لذلك كان لابد أن يتميز كل من آمن به عن (معية) الكفار بالدخول فى (معية) نوح عليه السلام ، فلم يستحقوا النجاة بسبب إيمانهم فقط ، وإنما به وبمعيتهم لنبيهم عليه السلام فى **جماعة واحدة** ، متميزة منفصلة ، يمكن أن تجمع على هيئة مستقلة عن قومها ، فتكون (معه) فى الفلك ، كما كانت (معه) فى الصراع الرهيب بين الحق والباطل .

وهذا المعنى قد قرره نوح عليه السلام صراحة لابنه حين فار الطوفان بموج كالجبال : **﴿ ونادى نوح ابنه وكان فى مَعْزِل يابُنَىّ اركب مّعَنا ولا تكن مع الكافرين ﴾** سورة هود : (٤٢)

فها هنا جماعتان متمايزتان تماما :

أ ــ نوح والمؤمنون معه : (اركب معنا) .
ب ــ طواغيت الجاهلية وأتباعهم : (مع الكافرين) .

وقد هلك ابنه مع الهالكين لأنه رفض (معية) المؤمنين وإمامهم نوح عليه السلام (على القول بأن الولد كان مسلما) وهو مارجحه المحققون والله أعلم،

أو هلك لرفضه الأمرين جميعا (على القول بكفره) .

٢ ـــ معية هود عليه السلام :

وقد جعل الله قومه خلفاء من بعد قوم نوح ، وأمدهم بالقوة البدنية ، والوفرة المادية ، ولكنهم كفروا فجاء هود عليه السلام لنفس المهمة : أى ليعيد الناس إلى الإسلام ، وينحى الجاهلية عنهم .

لذلك كانت (معية) المؤمنين له فريضة ، وضرورة قال تعالى :

﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾ .

سورة هود : (٥٨)

فالذين أنجاهم الله تعالى كانوا متصفين بالأمرين جميعا :

(الإيمان ، والمعية) .

وقال تعالى : **﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا ﴾ .**

سورة الأعراف : (٧٢)

وكما قلنا من قبل : إن إثبات المعية يدل على إثبات الإيمان ، لأنه فى عهود التأسيس والاضطهاد لاتكون معية مع الرسول إلا بعد إيمان راسخ مكين ، إذ لايتصور نفاق فى هذه المراحل الغاصة بالأذى والفتنة .

٣ ـــ معية صالح عليه السلام :

وقومه خلفاء من بعد عاد قوم هود ، وقد سار على سنة الأنبياء المتكررة فى طلب (**الإيمان ، والمعية**) أو إقامة الأمة الجديدة ، والتى يقول فيها القرآن متحدثا عن النتائج الدالة على مقدماتها :

﴿ فلما جاء أمرنا نجّينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾ .

سورة هود : (٦٦)

بل كانت هذه المعية واضحة لقومه الكفار تماما حتى قالوا له :

﴿ .. اطّيّرنا بك وبمن معك ﴾ سورة النمل : (٤٧)

٤ ـــ معية شعيب عليه السلام :

وعلى هذه الطريقة سار شعيب عليه السلام مع أهل مدين ، لأنها طريقة الأنبياء جميعا ، رغم اختلاف الأزمنة والأمكنة .

ولقد انقسم قومه كشأن الأمم جميعا ، وكان واضحا لديهم مايدعو إليه شعيب عليه السلام ، وما يفعله من إنشاء أمة جديدة بين أظهرهم ، حتى قالوا له ماقصه القرآن الكريم :

﴿ قال الملأ الذين استكبروا مِنْ قومه لنخرجّنك ياشعيب والذين آمنوا معك مِنْ قريتنا أو لتعودُن فى ملتنا ... ﴾ .

سورة الأعراف : (٨٨)

فالمستكبرون من زعماء (مدين) يهددون شعيبا بالنفى هو وجماعته ، وقد وصفوا هذه الجماعة بوصفها الجامع : « **الإيمان ، والمعية** » وجعلوا غاية هذا الصراع والوعيد : أن يعود شعيب وجماعته إلى ملة الكفر بعد إذ نجاهم الله منها .

٥ ـــ معية إبراهيم عليه السلام :

وهو ثانى أولى العزم من الرسل عليهم جميعا السلام ، وقد بعث أيضا فى جاهلية مطبقة ، وكان لابد من صراع وصدام ، وبالتالى لابد من أمة جديدة تكون (مع) رسولها بإيمانها ، وولائها ، وصحبتها ، وعملها ومصادمتها للكفار ، وتميزها عنهم .

وهذا ماسجله القرآن الكريم بأبلغ بيان ، وجعله نموذجا ، وأسوة للمؤمنين إلى يوم القيامة قال تعالى :

﴿ قد كانت لكم أُسْوة حَسَنة فى إبراهيم والذين معه إذْ قالوا لقومهم إنَّا برءاء منكم وَمِمَّا تعبدون مِنْ دون الله كَفَرْنا بكم وَبَدَا بيننا وبينكم العداوة والبغضاءُ أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ... ﴾ .

سورة الممتحنة : (٤)

والآية الكريمة تثبت (المعية) لإبراهيم عليه السلام ، المستلزمة حصول

الإيمان قبلها حتما ، والذى تجلّى عملا وتطبيقا فى مصادمة الكفر وأهله .

وبذلك تثبت الآية الكريمة أمرا ثالثا لهذه الجماعة الجديدة بعد الإيمان والصحبة هو : (**البراءة**) من الكفار ولو كانوا قومهم ، والبراءة من كل شرك ولو كان صميم العقائد فى مجتمعهم ، وترك المداهنة أو المجاملة إذا تعلق الأمر بالدين والاعتقاد ، إذ لابد من المصارحة ولو أدّت إلى العداوة بينهم وبين قومهم .

ولأمر حكيم صُدّرت الآية بندب المؤمنين إلى التأسى بهذه الصفات ، التى لابد منها فى مقارعة الجاهليات ، ثم كرر القرآن لفت أنظار المؤمنين إلى هذه الأسوة العظيمة بعد آية واحدة فقال : ﴿ **لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر ومن يتوَلّ فإنّ الله هو الغنى الحميد** ﴾ .
سورة الممتحنة : (٦)

٦ ـــ معية موسى وهارون عليهما السلام :

وموسى هو ثالث أولى العزم من الرسل ، وقد كرر القرآن الكريم ذكر (المعية) له ولأخيه هارون فى مواطن عديدة :

فمنذ بداية الوحى جاء الأمر بهذه المعية من الله تعالى :

﴿ **فَأْتِيَا فرعونَ فقولا إنَّا رسولُ رب العالمين * أنْ أرْسِلْ معنا بنى إسرائيل** ﴾ . سورة الشعراء : (١٦ ، ١٧)

﴿ **فَأْتِيَاه فقولا إنّا رسولا ربّك فَأَرْسِلْ معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك ...** ﴾ سورة طه : (٤٧)

ولذلك كانت هذه (المعية فى صدر مطالب موسى عليه السلام من فرعون : ﴿ **حقيق عَلَى ألاَّ أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معىَ بنى اسرائيل** ﴾ سورة الأعراف : (١٠٥)

فالإرسال مقيد (بالمعية) فى الآيات جميعا ، وليس مجرد إرسال مطلق يتحرر به بنو إسرائيل من بطش فرعون فقط ، وإنما هو دخول فى (معية) الجماعة المسلمة الجديدة ، التى تتميز بها عن (معية) فرعون وقومه .

وقد دخل بنو إسرائيل فى (معية) موسى وأخيه فعلا ، وأصبح هذا واضحا فى نظرة الكفار لهم .

﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واسْتَحْيُوا نساءهم ﴾ سورة غافر : (٤٠)

فوصفوهم (**بالإيمان ، والمعية**)معا .

٧ ــ معية داود وسليمان عليهما السلام :

كان داود وسليمان ملكين على بنى إسرائيل مع النبوة ، فلم تكن (معية) الناس لهم محل منازعة ومصادمة ، ولم يكونا بحاجة إلى دعوة الناس إلى (معيتهم) بالمعنى الذى ذكرناه سابقا .

ولذلك لم يرد فى القرآن الكريم ذكر المعية لهما ، لتقررها لهما فعلا بسبب الملك والسلطان اللذين منحهما الله تعالى .

ولكن أورد القرآن الكريم ، ذكر (المعية) لهما فى المواطن التى تقتضى ذلك ، والتى يظن امتناعها عن معيتهما .

فالجبال والطير مما يمتنع فى العادة أن تكون فى معية أحدٍمًا ، وقد أثبت الله تعالى معيتهما لداود عليه السلام **﴿ ياجبالُ أوّبى معه والطير ﴾** .
سورة سبأ : (١٠)

وملكة (سبأ) كانت ذات قوة وجيش ، وملك عريض ، وبأس شديد ، ودولة وافرة الغنى والسلطان ، وهى وقومها كفار يعبدون الشمس ، فكانوا مظنّة امتناعهم عن معية سليمان عليه السلام حين دعاهم إلى الإسلام ، ولكن القرآن الكريم يثبت له هذه المعية على لسان الملكة نفسها حين قالت :

﴿ ربِّ إِنّى ظلمتُ نفسى وأسْلَمْت مع سليمانِللهِ رب العالمين ﴾ .
سورة النمل : (٤٤)

٨ ــ معية عيسى عليه السلام :

كان عليه السلام مبعوثا إلى قومه من بنى إسرائيل ، مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وداعيا إلى الالتزام بأحكام دين موسى عليه السلام بعد ماحرفه بنو إسرائيل .

فلم يكن عليه السلام داعيا إلى إنشاء الإسلام فى أمته كشأن نوح ، وإبراهيم ، وشعيب مثلا ، وإنما كان مصححا لما حرف وبدل من دين الإسلام الذى جاء به موسى عليه السلام .

ولعله لذلك — والله أعلم — لم يرد فى القرآن ذكر المعية معه إلا على لسان الحواريين حين قالوا :

﴿ ربنا آمنَّا بما أنزلت واتَّبَعْنا الرسولَ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ .

سورة آل عمران : (٥٣)

فهم يعلنون **إيمانهم** ، **وتبعيتهم**[١] لعيسى عليه السلام ، ويسألون الله أن يكتبهم فى (**معية**) من يشهد بصدق عيسى ، أو فاكتبنا فى معية الأنبياء ، وتدخل معيتهم لعيسى عليه السلام دخولا أوليا . وفى كلٍّ دليل على حصول (المعية) له عليه السلام من بعض قومه ، حين كذبه وكفر به الباقون ، فصاروا بذلك كأهل الجاهليات السابقة مع أنبيائهم عليهم السلام .

٩ — معية محمد ﷺ :

وقد جاء ذكرها فى القرآن الكريم على غاية التأصيل والتفصيل ، والتأكيد والشمول ، لأن القرآن نزل مؤيدا له ، ومعجزة دالة على صدق رسالته للناس ، ولأن المقصود هداية الناس على يديه ﷺ ، وما ذكرت معية السابقين إلاّ توسلا لإقامة الحجة على المعاصرين له ﷺ ، ثم من بعدهم إلى يوم القيامة ، باعتباره خاتم النبيين وقدوة العاملين ، والقرآن أحفظ سجل لها ، وأنقى وأبقى وعاء يضمها ، ويجليها لطلاب الحق والهدى .

والآيات الكريمة تسجل له نوعين من المعية :

النوع الأول : المعية المطلقة :

وهى التى تكون فى أمور الدين والرسالة جملة ، حيث بعث عليه السلام فى أعتى الجاهليات ، وظل يجمع المؤمنين فى (معيته) عليه السلام سنين

(١) سيأتى — إن شاء الله — بيان أن « التبعية » أبلغ من « المعية » فى الدلالة على الانقياد ، فإثباتها لعيسى عليه السلام إثبات للمعية من باب أولى ، كما أن إثبات « المعية » هو دلالة على إثبات « الإيمان » على ما بينا مرارا ، والله أعلم .

متطاولة ، وألف منهم أمة جديدة متميزة عن الجاهلية من حولهم فى عقائدها ، وأخلاقها ، وولائها ، وقيادتها فى العهدين المكى والمدنى جميعا ، حتى جاء وعد الله الحق ، وقوض به وبمن معه من المؤمنين قواعد الجاهلية .

ومن هذا النوع قوله تعالى :

﴿ **أم اتخذوا من دونه آلهة ؟ قُلْ هاتوا برهانكم ، هذا ذِكْر مَنْ مَعِىَ وذكر من قبلى** ﴾ سورة الأنبياء : (٢٤)

والمراد استنكار اتخاذهم آلهة مع الله تعالى لايملكون برهانا عليها ، فأمر ﷺ أن يقول : هذا القرآن الذى هو ذِكْر أمتى ، وهذه الكتب التى كانت ذكرا لمن قبلى ، كلها منكرة لاتخاذ آلهة مع الله تعالى ؛ وموضع الاستدلال هنا قوله (من معى) فهوا اثبات (معية) المؤمنين له عليه السلام .

وهو نفس المعنى الذى أمره الله تعالى أن يقوله فى مقام محاجة المشركين :

﴿ **قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومَنْ مَعِىَ أوْ رَحِمَنَا فمنْ يُجِير الكافرين من عذاب أليم ؟** ﴾ سورة الملك : (٢٨)

ويقول تعالى : ﴿ **لكنِ الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم** ﴾ سورة التوبة : (٨٨)

ويقول تعالى : ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم** ﴾ سورة الفتح : (٢٩)

ومن أجمع الآيات فى هذا الباب قوله تعالى :

﴿ **فاستقم كما أُمِرْتَ ومن تاب معك** ﴾ سورة هود : (١١٢)

وسنعود إن شاء الله إلى تفصيل عناصر هذه الآية الجامعة : (ص ١٧٤)

ومن العجيب أن هذه المعية كانت مقررة واضحة لدى الكفار أنفسهم حتى قالوا للنبى ﷺ : ﴿ **إنْ نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا** ﴾ .
سورة القصص : (٥٧)

النوع الثانى : المعية الخاصة :

وهى معية المؤمنين له ﷺ فى أمر مخصوص من أمور الدعوة والرسالة ، أو فى حكم بعينه من أحكام الشريعة ، أو فى أمر جامع من أمور الحياة والدين .

وفى هذا وأمثاله نزلت آيات كثيرة تتحدث عن معية المؤمنين للنبى ﷺ ، وتثنى على المؤمنين بسببها ، أو ترشدهم إلى آداب هذه المعية العالية ، أو تبشرهم بما ينتظرهم من ثواب الله عليها ، ونحو ذلك مما فصله القرآن الكريم عن المعية المحمدية التى كانت يومئذ واقعا معاشا يدعى إليه الناس ، وتوضح معالمه للمؤمنين تعليما وتأديبا ، ويجرد من شرفه المنافقون زجرا وتأنيبا .

ثم ينصب هذا كله للمؤمنين إلى يوم القيامة أسوة حسنة ، أو عبرة رادعة .

ومن هذا النوع قوله تعالى فى معية الجهاد بذاته :

﴿ وإذا أُنزلت سورة أنْ آمِنُوا بالله وجَاهِدُوا مع رسوله اسْتَأْذَنَك أولو الطَّوْل منهم وقالوا ذَرْنا نكن مع القاعدين ﴾ .

سورة التوبة : (٨٦)

فالمقصود هنا معية الجهاد ، وهى فرع الإيمان ، وفرع المعية العامة المطلقة . وقال تعالى فى معية الهجرة :

﴿ وبناتِ خالاتِك اللاتى هاجَرْنَ معك ﴾ الأحزاب : (٥٠)

وقال عز شأنه فى معية الصلاة : **﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك ..﴾** سورة النساء : (١٠٢)

والآية الكريمة نزلت لبيان صلاة الخوف ، فالمعية فى خصوص حكم هذه الصلاة ، وهى أيضا فرع الإيمان ، والمعية العامة .

ومن أجمع الآيات فى هذه المعية الخاصة قوله تعالى :

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع

لم يذهبوا حتى يستأذنوه إنّ الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذَنْ لِمَنْ شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم ﴾ سورة النور : (٦٢)

والمراد هنا : تعليم المؤمنين آداب (المعية) لرسولهم وقائدهم ﷺ فى شئونهم الهامة،وهو تعليم وتأديب للمؤمنين جميعا فى معيتهم لأئمة الخير منهم .

قال الإمام البغوى رحمه الله :

« (وإذا كانوا معه) أى مع رسول الله ﷺ (على أمر جامع) يجمعهم من حرب حضرت ، أو صلاة ، أو جمعة ، أو عيد ، أو جماعة ، أو تشاور فى أمر نزل (لم يذهبوا) لم يتفرقوا عنه ، ولم ينصرفوا عما اجتمعوا له من الأمر ، (حتى يستأذنوه) قال المفسرون : كان رسول الله ﷺ إذا صعد المنبر يوم الجمعة وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عذر لم يخرج حتى يقوم بحيال رسول الله ﷺ حيث يراه فيعرف أنه إنما قام يستأذن فيأذن لمن شاء منهم ، قال مجاهد : وإذْن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده ، قال أهل العلم : وكذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لايخالفونه ولا يرجعون عنه إلاّ بالإذن »[1] .

وقال الخازن رحمه الله متمما هذا الكلام :

« ... (واستغفر لهم الله) أى إنْ رأيت لهم عذرا فى الخروج عن الجماعة» .. لذلك لما تلاعب المنافقون بحقوق هذه المعية وآدابها ، وتثاقلوا عن الخروج معه لقتال الروم فى غزوة تبوك ، وانتحلوا أعذارا كاذبة ، لما فعلوا ذلك جردهم القرآن شرف هذه (المعية) وأنزلهم منازل الدون التى اختاروها ؛ وألزمهم (المعية) التى ارتضوها هم لأنفسهم فقال تعالى :

فإن رَجَعَكَ الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فَقُلْ لن تَخْرُجوا مَعِىَ أبدا ، وَلن تقاتلوا مَعِىَ عدوا ، إنكم رَضِيتُم بالقعود أوّل مرّة فاقْعدوا مع الخالفين ﴾ سورة التوبة : (٨٣)

---

(١) انظر تفسير البغوى فى تفسير الآية الكريم جـ ٥ ص ٧٥ .

وهذه (المعية) المنفية على وجه التأييد والتأكيد هى معية الخروج للجهاد، والقتال فى صحبة رسول الله ﷺ، وهى (معية) خاصة كما هو واضح من النص، إذ ليس المراد نفى (المعية) العامة عن المنافقين، لأن النبى ﷺ كان يأخذ ظواهرهم، ويدع بواطنهم، ولا يجردهم من ظاهر الإسلام الذى ادعوه، وصاروا (معه) فيه ولو بألسنتهم، وإلا لم يقبل منهم إلا مايقبل من الكفار : الجزية أو القتال .

النتائـــج :

وإلى هنا يكون قد وضح لنا موقف القرآن الشامل من (المعية) بكل ألوانها وأبعادها؛ خاصة (معية) التكليف التى دُعى الناس إليها، وأمروا بها، وكانت خطة المرسلين فى كل العصور، والتى تتلخص نتائجها فيما يأتى :

أولاً : لم يأت الرسل عليهم السلام بدعوات مجردة، يلقونها فى الناس ثم يمضون إلى بيوتهم مطمئين، وكأنهم قد أدوا كل ماعليهم من أمر الرسالة، والدعوة، والبلاغ .

وإنما الذى يقرره القرآن العظيم أن الرسل عليهم السلام كانوا يجمعون الناس على أمرين : الإيمان، والمعية، ويجعلون من المؤمنين أمة واحدة، وجماعة جديدة، مترابطة الوجهة والحركة، ذات قيادة متميزة، وولاء متفرد، فى مقابل مجتمعات الجاهلية التى كان لها ترابط وقيادة . **ابتداء** من المجتمعات القبلية، القوية المنظمة، كعاد، وثمود، ومدين وقريش .

وانتهاء بالحكومات والممالك والدول الكبيرة مثل : **النمرود** وحكومته التى واجهها إبراهيم عليه السلام، ومثل : فرعون وهامان وقارون الذين واجههم موسى عليه السلام، بكل ماكانوا يمثلونه من استعلاء فى الأرض، وطغيان بالمال والسلطان .

ثانياً : هذه الجماعة المؤمنة الجديدة تكون (مع) الرسول من أول الدعوة بلا نظر إلى عددها ﴿ **وما آمن معه إلا قليل** ﴾[1]، وبلا انتظار لأمنها، أو تمكينها، لأنها تنشأ دائما فى مواطن المحن ﴿ **ولمّا يأتكم مَثَلُ الذين**

---

(١) سورة هود : ٤٠

خلَوْا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزُلْزِلوا حتى يقول الرسولُ والذين آمنوا معه مَتَى نصْر الله ﴾ (١) .

ولذلك كانت (المعية) التى قررها القرآن للرسل عليهم السلام هى معية لهم وهم فى طور التأسيس ، والخوف ، والأذى ، وأوضح مثال لذلك الآيات المكية التى تقرر (معية) المؤمنين لمحمد ﷺ رغم الفتنة ، والعذاب من طواغيب قريش .

ثالثاً : فصّل القرآن الكريم (معية) المؤمنين لمحمد ﷺ ، باعتباره خاتم الرسل حتى يكون تعليما للمؤمنين إلى يوم القيامة ، وإلزاما لهم بالسير على نهجه ونهج إخوانه المرسلين من قبله ، فى الدعوة ، والتجمع ، والترابط ، والتضام كلما استعلى الباطل فى أرض الله ، أو استعلن الضلال والإلحاد والفساد بين أهل الإسلام ، حتى يتمكن المؤمنون من إزاحة الجاهلية المظلمة .

رابعاً : مهمة هذه الأمة الجديدة هى مقارعة الجاهلية ، وإعادة الناس إلى الإسلام دينا وشرعة ، ومنهاجا .

وقد يأتى يوم تمكن فيه هذه الجماعة فتقيم دولة الإسلام كما حدث لمحمد والذين آمنوا معه ، وكما حدث لنوح ، وهود ، وصالح ، بعد إهلاك الله لكفارهم .

وقد ينتهى أجل الرسول ولم يمكن بعد لأصحابه فى الأرض ــ لحكمة يعلمها الله ــ وهذا يجعل الجماعة المؤمنة مسئولة عن متابعة طريقه ومنهجه ، ولا يحل لها أن ينفرط عقد تجمعها ، بل تعمل لإقامة الدين الحق ، أو تموت على نيتها الصالحة .

وقد قال الله تعالى للمسلمين يوم أن أشيع قتل رسول الله فى (أُحد) :

﴿ وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قُتِل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلبْ على عقبيه فلَنْ يضرّ الله شيئا ﴾ .
سورة آل عمران : (١٤٤)

---

(١) سورة البقرة : ٢١٤

ثم يقول تعالى بعدها بآية واحدة :

﴿ وكأيِّن مِنْ نبى قاتل معه رِبِّيُّون كثير فما وَهَنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضَعُفُوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴾ .

سورة آل عمران : (١٤٦)

وفى قراءة (قُتِل) معه ربيون كثير ، وقال المفسرون : (قتل) النبى وكثير من أصحابه فما وهن الباقون .

وقد وعى المسلمون هذا الدرس بعد وفاته ﷺ ، فتابعوا طريقه رغم الردة العارمة ، ووقوف المسلمين يومئذ : (كالشاة فى الليلة المطيرة) كما قال ابن مسعود رضى الله عنه .

خامساً : قد يأتى الرسول حاكما فى أمة مسلمة فتكون كلها هى معيته ، يطبق عليها شريعة الله تعالى كداود ، وسليمان عليهما السلام .

وعلى هذا النمط يكون خلفاء الرسل ، وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم أجمعين ، فقد كانوا خير خلف لرسول الله ﷺ ، وكانت معيتهم هى الأمة جميعا ، بعد أن ثاب الناس إلى الإسلام عقب فتنة الردة .

سادساً : قيام الجماعة المسلمة التى تسعى لإقامة دين الله فى الأرض هو فريضة لازمة ، وأصل التزمه الرسل المذكورون جميعا ، كما رأينا فى عهود التأسيس والتكوين ، ولم يكتفوا بالإيمان المجرد ، لأنه إيمان فردى ، أو سلبى منعزل ومغلوب على أمره من الكفار !

وقد سجل القرآن الكريم أن عامة أصحاب الرسل كانوا من الضعفاء[١] ، ولم يمنعهم ذلك من التجمع والترابط لإقامة الإسلام .

---

(١) يقول قوم نوح ﴿ وما نراك اتّبعك إلاّ الذين هم أراذلنا بادى الرأى ﴾ سورة هود : ٢٧
ويقول تعالى عن قوم صالح ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ﴾ الأعراف : ٧٥
وقال تعالى : ﴿ فما آمن لموسى إلاّ ذرية من قومه على خوف من فرعون ﴾ يونس : ٨٣
وقال تعالى لمحمد ﷺ ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ الكهف : ٢٨ .

ولذلك ندد القرآن بالذين يقبلون (الاستضعاف) فقال تعالى :

﴿ إن الذين تَوَفّاهم الملائكةُ ظالمى أنفسِهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألمْ تكن أرض الله واسعةً فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ﴾ .

ولم يعذر إلاّ ذَوِى العجز الحقيقى :

﴿ إلا المستضعفين من الرجال والنساء والوِلْدان لايستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلا * فأولئك عسى الله أنْ يَعْفُوَ عنهم ﴾ .

سورة النساء : (٩٧ ــ ٩٩)

اللهم أحينا فى معية المؤمنين الصادقين ، واحشرنا فى معية نبيك الكريم ﷺ **﴿ يوم لايخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتْمِمْ لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير ﴾** [١] .

* * *

---

(١) سورة التحريم : ٨

الموضوع الثالث

التبعية فى ضوء القرآن الكريم

المعنى اللغوى للتبعية .
ورودها فى القرآن الكريم .
موقف القرآن الكريم الشامل :

- التبعية المحمودة والمذمومة .
- أقسام كل منهما وفروعه .
- تبعية الرسل عليهم السلام بطريقيها : (الإجمالى والتفصيلى) .
- مثالان جامعان للمعية والتبعية لمحمد ﷺ
- الأصول الأربعة فى المثاليـــن : (المنهاج - الإمام - الجماعة - الطريقة المثلى) .

المعنى اللغــــوى :

التبعية مصدر صناعى من تبع ـــ بكسر الباء ـــ تَبَعًا ، قال صاحب القاموس المحيط رحمه الله : « تبعه : كفرح تَبَعاً وتباعه مشى خلفه ، ومرّ به فمضى معه ، وكفرحة ..»(1) .

ويقول الجوهرى رحمه الله : « والتبع يكون واحدا وجماعة وقال تعالى : ﴿ **إنّا كنّا لكم تَبَعاً** ﴾ . ويجمع على أتباع »(2) .

ويقول الراغب الأصفهانى رحمه الله :

« يقال تبعه واتبعه قفا أثره . وذلك تاره بالارتسام والائتمار ، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ **فمن تبع هداى فلا خوف عليهم** .. ﴾ ، ﴿ **قال ياقوم اتبعوا المرسلين** ﴾ .. وتبّع كانوا رؤساء ، سموا بذلك لاتباع بعضهم بعضا فى الرياسة والسياسة .. »(3) .

ورود (تبع) فى القرآن الكريم :

وقد ورد لفظ (التبع) وما تفرع منه فى القرآن الكريم (**مائة وثلاثا وسبعين مرة**) أغلبها فى التبعية بالمعنى الذى ذكرناه وهو : اقتفاء الأثر ، وانقياد الإنسان لغيره انقيادا تاما ، وقد جاءت فى القرآن بهذا المعنى نحو (**مائة وأربعين مرة**) ، والباقى فى مطلق الاقتفاء والإدراك .

أنواع التبعية فى القرآن الكريم :

وقد تحدث القرآن الكريم حديثا شاملا مستفيضا عن (**التبعية**) فى أحوالها المختلفة ، ومقاصدها المتعددة ، وبالنظر والتأمل فى آيات القرآن الكريم الواردة فى هذا يمكننا أن نقسم التبعية إلى نوعين جامعين :

---

(1) القاموس المحيط : جـ 3 ص 8 (باب العين فصل التاء) ومعنى كفرحة أى المصدر يأتى على وزنها أيضا فيقال : (تَبِعةً) .

(2) الصحاح جـ 3 ص 1190

(3) المفردات فى غريب القرآن مادة (تبع) ص 72 .

النوع الأول : التبعية المحمودة :

وهى التى يكون الاتباع فيها لأمر الله تعالى ، وكتبه ، ورسله ، والصالحين من عباده ولذلك أمر الله تعالى بها ، وحث عليها ، ومدح التابع والمتبوع من أهلها .

النوع الثانى : التبعية المذمومة :

وهى التى يكون الاتّباع فيها لغير الحق ، كاتّباع الهوى ، والشيطان ، ومناهج الجاهلية الضالة ؛ أو الشرائع التى ابتدعها طواغيتها ، أو تقاليد الآباء الضالين .. إلخ .

وهذا النوع قد ذمه القرآن ذما بالغا ، وحرمه تحريما ، وتناول أصحابه بالتهديد والتنديد فى كل موطن .

وقد جمع القرآن الكريم بين هذين النوعين فى آيات كثيرة منها قوله تعالى :

﴿ وإذا قيل لهم اتَّبِعوا ماأنزل الله قالوا بل نَتبع ماألفينا عليه آباءنا ﴾
سورة البقرة : (١٧٠)

﴿ اتَّبِعُواْ ماأنزل إليكم مِنْ ربكم ولا تَتَّبِعوا مِنْ دونه أولياء ﴾
سورة الأعراف : (٣)

﴿ ثُمّ جعلناك على شريعة مِنَ الأمر فاتَّبِعْها ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون ﴾ .
سورة الجاثية : (١٩)

﴿ ذلك بأنّ الذين كفروا اتّبعوا الباطل ، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ﴾ .
سورة محمد : (٣)

والقرآن قد تناول كلا منهما بالتفصيل والبيان الشامل على مانوجزه فيما يلى :

أولاً : موقف القرآن التفصيلى من التبعية المحمودة :

نوّع القرآن الكريم حديثه عن هذه التبعية ، وفصّل أنواعها ، وعدّد أساليبه فى طلبها والحث عليها بين : الأمر بها ، والثناء على أهلها ، وبيان تفردها بالحقية والصحة ونحو ذلك . وتنحصر هذه التبعية فى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : اتّباع الوحى الإلهى :

وهذا واجب على الناس جميعا ، وعلى **رأسهم الأنبياء** عليهم السلام ، لأنهم جميعا عبيد الله ، وأوْلاهم بالاتباع أعلمهم وأتقاهم .

وسواء كان هذا الاتباع لدين الله تعالى **جملة** كما قال تعالى : ﴿ **وأنّ هذا صراطى مستقيما فاتَّبِعُوه** ﴾ سورة الأنعام : (١٥٣)

﴿ **فمن اتَّبع هُدَاىَ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ .
سورة البقرة : (٣٨)

أو كان هذا الاتباع لشىء بعينه من وحى الله تعالى ، **كالكتب** التى أنزلها :

﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتّبعوه** ﴾ .
سورة الأنعام : (١٥٥)

أو بعض الأحكام : كعزائم الدين ، وفضائله العليا مثل العفو والإحسان قال تعالى : ﴿ **فبشر عِبَادِ * الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه** ﴾ .
سورة الزمر : (١٧ ، ١٨)

وقد قرر القرآن الكريم أن هذا الوحى الإلهى هو وحده الخليق بالاتباع ؛ لأنه هو وحده الحق،وماعداه باطل ، وهو وحده الهدى وماعداه ضلال وظنون .

وفى هذا يقول تعالى :

﴿ **قل هلْ مِن شركائكم مَنْ يَهْدِى إلى الحق * قل الله يَهْدِى للحق أفَمَنْ يَهْدِى إلى الحق أحق أنْ يُتَّبَعَ أمَّن لايهدِّى إلاَّ أنْ يُهْدَى فما لكم كيف**

تحكمون ؟ وما يتّبع أكثرهم إلاَّ ظنّا إنَّ الظنّ لايغنى من الحق شيئا إنّ الله عليم بما يفعلون ﴾ .

سورة يونس : (٣٥ ، ٣٦)

لذلك يعلن الرسل دائما عجزهم عن الإتيان بهذا الحق من عند أنفسهم ، وينسبونه صراحة إلى مصدره الأعلى ، ويقررون تبعيتهم له قبل غيرهم .

قال تعالى : **﴿ قل مايكون لى أنْ أبدّله مِن تلقاء نفسى إنْ اتّبع إلاّ مايوحى إلىّ إنّى أخاف إنْ عصيتُ ربى عذابَ يوم عظيم ﴾** .

سورة يونس : (١٥)

القسم الثانى : اتّباع الرسل عليهم السلام :

وهو اتّباع مطلق ، غير مشروط ولا محدود ، لأنهم كما قلنا متبعون لوحى الله ، ومبلغون عن الله تعالى ، وداعون إلى دينه القيم ، لاينطقون عن الهوى ، ولا يتقوّلون على الله أدنى الأقاويل .

وقد وضحنا فى (الْمَعِيّة) أنه لم يأت الرسل عليهم السلام إلا ليؤمن بهم الناس ، ثم يكونوا فى (معيتهم) . وإلا قامت عليهم الحجة ، وحقت عليهم كلمة العذاب .

ونقول هنا : إن هذه **المعية** لاتقبل إلا إذا كانت على وجه (التبعية) لهم ، والانقياد التام لأمرهم وحكمهم ، الذى هو فى الحقيقة أمر الله تعالى الحكيم ، وحكمه الكريم .

ذلك لأن (المعية) تعنى الاجتماع والمشاركة ، أو مطلق الصحبة . ولكنها لاتستلزم بذاتها التماثل أو التفاوت ، فقد يكون الصاحبان نِدّين ، أو متفاوتين ، وقد يتقدم أحدهما صاحبه فى أمر دون آخر وهكذا ..

ولكن (معية) الناس للرسل لاتحتمل التماثل ، أو سبق أحد لرسل الله تعالى ، لأنهم صفوته من خلقه ، وأمناؤه على وحيه ، والمبلغون عنه سبحانه وتعالى ، لذلك كان الرسل هم أئمة الناس ، والمقدمين عليهم وكل معية لهم هى معية التابع للمتبوع ، والمتأخر للمتقدم قال تعالى : **﴿ يأيها الذين آمنوا لاتقدّموا بين يَدَىِ الله ورسوله واتّقوا الله إنّ الله سميع عليم * يأيها الذين**

آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجَهْر بعضكم لبعض أنْ تَحْبَط أعمالُكُم وأنتم لاتشعرون ﴾ .

سورة الحجرات : (١ ، ٢)

ومن هنا : جاء القرآن العظيم بالمعنى الجامع — حين يصف علاقة المؤمنين بالرسل عليهم السلام — وهو : « **التبعية** » التى تدل على ثلاثة أمور :

(١) الإيمان الذى هو المدخل والأساس .

(٢) الصحبة (المعية) التى هى فريضة وضرورة كما بينا سابقا .

(٣) الانقياد التام فى هذه الصحبة ، حتى تكون معية مخصوصة ، بالغة غاية الطاعة ، والتوقير ، والاقتداء برسل الله تعالى .

ولذلك سجل القرآن الكريم هذه « التبعية » لرسل الله فى كل العصور والأقوام، وجعلها وصفا ثابتا للمؤمنين ، مع كل دعوة جاء بها رسول كريم .

طريقة القرآن فى تسجيل التبعية للرسل :

وقد سلك القرآن الكريم طريقين فى تسجيل هذه (التبعية) كما فعل فى تسجيل (المعية) على مابيناه من قبل[1] ..

الأول : الطريق الإجمالى العام :

حيث يذكر التبعية لرسل الله تعالى على سبيل العموم والاطلاق ، من غير تحديد لاسم الرسول ، فتعطى بذلك معنى **القاعدة المطردة** فى شأن الرسل جميعا ، من ذُكِر منهم ، ومن لم يذكر ، لأنهم جميعا ملّة واحدة ، وأمة واحدة ، وطريقة ثابتة عبر التاريخ كله ، فى وجوب التبعية والانقياد لهم عليهم وعلى نبينا أتم الصلاة والسلام .

ومن أمثلة هذا قوله تعالى :

﴿ وأنْذِر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخّرنا إلى أجَل قريب نُجِبْ دعوتك ونتّبع الرسل ﴾ . سورة إبراهيم : (٤٤)

---

(١) انظر صفحة ١٤٤ وما بعدها من هذا الكتاب ..

فالظالمون حين يرون عذاب القيامة يتمنون الرجوع إلى الدنيا ليجيبوا دعوة الله التى رفضوها ، ويحددون هذه الإجابة فى إطارها الوحيد المقبول وهو (اتّباع الرسل) ، لأنهم هم الدعاة إلى الله تعالى ، والمبلغون عنه رسالاته .

وقال تعالى :

﴿ ولو أنّا أهلكناهم بعذاب مِنْ قبله لقالوا ربّنا لَوْلاَ أرسلت إلينا رسولا فنتّبع آياتك من قبل أن نَذِل ونَخْزى .. ﴾ .

سورة طه : (١٣٤)

والمعنى : أن الله تعالى لو أهلك الناس قبل الرسل لاحتجوا يوم القيامة بأنهم لو أرسل الله تعالى إليهم رسولاً لاتبعوا آيات الله التى جاء بها .

وهكذا نرى التلازم بين تعاليم الله وبين الرسل عليهم السلام ، لأن حكمة الله تعالى اقتضت أن يبلغ تعاليمه للناس عن طريق الرسل ، فكل تبعية لهم هى فى الحقيقة تبعية لكلمات الله ، وكل تبعية لدعوة الله هى من البدء تبعية للرسل عليهم السلام ، لأنهم هم طريقها ومبلغوها للعالمين .

الثانى : الطريق التفصيلى :

وهو الذى تذكر فيه (التبعية) مقرونة باسم رسول بعينه ، فتكون نموذجا تطبيقيا للقاعدة العامة ، واثباتا متكررا لها من خلال قصص الأنبياء عليهم السلام ، وهو القصص الحق الذى نصبه الله تعالى قدوة للمؤمنين ، وزاجرا للظالمين .

وهذه طريقة قرآنية معجزة ، ولها أثر بالغ فى الدعوة والتربية ، لأنها تربط المبادىء العامة بتطبيقها العملى ، وتثبت معانيها بالقصص التاريخى الوثيق ، الذى ترادفت عليه كلمة الرسل ، دعوة وطريقة ومنهاجا ، وقد رأينا نماذج متكرره لذلك فى (**التوحيد**)[1] و (**المعية**)[2] وبذلك ترسخ المبادىء ، وتستقر فى النفوس والقلوب والعقول .

وهذه أمثلة تفصيلية متتابعة :

---

(١) انظر ص ١٠٧ من هذا الكتاب .

(٢) انظر ص ١٤٥ وما بعدها من هذا الكتاب .

١ ـــ تبعية نوح عليه السلام :

يثبت القرآن الكريم (التبعية) لنوح عليه السلام على لسان الكفار أنفسهم ، وهو تسجيل بأن الكفار كانوا يعلمون نوع العلاقة بين نوح والمؤمنين به ، وأنها علاقة انقياد وطاعة تامة ، ولذلك استكبر الكفار عنها ظلما وعلوّا بغير الحق ، وقد قال تعالى مسجلا هذه القاعدة من خلال ردهم على رسولهم الكريم :

﴿ وما نراك اتّبعك إلاّ الذين هم أراذلنا بادى الرأى ﴾ .

سورة هود : (٢٧)

﴿ قالوا أنؤمن لك واتّبعك الأرذلون ﴾ .

سورة الشعراء : (١١١)

ومن المقرر أن الانسان لايعيش فى فراغ ، فإذا لم يتّبع فى الحق فلابد أن يتبع فى الباطل ، وقد سجل نوح على قومه هذه التبعية الباطلة حين رفضوا اتّباعه فى الحق .

﴿ قال نوح رب إنهم عصونى واتّبعوا من لم يزده ماله وولده إلاّ خسارا ﴾ سورة نوح : (٢١)

٢ ـــ تبعية هود عليه السلام :

يقرر القرآن الكريم أن (عادا) قوم (هود) استحقوا العذاب لأنهم عصوا الله ورسله ، ورفضوا تبعية الحق على حين اتبعوا أمر الجبابرة المعاندين من زعمائهم قال تعالى :

﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴾ سورة هود : (٥٩)

٣ ـــ تبعية صالح عليه السلام :

قال تعالى : **﴿ كذبت ثمود بالنذر * فقالوا أبشراً منّا واحدا نتبعه إنّا إذاً لفى ضلال وسعر ﴾** سورة القمر : (٢٣ ، ٢٤)

فقوم صالح يستنكرون ويستكبرون أن يكونوا أتباعا لصالح عليه السلام ، وهذا تقرير لمعرفتهم هذه الحقيقة البدهية ، لأنها معنى الرسالة أوّلاً ، ولأن الرسل دعوا قومهم إليها صراحة ثانيا . ولم يكن فى هذا تفضيل ذاتى للرسل عليهم السلام ، وإنما يطالبون الناس بالتبعية باعتبارهم مبلغين عن الله تعالى وحيه ودينه ، كما بينا سابقا ، لذلك كانت ثمود مجادلة بالباطل حين زعمت أنه بشر مجرد ، وإنما هو بشر يوحى إليه من الله ، فالتبعية فى حقيقتها هى لله رب العالمين .

٤ ـــ تبعية شعيب عليه السلام :

قال تعالى : ﴿ **وقال الملأ الذى كفروا من قومه لئن اتَّبَعْتُم شعيبا إنّكم إذاً لخاسرون** ﴾ سورة الأعراف : (٩٠)

وهذا تسجيل أيضا بأن الكفار كانوا يعرفون نوع الإيمان المطلوب منهم ، وأنه يقتضى التبعية والانقياد فرفضوهما استكبارا وعنادا ، فى الوقت الذى يتبعون فيه أمر زعمائهم الضالين ، وهذه سمة متكررة فى أهل الجاهليات جميعا .

٥ ـــ تبعية إبراهيم عليه السلام :

وفى هذا المقام أيضا يمضى القرآن الكريم على طريقته فى تفصيل تبعية إبراهيم عليه السلام توصلا إلى إقامة الحجة على اليهود والنصارى ومشركى العرب ، كما قلنا سابقا[١] .

قال تعالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنىّ أنْ نعبد الأصنام * ربّ إنهن أضللن كثيرا من الناس فمَن تَبِعَنى فإنّه مِنى ومَنْ عصانى فإنك غفور رحيم** ﴾ سورة إبراهيم : (٣٥ ، ٣٦)

فهو عليه السلام يقسم الناس إلى فريقين :

أ ـــ من تبعه فهو منه ، وأولى الناس به ، وله ولايته ومحبته .

ب ـــ من عصاه فأمره إلى الله ، وهو سبحانه لايغفر أن يشرك به ويغفر

---

(١) انظر ص ١٠٧ وما بعدها . وصفحة ١٤٥ وما بعدها .

مادون ذلك لمن يشاء . إن إبراهيم عليه السلام هو رسول من عند الله ، وليس مجرد أبٍ لقبيل من الناس ، ولذلك فنسبه الحقيقى هو دينه ، وأولى الناس به فى الدنيا والآخرة هم الذين اتبعوه فى دينه وملته وفى ذلك يقول تعالى :

﴿ إنّ أولى الناس بإبراهيم لَلّذين اتّبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله وَلِىُّ المؤمنين ﴾ سورة آل عمران : (٦٨)

بل يقرر القرآن الكريم أمرا دقيقا وجديرا بغاية التأمل حين قص علينا أنه عليه السلام طالب أباه ذاته أن يتبعه فى دعوته :

﴿ ياأبَت إنّى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتّبعنى أهْدِك صراطا سويا ﴾ سورة مريم : (٤٣)

إن العادة الجارية أن يتبع الابن أباه ، ولكن الابن هنا هو الرسول ، والرسول ينبغى أن يطاع ويتبع بإطلاق ، لأنه يوحى إليه ؛ (**جاءنى من العلم مالم يأتك**) ، ولا كبير على أمر الله تعالى ، ولا هداية إلا عن طريقه سبحانه ، ولذلك كان الابن على غاية الحزم فى دعوته لأبيه : (**فاتبعنى أهدك صراطا سويا**) .

بل أراد القرآن العظيم أن يلزم الناس جميعا تبعية الحق الذى جاء به إبراهيم عليه السلام على لسان محمد ﷺ فواجههم بالأمر المباشر : **﴿ قل صدق الله فاتبعوا ملّة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾** .

سورة آل عمران : (٩٥)

بل أمر محمدا ﷺ باتباع ملة إبراهيم، مع أنه رسول يوحى إليه مثله، بل هو خاتم النبيين، وفى ذلك حجة على الناس أجمعين: **﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾** . سورة النحل : ١٢٣ .

٦ ــ تبعية موسى وهارون عليهما السلام :

يقرر الله تعالى التبعية لهما من أول الطريق فيقول : **﴿ بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾** سورة القصص : (٣٥)

ويندد أشد التنديد بمن رفض هذه التبعية الصحيحة ، ورضى بتبعية

الطغيان الباطل : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه فاتبعوا أمرفَرعون وما أمرُ فرعون برشيد ﴾ .

سورة هود : (٩٧)

وحين سقط بنو إسرائيل فى عبادة العجل طالبهم هارون بتبعيته فى الحق والتوحيد : ﴿ ولقد قال لهم هارون من قبل ياقوم إنّما فُتِنْتُم به وإنَّ ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى ﴾ سورة طه : (٩٠)

وحتى يتقرر أن تبعية الرسل إنما وجبت لهم باعتبارهم مبلغين عن الله تعالى ، لالذواتهم ، حتى يتقرر ذلك أمر الله تعالى رسوليه : موسى وهارون بالاستقامة على أمره ، ونهاهما عن اتباع سبيل غير سبيله سبحانه وتعالى فقال جل شأنه : ﴿ قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تَتَّبِعَانِّ سبيلَ الذين لايعلمون ﴾. سورة يونس : (٨٩)

٧ ــ تبعية عيسى عليه السلام :

يقرر القرآن الكريم تبعية أصحاب عيسى له على لسان الحواريين فيقول : ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت واتّبعنا الرسول ﴾ سورة آل عمران : (٥٣)

ويسجل القرآن الكريم وعد الله تعالى لأتباعه : ﴿ وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ .

سورة آل عمران : (٥٥)

ويسجل أيضا بعض نعم الله عليهم : ﴿ وجعلنا فى قلوب الذين اتّبعوه رأفة ورحمة ﴾ سورة الحديد : (٢٧)

٨ ــ تبعية محمد ﷺ :

يستفيض القرآن الكريم فى بيان (تبعيته) عليه السلام ، كما استفاض فى بيان (معيته) للأسباب التى ذكرناها سابقا[١] .

وهى أيضا مثل أختها ضربان :

---

(١) انظر ص ١٥٠ .. من هذا الكتاب .

الضرب الأول : التبعية المطلقة :

وهى التى تكون فى شأن الدين والرسالة جملة ، لذلك يقررها القرآن الكريم له ﷺ مطلقة ، غير محددة ، ولا مقيدة ، ويكررها القرآن كثيرا فى المكى والمدنى منه حتى تستقر فى نفوس أمته : (دعوة واجابة) فتقوم بذلك الحجة على الكافرين ، وتصل إلى ذروة اليقين عند المؤمنين ، فلا تكون محلا لشبهة أو ارتياب .

قال تعالى : ﴿ **الذين يتّبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيبات ويحرِّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون** ﴾ سورة الأعراف : (١٥٧)

وقد ذكرت (التبعية) له ﷺ مرتين فى هذه الآية الكريمة : فى أولها ، وفى آخرها ، دلالة على تأكّد أمرها ، وأنها أصل أصيل فى علاقة الناس بالرسول عليه السلام .

وقال تعالى : ﴿ **واخفض جَنَاحك لمن اتّبعك مِن المؤمنين** ﴾ .
سورة الشعراء : (٢١٥)

وفى هذا تسجيل لنوعية العلاقة بين الرسول وأتباعه المؤمنين ، وأنها علاقة مودة غامرة ، ورأفة ورحمة .

وقال عز شأنه : ﴿ **يأيها النبى حسبك الله ومَن اتّبعك مِن المؤمنين** ﴾ .
سورة الأنفال : (٦٤)

أى أن الله تعالى هو الكافى والناصر لك وللمؤمنين الذين اتبعوك ، وفى هذا تسجيل برعاية الله تعالى للتابع والمتبوع جميعا إذا كانا على الحق والهدى الذى كان عليه رسول الله وأصحابه .

ويقول تعالى : ﴿ **فإنْ حاجّوك فقل أسلمت وجْهِىَ لله ومَن اتّبعن** ﴾ .
سورة آل عمران : (٢٠)

وفى هذا إيذان بأن المؤمنين أمة واحدة ، يعرب الرسول ﷺ عن نفسه وعن أتباعه فى مقام التوحيد ، لأن المؤمنين جميعا قد أسلموا وجوههم لله رب العالمين بمقتضى (**الإيمان** ، **والمعية** ، **والتبعية**) التى تدل دلالة صادقة على حب الله ورسوله كما قال تعالى : ﴿ **قل إنْ كنتم تحبّون الله فاتبعونى يحببكم الله** ﴾ سورة آل عمران : (٣١)

أى إن ادعيتم محبة الله تعالى فاتباع الرسول هو دليل صدق هذه الدعوى ، وإذا فعلتم ذلك أحبكم الله تعالى جزاء لكم على صدق محبتكم له تعالى ، حين دعمتموها بدليلها العملى وهو (التبعية) للرسول عليه السلام ، لامن حيث ذاته المجردة — كما قلنا — وإنما لأنه هو نفسه (تابع) لوحى الله تعالى ، كما قال جل شأنه لرسوله قطعا للجاجة الكفار : ﴿ **قل لاأقول لكم عندى خزائن الله ولاَ أعلم الغيب ولاَ أقول لكم إنِّى مَلك إنْ اتّبع إلاّ مايوحَى إلىّ** ﴾ سورة الأنعام : (٥٠)

الضرب الثانى : التبعية الخاصة :

وهى التى تكون فى أمر خاص من أمور الدين أو الدنيا كما فصلنا ذلك فى (المعية)[1] والأمثلة على هذه التبعية الجزئية فى القرآن الكريم كثيرة منها :

١ — التبعية فى تحويل القبلة إلى الكعبة :

فقد صلى المسلمون إلى بيت المقدس ، ثم أمر الله تعالى بالصلاة إلى الكعبة المشرفة فى مكة ، فأرجف اليهود بهذا التحويل ، وأثاروا حوله غبارا كثيفا من الشبهات والجدل . فرد عليهم القرآن الكريم منددا بسفاهتهم ، ومبينا أن المشرق والمغرب لله يتفرد فيهما بالحكم والتشريع . وأن هذا التحويل اختبار تتقرر به مدى تبعية الرسول ، وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ **وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم مَنْ يتّبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه** ﴾ .

سورة البقرة : (١٤٣)

فالمؤمنون الصادقون تحولوا إلى حيث أمروا ، فكانت تبعيتهم راسخة وانقيادهم تماما ، وثقتهم بالوحى الإلهى مطلقة ، حتى لقد تحول أهل قباء وهم

---

(١) انظر ص ١٥١ وما بعدها .

فى الصلاة إلى الكعبة ، بمجرد أن أخبرهم أحد المسلمين بأن رسول الله ﷺ قد نزل عليه تحويل القبلة ﴾[1] .

أما المنافقون فقد استخفهم اليهود ، فانقلبوا على أعقابهم معترضين ومتحيرين ، لأن إيمانهم فاسد ، وتبعيتهم للرسول معدومة فى الحقيقة أو يغشاها الشك والريبة فلا تثبت أمام اختبار ﴿ **فهم فى ريبهم يترددون** ﴾[2] ..

٢ ـ التبعية فى الجهاد :

قال تعالى : ﴿ **لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتَّبعوه فى ساعة العُسْرة** ﴾ سورة التوبة : (١١٧)

والآية الكريمة أبلغ شهادة وأزكاها للمهاجرين والأنصار رضى الله عنهم ، لأنهم تبعوا رسول الله ﷺ فى أحرج الأحوال ، وفى غزوة تبوك التى سميت بغزوة العسرة ، لما كان فيها من شدة الحر ، وبعد الطريق ، وجدب العيش ، وقلة الثمار ، وكثرة المنافقين والمرجفين ، وضخامة العدو (الروم ومن والاهم من قبائل العرب) .

أما المنافقون فيسجل عليهم القرآن (التبعية) النفعية ، التى تفيض عند الطمع ، وتغيض عند الفزع كما قال تعالى عنهم : ﴿ **لو كان عَرَضاً قريبا وسفَرا قاصداً لاتبعوك ولكن بَعُدت عليهم الشُقّة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يُهْلِكُون أنفسهم والله يعلم إنَّهم لكاذبون** ﴾ .
سورة التوبة : (٤٢)

والمعنى : لو كانت غنيمة سهلة وسفرا قريبا لاتبعك المنافقون طمعا وشراهة ، ولكن بعدت عليهم المسافة ، وخافوا العدو ذا العدد والعدّة ؛ لذلك فروا من الاتّباع ، ثم لجأوا إلى الحلف الكاذب يبررون به موقفهم المخزى ، بعد أن رجع النبى ومن اتبعه من المؤمنين سالمين غانمين .

مثالان جامعان عن الرسول ﷺ وأصحابه :

وضح مما سبق أن (**المعية**) (**والتبعية**) **ليستا من القضايا الفرعية التى**

---

(١) رواه البخارى ومسلم من حديث البراء عازب ، وعبد الله بن عمر رضى الله عنهم أجمعين .
(٢) سورة التوبة : ٤٥

تتفاوت فيها الشرائع على ألسنة الرسل عليه السلام ، وإنما هما من المسائل الأصولية ، لأنهما يعنيان « التجمّع » لإقامة الدين ، بواسطة الأمة المسلمة الجديدة ، التى تقابل « تجمع » الجاهلية وطواغيتها . وقد قرر القرآن ذلك فى الآية الجامعة عن الرسالة والرسل عليهم السلام قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكم مِنَ الدِّين ماوصّى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كَبُرَ على المشركين ماتدعوهم إليه ﴾ سورة الشورى : (١٣)

فالأمر بإقامة الدين ، والنهى عن التفرق فيه موجهان لكل نبى وأتباعه تنفيذا لوحى الله تعالى ومجابهةً للمشركين لتكون أمة فى مواجهة أمة ، وجهد عملى فى مقابل جهود المشركين لمنع دعوة الله عز وجل .

وقد جاء القرآن الكريم على غاية التفصيل فى الآيات المكية التى خوطب بها محمد ﷺ ــ فضلا عن الآيات المدنية ــ لبيان أنه ﷺ لم يكن بدعا من الرسل ، بل إنه مضى على نهج أسلافه المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين ، وليكون حجة على الناس إلى يوم القيامة .

ومع دلالة الآيات التى أوردنا بعضها فى (المعية) أو (التبعية) فقد جاءت آيات كريمة جامعة لكل معانى (المعية) ، ولكل معانى (التبعية) فى خطاب النبى ﷺ ، وابتداء من العهد المكى قبل مرحلة الدولة ذاتها .

وسنورد هنا مثالين جامعين منها :

المثال الأول : عن المعية :

قال تعالى : ﴿ **فاستقم كما أُمِرتَ ومَن تاب معك ولا تَطْغَوْا إنّه بما تعملون بصير * ولا تَرْكنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار وما لكم من دون الله مِن أولياء ثم لاتنصرون** ﴾ سورة هود : (١١٢ ، ١١٣)

يأمر الله تعالى النبى ومن معه بالتزام شريعة الله تعالى على الوجه الصحيح الّذى أمرهم الله تعالى به ، قال عمر رضى الله عنه فى تفسيرها : « أن تستقيم على الأمر والنهى ، ولا تروغ منه روغان الثعلب »(١) .

---

(١) انظر تفسير البغوى والخازن جـ ٣ ص ٢٠٩

والطغيان : مجاوزة الحد فى كل شيء ، والمعنى هنا لاتجاوزوا حدود ماأمرتم به أو نهيتم عنه ، فلن « يشادّ الدين أحد إلاّ غلبه »[١] ، بمعنى أنه متين قوى يغلب من طغى وتجاوز حدوده[٢] .

والركون : هو الميل ، والمحبة ، أى لاتميلوا أدنى الميل إلى الظالمين فتفرطوا فى دينكم . أى أنهم نهوا عن الإفراط ، والتفريط فى دينهم .

وقد اشتملت الآية على **أربعة أصول لابد منها لتحقيق « إقامة الدين »** :

١ ــ (**المنهاج**) : وهو المبادىء والتعاليم التى ينبغى التزامها والسير عليها ، أعنى دين الله وشريعته ، وهذا مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ **فاستقم كما أمرت** ﴾ أى : الصراط المستقيم الذى أمر الله تعالى به .

٢ ــ (**الإمام**) : أو القائد الذى ينبغى أن يكون على رأس الدعاة والعاملين لدين الله ، وهذا مأخوذ من المخاطب فى قوله ﴿ **فاستقم كما أمرت** ﴾ .

٣ ــ (**الجماعة**) : التى ينبغى أن تكون فى صحبته ، وذلك مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ **ومن تاب معك** ﴾ أى آمن إيمانا مرتبطا بمعيتك ، ولذلك نص القرآن الكريم هنا على (المعية) إيذانا بأنها أصل للرجوع من معية الكفار إلى معية المؤمنين ، وعلى رأسهم إمامهم وقائدهم .

٤ ــ (**الطريقة الصحيحة**) للاستقامة على أمر الله : دعوة ، وتطبيقا ؛ وهى طريقة الاعتدال والتوسط التى لاغلو فيها ولا ترخص ، **أو لاإفراط فيها ولا تفريط** ، وهى طريقة الإسلام فى كل شأنه ، وقد عبر القرآن الكريم عنها بأساليب شتى[٣] .

وهذا المعنى مأخوذ هنا من قوله تعالى : ﴿ **ولا تطغوا** ﴾ ، ﴿ **ولا**

---

(١) فى حديث أبى هريرة : « إن الدين يسر ولا يشاد الدين أحد إلا غلبه » رواه البخارى والنسائى

(٢) فى الحديث : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لاأرضا قطع ولا ظهرا أبقى » وفى هذا بيان لمنع التجاوز حتى فى العبادة ، رواه البزار عن جابر وروى أوله أحمد عن أنس .

(٣) من ذلك قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ سورة البقرة : ١٤٣ .
وقوله تعالى : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ سورة الفرقان : ٦٧ .

تركنوا ﴾ والآيتان الكريمتان نزلتا فى سورة هود المكية ، والتى ذكرت (المعية) فى قصص الأنبياء اثنتى عشرة مرة .

ثم الآيتان الكريمتان مكيتان تلزمان المؤمنين (بالمعية) فى العهد المكى رغم الفتنة والعذاب والبلاء ، ولهذا دلالته البالغة فى أن (المعية) هى أصل من الأصول ، ترادفت عليه كلمة الرسل جميعا ، ودعا الله تعالى المؤمنين إلى التزامه فى عهد التأسيس والتأصيل ، ولم يأذن لهم فى تأجيله إلى عهد الدولة والتمكين .

المثال الثانى : عن التبعية :

قال تعالى مخاطبا رسوله بصيغة الأمر أيضا : ﴿ **قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومَن اتّبعنى ، وسبحان الله وما أنا من المشركين** ﴾ .

سورة يوسف : (١٠٨)

والآية الكريمة مكية أيضا وفى سورة مكية وهى تتفق تماما مع آيتى سورة هود فى الاشتمال على الأصول الأربعة :

١ ــ **المنهاج** : وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ قل هذه سبيلى ﴾ أى « سنتى ومنهاجى »[١] .

٢ ــ **الإمام** : وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ **أدعو إلى الله ... أنا** ﴾ .

٣ ــ **الجماعة** : ﴿ **ومن اتبعنى** ﴾ والتبعية كما قلنا تدل على ثلاثة أمور :

(الإيمان ، والمعية ، والانقياد التام) ولذلك قال ابن زيد رحمه الله : « حق على من اتبعه وآمن به أن يدعو إلى مادعا إليه ، ويذكر بالقرآن »[٢] .

٤ ــ **الطريقة الصحيحة** : وهى قوله تعالى ﴿**على بصيرة**﴾ .

أى على بصر بالأمور ، ومعرفة للحلال والحرام ، وتمييز بين الحد الوسط وطرفيه الممنوعين (**الإفراط والتفريط**) ، فمن كان على بصيرة فى الدين

---

(١) تفسير البغوى : جـ ٣ ص ٢٦٢ .

(٢) تفسير الخازن جـ ٣ ص ٢٦٢ (المطبوع على هامشه البغوى) .

تجنب الطغيان ، والركون إلى الظالمين ، ومفارقة الظلم والعصيان من باب أولى .

وبذلك يتجلى لنا بعض أسرار التفصيل القرآنى فى شأن محمد ﷺ ومن كان (معه) ، (واتبع) خطاه ، لأن القرآن هو صوت النبوة الممدود إلى يوم الدين ، فجاء بالبيان الأوفى تعليما للمؤمنين ، وإلزاما لهم حتى يسلكوا مسلك نبيهم ﷺ .

وبذلك يكون الدليل أظهر وأوضح ، والحجة أقطع وألزم ، والقدوة أقوى وأقرب ، والنقل أحق وأوثق : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** ﴾ الأحزاب : ٢١

القسم الثالث[1] : اتباع الصالحين :

وهو اتباع مقيد بحدود الله تعالى وشرعه ، لأنهم غير معصومين من الخطأ والذنوب ، لذلك لم تذكر فى القرآن تبعيتهم إلا مقيدة بقيد شرعى ، بخلاف الرسل عليهم السلام الذين اصطفاهم ربهم وارتضاهم وعصمهم ، ولذلك أطلق اتباعهم ، والتأسى بهم ، دون غيرهم من الصالحين .

ومن الأمثلة على ذلك :

(١) ماجاء فى اتباع الآباء الصالحين :

﴿ **والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم** ﴾ .
سورة الطور : (٢١)

فقيد التابع والمتبوع بقيد الإيمان صراحة ، وبقيد العمل الصالح المفهوم من السياق لأن الكلام فى أهل الجنة .

ولذلك أطلقت التبعية عن التقييد إذا كان الأب نبيا كما قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام : ﴿ **واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب** ﴾ .
سورة يوسف : (٣٨)

---

(١) القسم الأول ص ١٦٣ ، والقسم الثانى ص ١٦٤ وهذه الثلاثة هى أقسام التبعية المحمودة .

(٢) ماجاء فى اتّباع الدعاة العاملين :

قال تعالى على لسان مؤمن آل فرعون : **﴿ وقال الذى آمن ياقوم اتبعونِ أهْدِكُم سبيل الرشاد ﴾** سورة غافر : (٣٨)

وتبعيته هنا مقيدة بقيد الإيمان ، وبقيد الهداية إلى سبيل الرشاد ، وهو الدين الحق الذى جاء به موسى عليه السلام .

(٣) ماجاء فى اتّباع أهل السبق بالخيرات :

قال تعالى : **﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتَّبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعدّ لهم جنات ﴾** .
سورة التوبة : (١٠٠)

فالقيد فى (المتبوع) هو السبق ، وأولية الإيمان ، والهجرة والنصرة، كلها أوصاف تجعلهم فى ذروة الطاعة لله ، ولرسوله ، ولدينه الحق.

والقيد فى (التابع) هو الإحسان ، الذى هو غاية الإتقان فى العبودية ، ومراقبة الله تعالى وإنما جاء القيد فى التابع أيضا ليترتب عليه مابعده من جزاء عظيم : (رضى الله عنهم .. إلخ) .

ثانياً : موقف القرآن التفصيلى من التبعية المذمومة[١]

تحدث القرآن العظيم حديثا شاملا عن هذه التبعية تحذيرا منها ، واستنقاذا للناس من شرها ، وأخذاً بأيديهم إلى طريق الحق والهدى .

وبتأمل الآيات الكثيرة فى هذا نجدها تدور حول قسمين :

القسم الأول : اتّباع الذات فى الباطل :

وهى تبعية داخلية ، تأتى من انقياد الإنسان لأهواء نفسه ، وإيثاره شهواتها الدنيئة ، والاستسلام لرغباتها الخسيسة **﴿ إنّ النفس لأمّارة بالسوء إلاّ مارَحِم ربى ﴾** سورة يوسف : (٥٣)

(١) مرت الفقرة (أولا) ص ١٦٣ .

ومن هذا اللون اتباع الظنون الفاسدة فى العقائد خاصة شأن الجاهليات كلها ، كقوله تعالى عن الأصنام وعبّادها : ﴿ **إنْ هى إلاّ أسماءٌ سَميتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها مِن سلطان إنْ يتّبعون إلاّ الظن وما تَهْوَى الأنفسُ ولقد جاءهم مِن رّبهم الهدى** ﴾ سورة النجم : (٢٣)

واتباع « ماتهوى الأنفس» هو أثقل غشاوة يصاب بها الإنسان ، ولا تزال تنحدر به فى أودية الضلال حتى يجعل هذا الهوى إلٰها يعبده من دون الله عز وجل : ﴿ **أفرأيت مَن اتخذ إلهَه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفَلَا تَذَكّرون** ﴾ .
سورة الجاثية : (٢٣)

كذلك لامخرج للناس إذا غلبت عليهم الشهوات إلاّ هدى الله عز وجل ﴿ **والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ..** ﴾ سورة النساء : (٢٧)

والآية الكريمة تحذر من الذين يتبعون شهواتهم الدنيئة ، ثم يخرجون على الناس بالخديعة فيصورونها لهم : مذهبا ، وفلسفة ، وفكرة ، ويدعون إلى اعتناقها واتباعها ، فتصبح الشهوات والنزوات عقيدة ودعوة ، يجادل عنها فريق من البشر ، ويموت آخرون فى سبيلها ، وتسخر أمم وشعوب لنصرتها ، وبذلك يميل البشر عن الطريق الصحيح ميلا عظيما ، لامخرج لهم منه إلا باتباع الهداية الربانية .

القسم الثانى : اتباع الإنسان غيره فى الباطل :

وهى تبعية خارجية ، يكون المتبوع فيها ذاتاً أخرى ، تزين للناس الضلالة ، وتحملهم عليها بالحيلة والخديعة تارة ، أو بالعسف والطغيان تارة أخرى .

وقد ندد القرآن العظيم بكل ألوانها وصورها ، وتتبعها بالتحذير والإبطال ، وأنذر أهلها تابعين ومتبوعين ، وأقام عليهم الحجة البالغة ، ورد عليهم دعاوى السوءِ التى زوروها ، على مانوجزه فيما يلى :

أ ـــ اتّباع الشيطان :

وقد حذر القرآن طويلا من عداوته للإنسان منذ خلق ، وأنذر الذين يتبعونه بالخسارة والبوار فى الدنيا والآخرة . قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السِّلْم كافّةً ولا تّتبعوا خُطُوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ .

سورة البقرة : (٢٠٨)

والمعنى : ادخلوا في الإسلام جميعا ، (أيِ جميع الناس ، أو جميع شرائع الدين) ولا تتبعوا طريق الشيطان ومذاهبه بديلاِ عن الإسلام ، أو معه بعد اعتناقه ، فإن الشيطان لعداوته لكم لايأمركم بخير أبدا ، كما قال تعالى صراحة : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لاتّتبعوا خُطُوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازَكَى منكم مِنْ أحد أبدا** ﴾

سورة النور : (٢١)

ب ـــ اتّباع الأسلاف والآباء :

وهو عقبة عاتية كانت تقف فى وجه الرسل عليهم السلام ، لأن الأمم اتخذتها وسيلة للتصلب والجمود ، بحجة المحافظة على تراث الأولين ، ويجعلون من مجرد التراث دليلا على صحة ماهم عليه ، ولو قامت على نقضه الحجج والبراهين ، وقد قص القرآن موقفهم هذا فى عبارات جامعة قالتها كل أمة لرسولها :

﴿ **كذلك ماأرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلاّ قال مترفوها إنّا وجدنا آباءنا على أمّة وإنّا على آثارهم مُقْتدون * قال أوَلَوْ جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنّا بما أرسلتم به كافرون** ﴾ .

سورة الزخرف : (٢٣ ، ٢٤)

والأمة هنا : بمعنى الطريقة التى تُؤَمّ وتتبع .

ولذلك أبطل القرآن العظيم أمر هذه (التبعية) إبطالا ، وندد بأهلها تابعين ومتبوعين تنديدا بالغا ، وكشف ضلالهم وجهلهم أجمعين .

وعلى حين يعتزون هم بهذه التبعية ، يأتى القرآن موضحا لهم الحقيقة فى

عبارات قارعة تصمهم بأنهم شر خلف لأحمق سلف ، تواصلت بهم سلسلة الضلال عبر القرون : **﴿ إنهم أَلْفَوْا آباءهم ضالين * فهم على آثارهم يُهْرَعون ﴾** سورة الصافات : (٦٩ ، ٧٠)

﴿ وإذا قيل لهم اتّبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتّبع ماألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ .

سورة البقرة : (١٧٠)

ويورد القرآن الكريم هذه المعانى من خلال قصص الأنبياء عليهم السلام خاصة إبراهيم عليه السلام وهو يجابه عقيدة الجمود من قومه : **﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين * قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ﴾** .

سورة الأنبياء : (٥٣ ، ٥٤)

جـ ـــ اتّباع الطواغيت من سادتهم وكبرائهم :

وقد بلغ القرآن الغاية فى ذم هذا الجانب لأثره الفاحش على الأفراد والمجتمعات ؛ ولنتائجه المريرة الخطيرة فى صرف الناس عن دعوة الحق .

وهذا باب واسع جدا فى القرآن الكريم ، ولكننا نتناول منه ماجاء بلفظ (الاتباع) ونحوه مما يتصل ببحثنا .

وفى البداية نجد القرآن الكريم يسجل على الأمم فى كل العصور أنهم بلغتهم دعوة الرسل ؛ وعلى وجهها الصحيح ، وأنهم علموا تماما مادعوا إليه من تبعية الهدى الإلهى الذى جاءهم على ألسنة الرسل عليهم السلام .

ولكن الكفار دائما كانوا يسلكون سبيل الغَىّ والضلال ، واتبعوا طواغيتهم ورؤساءهم الضالين ، ولذلك جاء القرآن بالنهى القاطع عن تبعيتهم سواء كانت فى : **الشرائع والمذاهب** التى يضعونها للناس .

أو فى الأوامر والنواهى الجائرة ، القائمة على الطغيان ، والتى اعتاد الناس أن يتبعوا فيها الطواغيت رغبا ورهبا مع علمهم بجورها وبطلانها ، كحروب البغى والعدوان ، وأوامر مصادرة أموال الناس واغتصابها ، وفتنة المؤمنين وسفك دماء الناس أو جلد أبشارهم بغير الحق .

قال تعالى على لسان نوح : ﴿ قال رب إنّهم عَصَوْنى واتّبعوا مَن لَّم يَزِده ماله وولده إلاّ خسارا ﴾ سورة نوح : (٢١)

وقال تعالى : ﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴾ سورة هود : (٥٩)

وقال تعالى : ﴿ فاتّبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد ﴾ .
سورة هود : (٩٧)

وفى الآيات الكريمة وأمثالها نجد أوصاف الذم والتنديد واضحة عقب ذكر (المتبوعين) من طواغيت الجاهلية، فى عصور شتى .

موقف الطواغيت من تبعية الرسل

وقد تحدث القرآن هنا طويلا ، وبين موقف طواغيت الجاهليات من تبعية الرسل ، وأنهم يستكبرون عليها ابتداء ، وينفرون قومهم منها بكل الطرق والأساليب ، ويحاولون خداع المؤمنين لصرفهم عنها ، ويقيمون من أنفسهم حراسا على « **سبيل الجاهلية** » يدافعون عنه ، ويشرعون لأهله المذاهب والشرائع ، يعارضون بها « **سبيل الله** » تعالى ، ويقعدون بكل صراط يتوعدون ويقطعون هذا السبيل على المؤمنين حتى لايقوم فى الأرض جماعة مؤمنة على أساس الإسلام .

وقد جلى القرآن هذه الأمور وغيرها ، حتى يحق الحق للناس فيتبعوه ، ويبطل الباطل فيجتنبه الباحثون عن الهدى ، وهذا إيجاز لبعض مافصله القرآن الكريم :

(١) الاستكبار التام عن تبعية الرسل :

وكان هذا الاستكبار عقدة وحقدا فى نفوسهم ، حاولوا أن يظهروه للناس فى أسلوب مخادع ، فزعموا أن الرسل لاتكون من البشر ، واستنكروا أن يهديهم رجل منهم ، وكانوا جميعا على ماقالته ثمود لنبيها صالح : ﴿ أبَشَراً مِنّا واحدا نتّبعه إنّا إذاً لَفِى ضَلال وسُعر ﴾ .

سورة القمر : (٢٤)

والمعنى : أنهم لو اتبعوا الرسل لكانوا على غاية الخطأ والجنون ، وهذا قلب للموضوع وعكس للحقائق ، وجدل بالباطل المحض .

(٢) تنفير الناس من الرسول ذاته :

فجعلوا يصفون الرسول بالسحر ، والجنون ، والكهانة ، وحبّ الاستعلاء والتفضل على الناس حتى يصرفوهم عن تبعيته : ﴿ وقال الظالمون إن تتبعون إلاّ رَجلاً مسحورا ﴾ سورة الفرقان : (٨)

(٣) الظهور بمظهر الحريص على مصالح الأمة والقوم :

وهذه إحدى أكاذيب الطواغيت من قديم ، ينصبون للناس هدفا مّا : قوميا أو وطنيا ، أو اجتماعيا ، أو دينيا ، ويزعمون أنهم يعادون الرسل من أجل هذا ؛ وبذلك يستثيرون حمية الناس ضد الرسل ، ومن ذلك مازعمه طواغيت العرب :

﴿ وقالوا إن نتّبع الهدَى معك نُتخطّف مِن أرضنا ﴾[1] وقد ردّ عليهم القرآن بقوله تعالى : ﴿ أوَ لَمْ نُمكّن لهم حَرَماً آمنا يُجْبَى إليه ثمرات كل شىء ﴾ سورة القصص : (٥٧)

(٤) خداع المؤمنين بالوعود الكاذبة :

فالكفار يعلمون أن المؤمنين قد اتخذوا سبيلا جديدا غير سبيلهم ، وأنهم ناقضوا الجاهلية فى عقائدها وعوائدها الضالة ، واتبعوا سبيل المرسلين ، فقال الكفار للمؤمنين محاولين صرفهم عن الطريق الذى اتبعوه : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتّبعوا سبيلنا ولْنَحْمِلْ خطاياكم وماهم بحاملين مِنْ خطاياهم مِنْ شىء إنهم لكاذبون ﴾ سورة العنكبوت : (١٢) .

والمراد : اتّبعوا ديننا وملة آبائنا ، وسنحمل عنكم كل التبعات .

(٥) وضع الشرائع والأحكام للناس :

وهذا أفحش وأخبث مايصنعه طواغيت الجاهلية ، حين يجعلون لأنفسهم

---

(١) هذا شبيه فى المعنى بقول فرعون عن موسى عليه السلام : ﴿ إنى أخاف أن يبدّل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾ سورة غافر : ٢٦

سلطانه فى وضع المذاهب والشرائع والأحكام ويخطون للناس نهجا وسبيلا ، آخر غير (سبيل الله) ، ويدعون الناس إلى اتباعه بالحيلة أو بالقوة .

وقد حذر القرآن الكريم من اتباع السبيل الباطل من جهتين : (٢)

أولاً : من حيث (وضعه) باعتباره افتئاتا على الله تعالى صاحب الحق المطلق فى الحكم والتشريع .

وثانياً : من حيث (اتباعه) باعتباره تأليها لغير الله تعالى ، وتفضيلا لحكم الجاهلية على حكمه جل شأنه .

قال تعالى مخاطبا رسوله الكريم : ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون** ﴾ سورة الجاثية : (١٩)

والمراد بأهوائهم : اراء الجهال التابعة للشهوات ، وهم رؤساء قريش قالوا له ارجع إلى دين آبائك كما قال البيضاوى فى تفسيره .

وقال تعالى : ﴿ **فاحكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم عما جاءك من الحق** ﴾ سورة المائدة : (٤٨)

وقال تعالى مخاطبا المؤمنين جميعا : ﴿ **وأنّ هذا صراطى مستقيما فاتّبعوه ولا تتّبعوا السُّبُلَ فَتفرّق بكم عن سبيلِهِ** ﴾ .

سورة الأنعام : (١٥٣)

ثم ينذر سبحانه أصحاب التبعية الباطلة ، ويحذرهم من سوء المصير : ﴿ **ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتّبع غير سبيل المؤمنين نُوَلّه ماتولّى ونُصْلِه جهنم وساءت مصيرا** ﴾ سورة النساء : (١١٥)

والآية الكريمة صريحة فى أن الرسول جاء بالهدى ، وأقام عليه جماعة المؤمنين ، وأصبح سبيلهم واضحا : من حيث المبادىء ، ومن حيث الواقع العملى المتمثل فى الجماعة المسلمة ، ومن ثم فلا عذر لأحد فى اتباع غير سبيل المؤمنين ، وإلاّ كان جزاؤه التخبط : (نوله ماتولى) والنار : (ونصله جهنم) .

جزاء التابع والمتبوع بالباطل:

عرض القرآن الكريم الجزاء الحق الذى يلقاه الطرفان :

فى الدنيا : كان جزاؤهم البوار والخسار والدمار — كما قص الله علينا فى قصص الأنبياء مع أممهم ، وما هو من الظالمين ببعيد ..

فى الآخرة : أخبر القرآن أنهم تتقطع بينهم فيها الصلات ، ويتنابذون بالعداوة والبغضاء ، ولعن بعضهم بعضا ، ويتبرأ كل من صاحبه ، ويتخاصمون فى النار حيث لاينفع شىء قال تعالى : ﴿ **وإذ يتحاجّون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنّا كنّا لكم تَبَعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار * قال الذين استكبروا إنّا كلّ فيها إنّ الله قد حكم بين العباد** ﴾ .

سورة غافر : (٤٧ ، ٤٨)

ويقول جلّ شأنه فى نذير صارم للتابع والمتبوع : ﴿ **إذْ تبرّأ الذين اتُّبِعوا مِنَ الذين اتَّبَعوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب * وقال الذين اتَّبَعوا لو أنّ لنا كَرَّة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسراتٍ عليهم وماهم بخارجين من النار** ﴾ .

سورة البقرة : (١٦٦ ، ١٦٧)

أما اتباع الحق والهدى فجزاؤهم من جنس العمل :

فى الدنيا : توفيق من الله ورحمة ؛ ومعونة ونصره ؛ وسكينة وطمأنينة : ﴿ **لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذى اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ماكاد يَزِيغُ قلوبُ فريقٍ منهم ثم تاب عليهم إنّه بهم رءوف رحيم** ﴾ . سورة التوبة : (١١٧)

﴿ **فمن اتبع هداى فلا يَضِلّ ولا يَشْقى** ﴾ .

سورة طه : (١٢٣)

فى الآخرة : رضوان الله تعالى ، وجنته ، وفوزه العظيم : ﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتّبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعدّ لهم جناتٍ تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم** ﴾ سورة التوبة : (١٠٠)

الموضوع الرابع

العلم والعلماء فى ضوء القرآن

- معنى العلم .
- ورود الموضوع فى القرآن الكريم .
- سعة الموضوع :

أولاً : شرف العلم فى ضوء القرآن .

ثانياً : العلم تكليف قرآنى .

ثالثاً : أقسام العلم فى ضوء القرآن .

- العلم المطلق .
- العلم المحدود .
- العلوم الوهبية .
- العلوم الكسبية .

رابعاً : آداب العلم والرحله فى طلبه .

- العالم والمتعلم .
- مثال قرآنى جامع .

معنى العلم :

العلم لغة: مصدر بمعنى الفهم، والمعرفة، وقال الراغب رحمه الله: «العلم: إدراك الشيء بحقيقته، وذلك ضربان:

أحدهما: إدراك ذات الشيء.

الثانى: الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له، أو نفي شيء هو منفي عنه، فالأول هو المتعدى إلى مفعول واحد نحو: ﴿**لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ**﴾، والثانى المتعدى إلى مفعولين نحو: ﴿**فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ**﴾[1] واصطلاحا:

تعرفه كل طائفة من العلماء بما يناسب تخصصها:

فأصحاب العلوم الشرعية يعرفونه بأنه: «معرفة الله تعالى، وما يليق به من صفات وأفعال، ومعرفة حلاله وحرامه».

وعرفه المتكلمون بأنه: «صفة تنكشف بها الأشياء لمن قامت به».

وعرفه الفلاسفة بأنه: «صورة الشيء الحاصلة فى العقل».

وهذا كله اختلاف تنوع، لااختلاف تضاد، لأن العلم هو هذه المعانى وغيرها، مثل (المَلَكَة) التى تتربى لدى العلماء، ويستطيعون بها الفهم، واستنباط المسائل والنتائج[2].

ورود الموضوع فى القرآن الكريم:

وقد ورد لفظ: (العلم) وما تفرع منه فى القرآن الكريم نحو (٨٦٥) مرة، وهو أجمع ألفاظ الموضوع، وأكثرها دورانا فى القرآن الكريم، ولذلك اخترناه عنواناً جامعاً للمعانى المقصودة هنا.

---

(١) المفردات للراغب مادة: (علم) ص ٣٤٣.

(٢) راجع تفصيلات هذا فى كتاب: (المدخل لدراسة القرآن الكريم) ص١٣ للشيخ محمد أبى شهبه رحمه الله.

أما الألفاظ (المقاربة) له فهى كثيرة منها:

(الفقه ـ المعرفة ـ الهدى ـ العقل ـ الفكر ـ التدبر ـ التذكر ـ النظر ـ البصيرة ـ). وكلها قد وردت فى القرآن الكريم مرارا.

أما الألفاظ (المقابلة) للفظ العلم وما يليه فهى أيضاً كثيرة جداً فى القرآن الكريم ومنها:

(الجهل ـ السفه ـ الضلال ـ العمه[1] ـ الظن الباطل ـ الإفك..)[2].

وكل هذه الألفاظ (المقاربة، والمقابلة) ذات اتصال وثيق بمعرفة الموقف الكلى الشامل للقرآن الكريم من موضوع (العلم)، ومكانها ـ كما قلنا سابقاً ـ التفسير الموضوعى (المبسوط)، مثل الرسائل العلمية، والتآليف الخاصة بهذا الموضوع وحده.

ولذلك نتناول الموضوع هنا من جانبه (الوسيط)، الذى يقوم على جوامع الآيات الكريمة، الواردة بلفظ (العلم) قصدا، وما يليه تبعا.

صلة هذه الألفاظ بموضوع (العلم):

وسنذكر بعض معانى الكلمات السابقة، حتى يتضح ارتباطها الوثيق بموضوع (العلم) فى القرآن الكريم:

(أ) الألفاظ (المقاربه):

(الفقه): هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد، فهو أخص من العلم.

(المعرفة): إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره، وهو أيضا أخص من العلم، ويقال: فلان يعرف الله، ولا يقال يعلم الله متعديا لمفعول واحد، لأن معرفة البشر لله هى بتدبر آثاره، دون إدراك ذاته، ويقال الله يعلم كذا، ولا يقال يعرف كذا، لأن المعرفة تستعمل فى العلم المتوصل له بتفكر.

(١) العَمَه: التحير والتردد.

(٢) من أراد التوسع فليراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم فى مادة كل كلمة.

(الهدى): الدلالة بلطف إلى المطلوب، وهو ضرب مخصوص من العلم أيضا.

(العقل): هو القوة المتهيئة لقبول العلم، أو العلم الذى يستفيده الإنسان بتلك القوة.

(الفكر): قوة مؤدية إلى العلم، والتفكر جولان تلك القوة بحسب نظر العقل، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة فى القلب، ولهذا روى: (تَفكَّروا فى آلاء الله، ولا تَفكَّروا فى الله)، لأنه منزه أن يوصف بصورة.

(ب) الألفاظ (المقابلة)[1] للعلم منها:

(الجهل): وهو خلو النفس من العلم، أو اعتقاد الشيء بخلاف ماهو عليه أو فعله بخلاف ماحقه أن يفعل.

(السفه): خفة فى البدن، واستعمل فى خفة النفس لنقصان العقل[2].

سعة هذا الموضوع فى القرآن الكريم:

ومن هذا العرض الموجز يتضح لناسعة موضوع (العلم) فى القرآن الكريم سعةً بالغة، وتنوع ألفاظه وأساليبه، وامتداده إلى آفاق شامله لكل قضايا الكون والحياة، والدين والدنيا، وما ينفع الإنسان فى معاشه ومعاده، وما يبصره بكل نافعة وضارة ليكون على بينة ونور.

وحين ننظر فى الآيات الكريمة مجتمعة تتجلى لنا عناية القرآن الكريم بهذا الموضوع، واستفاضة القرآن فى كل عنصر من عناصره، ومعالجته من شتىّ الاعتبارات، والاتجاهات على مانوجز بعضه فيما يلى:

أولاً: شرف العلم فى القرآن الكريم.

العلم من حيث هو نور وهداية، ولذلك يصل به القرآن إلى ذروة التشريف

(١) راجع ماقلناه سابقا فى (المبحث السادس) حول معرفة مايتعلق بالموضوع، من الأحكام التى يثبتها القرآن للنقائض والأضداد، فإن ذم الجهل هو حث على العلم وهكذا.

(٢) انظر مفردات الراغب فى مادة كل لفظ، وقد أخذنا عنه بتصرف يسير.

والتكريم، ويبلغ به أسمى المراتب والغايات، ويعلق به كل خير واستقامة، ويجعله مفتاح كل صلاح وفلاح، ومرقاة إلى الدرجات العلا فى الدنيا والآخرة، وبيان ذلك بإيجاز أيضاً:

١ــ العلم صفة الله تعالى:

وهذا أول تكريم، وأعظم تشريف للعلم، وكفى به شرفا أن جعله الله تعالى صفة من صفاته العلا، واشتق منه أسماءه الحسنى: (العالم، والعلام، والعليم)، وأسنده إلى ذاته العظمى بأساليب شتى، وطرائق عددا، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿**قل إنّما العلْم عِنْد الله ..**﴾ الملك: ٢٦، ﴿.. **وهو بكل خَلْق عليم**﴾ سورة ياسين ٧٩ ﴿.. **إنّه بكل شىء عليم**﴾ الشورى: ١٢.

وسيأتى لذلك مزيد من التفصيل إن شاء الله تعالى.

٢ــ والعلم قرين نعمة الخلق:

فقد أنعم الله تعالى على الكائنات كلها بالخلق بعد العدم، وزودها بنعمة أخرى ــ مع الخلق ــ لتحقيق غاية الوجود وفائدته، وهى (العلم).

ولذلك يقرن القرآن هاتين النعمتين كثيرا مثل قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمٰن * عَلَّم القرآن * خَلَق الإنسان * علَّمه البيان**﴾ الرحمن: ١ : ٤ فالرب المتصف بغاية الرحمة، قرن خلق الإنسان بنعمة العلم ولولا ذلك لما انتفع بنعمة الخلق أحد.

وقال تعالى فى شأن الخلائق عامة:

﴿.. **الذى خَلَق فسوّى * والذى قدّر فهدى**﴾ سورة الأعلى: ٢ : ٣ .

﴿**قال ربُنا الذى أعْطى كلّ شىء خلْقَه ثمّ هَدَى**﴾ سورة طه: ٥٠ .

أى أعطى كل شىء صورة خلقه، ثم زوده بالهدى والإدراك الذى يقيم عليه حياته، ويؤدى به وظيفته، جبلّة أو اختيارا.

ولولا ذلك النور الآلهى الذى اقترن بالخلق، لصارت نعمة الوجود عدما، وضياعا، ومواتا، لأن الجهل قرين العدم، والموت، والخراب.

وهذا من أعظم ألوان تشريف القرآن الكريم للعلم.

٣ ــ وأبرز امتيازٍ لآدم على الملائكة:

فقد سجدت له الملائكة امتثالاً لأمر ربها، ولم يدركوا أسرار هذا التكريم حتى أظهر الله تعالى لهم شرف آدم (**بالعلم**) الذى أعطاه له الله تعالى:

﴿وعَلّم آدمَ الأسْماء كلَّها ثمّ عَرَضَهم علىَ الملائكة فقال أنبِئُونى بأسماء هؤلاء إنْ كنتم صادقين* قالواسبحانكلا عِلم لنا إلاّ مَا عَلَّمْتنا إنَّك أنت العليم الحكيم* قال ياآدم أنْبِئْهم بأسمائهم..﴾ البقرة: ٣١ ــ ٣٣.

٤ ــ وأول القرآن نزولا:

فعلى حين فترة طويلة من الرسل، وانقطاع من الوحى، جدد الله تعالى فضله على عباده بنور القرآن العظيم، ومن العجيب أن يكون أول نجوم القرآن احتفالاً بالغا (**بالعلم**) **ووسائله كما قال تعالى:**

﴿إقْرأ باسم ربك الذى خَلَق* خَلَق الإنسان مِنْ عَلَق* إقرأ وربُّك الأكرم* الذى علم بالقلم* علم الإنسان مالم يعلم﴾ سورة العلق: ١ : ٥.

فأى شرف للعلم أجلّ من هذا التشريف المبين:

فقد أسنده الله تعالى نفسه، واستهل به معجزة القرون، وخارقة الدهور، وجعله أول قطرة من غيثه للناس من بعد ماقنطوا، ثم يكرر الحديث عنه فى خمس آيات قصار لاتبلغ سطرين: فيأمر بالقراءة مرتين، ويمتن بالعلم مرتين، ويذْكر (القلم) الذى هو أداة العلم فى كل العصور، ثم يُذكِّر الإنسان بنعمة رفع الجهل عنه **﴿.. مالم يعلم﴾** وقد اقترن ذلك كله بنعمه الخلق، إيذانا بأن العلم هو روح الوجود، والحياة بعد الإحياء.

ومن المفيد هنا فى فهم شرف العلم أن نتأمل لفظ (**الأكرم**)، والذى يدل على غاية الفضل والامتنان، فإنه لم يرد وصفا لله فى القرآن كله إلا فى هذا

الموضع، وهذا بيان لشرف العلم على سائر النعم، حين قرن بغايه الكرم.

٥ــ والعلم وصف لأكرم الخلق:

فقد مدح الله تعالى بالعلم ملائكته المقربين، ورسله الأكرمين، وأولياءه الصالحين، وجعل العلم ــ فى مواطن الامتنان عليهم ــ من أجلّ عطاياه، وأبلغ فيضه وفضله، قال تعالى فى شأن الملائكة:

﴿وإِنّ عليكم لَحَافظِين * كِرَاماً كاتبين * يَعْلَمون ماتفعلون﴾ الانفطار: ١٠: ١٢.

وقال لرسول الله ﷺ: **﴿.. وعلمّك مالم تكن تَعْلم وكان فضْل الله عليك عظيما﴾** النساء: ١١٣ .

وقال عن أسباب ترشيح طالوت للملك: **﴿.. إِنّ الله اصطفاه عليكم وزَاده بَسْطَةَ فى العِلْم والجِسْم﴾** البقرة: ٢٤٧ .

٦ــ غاية التشريف لأهله:

ومن أجلّ أساليب التشريف، ثناء القرآن الدائم على أهل العلم الصالح، وبلوغه بهم ذروة شاهقة من التكريم، لنسبهم العلمى، وفضلهم فى القيام بحقه حفظاً وضبطاً، وانقيادا وعملا.

وقد تنوعت أساليب القرآن الكريم فى ذلك تنوعاً كثيراً، ومنها:

(أ) ارتضاء شهادتهم على أعظم عقائد الدين:

ففى شهادتهم على (**الوحدانية**) يقول تعالى :

﴿شَهِد الله أنّه لا إِلَه إِلاّ هو والملائكةُ وأولُو العِلْم قائما بالْقِسْط﴾ آل عمران: ١٨.

وفى شهادتهم على القرآن يقول: **﴿أوَلَمْ يكن لهم آيةً أن يَّعلَمَه علماءُ بنى إسرائيل﴾** الشعراء: ١٩٧ .

والمراد الصالحون منهم، كعبد الله بن سلام وأضرابه ممن أسلموا عن

معرفة للحق، وشهدوا بأن القرآن حق وصدق، ومطابق لصحيح كتبهم.

(ب) حصر كمال الصفات الطيبة فيهم:

فهم أهل (الفهم) الكامل دون غيرهم: ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون**﴾ العنكبوت: ٤٣.

وهم أهل (الخشية) الكاملة دون سواهم من الناس: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماءُ**﴾ فاطر: ٢٨.

ثانياً: العلم تكليف قرآنى

فلم يكتف القرآن الكريم بتقرير شرف العلم والعلماء، أو بيان منزلته ومنزلتهم من الفضل، وإنما كلفنا بالعلم، وحثنا على طلبه وتحصيله، تارة على سبيل الأمر والإلزام، وتارة على سبيل الندب والاختيار، حسب نوع العلم وموضوعه، ونهانا عن بعض ضروب العلم الضارة، ورسم لنا أصول ذلك وطرائقه على مانوجز بعضه فيما يلى:

١ ـ العلم المطلوب شرعاً:

وهو الذى كلفنا به القرآن على سبيل (الوجوب العينى) كعلم العقائد جميعا، أو على سبيل (الوجوب الكفائى)، كعلم الفروع، وتفصيلات الأدلة، وما يحتاج إليه المسلمون فى صلاح دنياهم.

وقد ورد فعل الأمر من (عَلِمَ) مسندا للمفرد والجماعة فى القرآن الكريم (إحدى وثلاثين مرة)، كلها تقريباً فى (التكاليف الشرعية):

ففى العقائد يقول تعالى: ﴿**فاعْلم أنّه لا إلَه إلاّ الله**﴾ سورة محمد: ١٩.

ويقول: ﴿.. **واعْلَمُوا أنّ الله يَعْلم مافى أنْفسكم فاحْذَروه**﴾ البقرة: ٢٢٥.

فهذان أمران بوجوب معرفة واعتقاد صفة (الوحدانية)، وصفة (العلم) لله تعالى.

وفى الأحكام الفرعية: ﴿واعلموا أنّما غنِمْتم مِنْ شىء فأنّ لله خُمُسَهُ وللرسول ولذى القربى واليتامى..﴾ الأنفال: ٤١ .

ولكن أكثر استعمال فعل الأمر هنا يكون فى جانب العقائد، تأكيداً وإيجاباً لها، ولا يوجد فى الفروع إلا فى هذا المثال السابق فقط.

ويقع التكليف بغير لفظ (العلم) فى القرآن الكريم كثيراً مثل:

● ﴿وما كان المؤمنون لِيَنْفِروا كافّةً فلوْلا نَفَر مِنْ كلّ فِرْقة منهم طائفة لِيَتَفقهوا فى الدين ولِينذروا قومهم إِذا رَجَعوا إليهم..﴾ التوبة: ١٢٢ .

● ﴿كتاب أَنْزَلْناه إِلَيكَ مُبَارَك لِيَدّبَروا آياتِه ولِيَتَذَكَّر أولو الألباب﴾ سورة ص: ٢٩ .

● ﴿قل انْظروا ماذا فى السموات والأرض﴾ يونس: ١٠١ .

٣ ــ العلم المنهى عنه شرعا:

وهذا تكليف للمسلمين أيضاً بالكف عن تطلب هذا النوع، أو تكلف البحث عنه، أو الاشتغال به، سواء كان هذا العلم صحيحا فى ذاته، أو باطلا.

فالصحيح الذى نهينا عنه هو مااستأثر الله تعالى به ولا سبيل لنا إلى معرفته بالبحث والاجتهاد،كحقيقة ذات الله تعالى، وكيفيات الصفات، وغير ذلك مما سماه القرآن الكريم: (المتشابهات)، وأخبر أنه لايعلمه إلا الله تعالى:

﴿هو الذى أَنزل عليك الكتابَ مِنْه آياتٌ مُحْكَمَات هنّ أُمُّ الكتاب وَأُخَرُ متشابهات فأمّا الذين فى قلوبهم زيْغ فيتَّبِعون ماتشابَه منه ابْتَغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلَم تأويله إلاَّ الله، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كلٌّ مِنْ عِنْد ربِّنا..﴾ آل عمران: ٧ .

فسمى الله تعالى هذا النوع (متشابهات)، ووصف من يتطلب علمها بزيغ القلوب، ورد علمها الحقيقى إلى الله وحده، وبين أن الراسخين فى العلم يؤمنون بها كما جاءت، بلا بحث عن حقائقها، وهذا هو جانب التكليف فيها: الإيمان بها، لا البحث عنها. والله تعالى أعلم.

والعلم الباطل الذى نهينا عنه كالسحر: ﴿**واتَّبعُوا ماتتلو الشياطينُ عَلَى مُلك سليمان وما كَفَر سليمانُ ولكنّ الشياطين كفروا يُعَلِّمون الناسَ السِّحْر..**﴾ البقرة: ١٠٢.

فهذا بيان لكون السحر علما يتعلم، وذم له بنسبته إلى الشياطين، والحكم بكفرهم.

وكالجدل الباطل فإنه أيضاً علم مؤسس على قواعد كاذبة خداعة وقد ذمه الله تعالى ﴿**.. وجَادَلُوا بالباطل لِيُدْحِضُوا به الحقَّ..**﴾ غافر: ٥.

ولا يجوز تعلم هذين وأمثالهما، إلا بقصد إبطالهما، ودفع شرهما عن الإسلام أو المسلمين.

وسيأتى لهذا مزيد بحث إن شاء الله تعالى فى موضعه عند الكلام عن العلم المذموم.

ثالثاً: أقسام العلم فى ضوء القرآن

(العلم) مشترك (**لفظى**) يطلق على علم (الخالق) جل شأنه، ويطلق على علم (المخلوقين)، مع الفارق التام بين العِلمين، والمعنى الذى يليق بكل موصوف فيهما، وخصائص كل علم، على ماهو مقرر ومفروغ منه فى كل مشترك لفظى بين الرب وعبيده.

ويدرك كل قارىء على الفور: الفرق الهائل، والخصائص العظمى، والكمال المطلق، والاتساع المحيط فى علم الله تعالى، لأن القرآن الكريم يسوق ذلك بشتى الأساليب، وأكثرها استيعاباً وبياناً، بحيث يقع التميز المطلق بين العلم الإلهى وغيره بادى الرأى، بلا كدّ ولا إعمال فكر، ولذلك نجد العلم الذى تحدث عنه القرآن ينقسم قسمين متمايزين هما:

القسم الأول: العلم المطلق المحيط:

وهو علم الله تبارك وتعالى، المحيط بكل شىء، والذى قرره القرآن مطلقاً من كل قيا وأرسله غير محدد بحدود، ولا تقف دونه حواجز المكان والزمان،

ولا يختلف باختلاف الظروف والأحوال، ولا يطرأ عليه التغير أو النسيان، وإنما الغيب عنده تعالى شهادة، والسر عنده علانية، وأبعاد الزمان لديه واحدة على سواء.

وقد تنوعت أساليب القرآن الكريم فى إثبات هذه الصفة الإلهية غاية التنوع، واستوعبت الكليات والجزئيات، وعددت طرائق البيان والإثبات، على مانوجزه فيما يلى:

١ ـــ القاعدة الكلية الجامعة :

وهى التى يثبت فيها القرآن هذه الصفة عن طريق ألفاظ العموم والشمول مثل: ﴿.. **وهو بكُلِّ شىء عليم**﴾ البقرة: ٢٩ ـــ ﴿**إِنّ الله كان بكل شىء عليما**﴾ النساء: ٣٢ فلفظ: (كُلّ) أداة من أدوات العموم، وقد أضيف إلى لفظ عموم آخر وهو النكرة: (شىء)، لإثبات العموم المطلق للعلم الإلهى الجليل.

وقد تكررت هذه العبارة فى القرآن الكريم وتنوعت مثل:

﴿.. **وَسِعَ ربُّنا كلَّ شىء عِلْما** ..﴾ الأعراف: ٨٩ .

﴿.. **أَوَلَمْ يَكْفِ بربك أنَّه على كلّ شىء شهيد**﴾ .

﴿.. **ألا إِنه بكل شىء محيط**﴾ فصلت: ٥٣، ٥٤ .

﴿.. **وأَنّ الله قد أحاط بكل شىء علما**﴾ الطلاق: ١٢ .

ونلاحظ تكرار عبارة: ﴿**كل شىء**﴾ مع ألفاظ عموم أخرى تؤكد عمومها وهى: **السعة، والشهادة، والإحاطة**، مما يعطى **(قاعدة كلية)** تفيد شمول العلم الإلهى لجميع الأمور الكلية والجزئية .

٢ ـــ تأكيد العلم بالجزئيات:

ولم يكتف القرآن العظيم بدخول (علم الله للجزئيات) تحت عموم هذه القاعدة، وإنما أفرد ذلك بنصوص بالغة غاية الكثرة، والتنوع، تثبت علم الله

تعالى للجزئيات بأجناسها، وأنواعها، وذواتها، ودقائق أسرارها، وأخفى خفياتها، حتى يقطع الطريق على أضاليل الجدل البشرى، وأوهام الفلاسفة التى تحصر علم الله تعالى فى الكليات دون الجزئيات[١]، وهى ظنون وتخرصات تسربت إلى الفكر، من استعمال العقل فى غير مجاله وميدانه، وصدق الله العظيم: **﴿.. إِنْ يَتَّبِعُون إِلاّ الظَّن وما تَهْوَى الأَنْفسُ ولقد جاءهم مِن رَّبهم الهدى﴾** النجم: ٢٣ .

ومن جوامع هذا الهدى الربانى قوله تعالى:

﴿وما تكون فى شأن، وما تتلو مِنْه قرآن، ولا تعملون مِنْ عمل إِلاَّ كُنَّا عليكم شُهُودا إِذْ تُفِيضُون فيه، وما يَعْزُب عَن ربك مِن مّثقال ذَرَّة فى الأرض ولا فى السماء، ولا أصغرَ مِنْ ذلك ولا أَكْبَرَ إِلاَّ فى كتاب مبين﴾ سورة يونس: ٦١ .

فالآية الكريمة تثبت علم الله تعالى بكل حال أو صفة يكون عليها المخاطب: (النبى ﷺ وغيره) مثل قراءة القرآن، أو القيام بعمل ما .

وهذا العلم الإلهى هو ــ كله ــ علم حُضور (وشُهود) مباشر، لاعلم (حُصُول) بواسطة مّا، كما هو شأن الخلائق فى أحد فرعى العلم عندها: (الحضور أو الحصول) .

والآية الكريمة تثبت علم الله تعالى بما هو (أصغر) من الذرة، وهو مايسمى الآن (بالجُزَىْء)، وهذا ضرب من الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم، لأن علوم البشر قديماً كانت تجمع على أن (الذَّرَّة) هى الجزء الذى لايتجزأ، ولا يقبل الانقسام أصلاً، ثم جاءت العلوم الحديثة فأثبت أن للذرة (جزيئيات) تنقسم إليها، وأن انشطارها يحدث قوة هائلة لاعهد للناس بها، وهذا تصديق بالغ الدلالة للقرآن، ولما أثبته من إحاطة علم الله تعالى بالجزئيات وما دونها، والتى تقع وفق ماقال الله عز شأنه[٢] .

---

(١) انظر كتاب تهافت الفلاسفة للغزالى حيث يرد على هذه الضلالة الفلسفية .

(٢) ينبغى هنا تأمل قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهم آياتِنا فى الآفاق وفى أنفسهم حين يتبين لهم أنّه الحق أوَلَمْ يَكْفِ بربك أنّه على كل شىءشهيد﴾ فصلت: ٥٣ .

ثم تثبت الآية الكريمة فى ختامها أمراً بالغ الأهمية فى شأن العلم الإلهى، وهو أنه لايحدث من شهود الواقع، وإنما هو علم قديم انكشفت به الأشياء قبل وقوعها، ولذلك سطرت فى (كتاب مبين) وهو اللوح المحفوظ، الذى ورد ذكره فى آيات أخرى كثيرة.

٣ــ المجالات التى ينفرد بها العلم الإلهى:

وقد أبرز القرآن العظيم المجالات الواسعة التى يختص بها العلم الإلهى، لايشاركه ولا يقاربه فيها أحد من الخلائق، ولا يحوم حول حماها عقل عاقل، إلا إذا جُنَّ، أوْ لجّ فى الهذيان، واستطال فى الأوهام، ومن ذلك:

(أ) علم الغيب جملة:

فلا يعلمه فى ماضيه، وحاضره، وقابله، إلا الله تعالى، وهو الذى يأذن لمن شاء فيطلعه على أجزاء وتفاريق من الغيوب، لاتصلح أن تكون علماً ذاتياً لصاحبها، ولا مطلقاً، ولا دائماً:

﴿**قُلْ لايعلم مَن فى السموات والأرض الغيبَ إلا الله..**﴾ النمل: ٦٥.

﴿**عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحدا * إلاّ مَنِ ارْتَضَى مِن رّسول..**﴾ الجن: ٢٦، ٢٧.

﴿**ولا يُحيطون بشىء مِنْ عِلْمه إلاّ بما شاء..**﴾ البقرة: ٢٥٥.

وقد نص القرآن على بطلان علم الغيب عن كل من توهم الناس قدرتهم على ذلك (كالملائكة، والرسل، والجن، والكهان، والشياطين) وسيأتى ذلك تفصيلا إن شاء الله بعد قليل.

(ب) مفاتيح الغيب خاصة:

وهى أمور من غيب المستقبل، وخصت بالذكر لانقطاع كل سبب إليها، وانطماس المعالم التى يمكن أن تدل عليها، كما قال تعالى:

﴿**وعِنْده مَفَاتِحُ الغيب لايعلمها إلاّ هُو..**﴾ الأنعام: ٥٩.

وقد جاء تفصيلها فى قوله تعالى:

﴿إِنّ الله عنده عِلْمُ السّاعة، ويُنَزِّل الغيث، ويَعْلم مافى الأرحام، وما تَدْرى نفس ماذا تَكْسِب غدا، وما تدرى نفس بِأىِّ أرض تموت إِنّ الله عليم خبير﴾ لقمان: ٣٤ .

وفى الحديث الشريف: «.. فى خمس من الغيب لايعلمهن إلا الله»[1] ثم تلا هذه الآية.

(جـ) أخفى الخفيات:

مثل دخائل الصدور، وخواطر النفوس، وخفيات الوجدان الباطنى، وسحائب الأفكار الهائمة فى (الشعور)، وما (وراء) الشعور، كل ذلك لايعلمه علما كليا كاملا إلا الله رب العالمين، بل إن الإنسان الذى تدور فى أعماقه هذه الأمور، لايستطيع أن يحصيها، أو يحيط بها، ولذلك يتابع القرآن تقرير هذه القضية، وتأكيدها فى مواطن عديدة مثل قوله تعالى:

﴿وإِنْ تَجْهر بالقول، فإِنه يَعْلَم السِّرَّ، وأَخْفى﴾ سورة طه: ٧ .

فهذه ثلاث مراتب: (الجهر، والسر، وأخفى منه)، وكلها سواء فى علمه تعالى، بل يقرر القرآن أنها أمر سهل يسير على الله عز وجل:

﴿وأَسِرُّوا قوْلكم، أَوِ اجْهَرُوا به، إِنّه عليم بذات الصدور * أَلاَ يعلم مَنْ خَلَقَ وهو اللطيف الخبير﴾ الملك: ١٣، ١٤ .

وهذا أيضاً إثبات للمراتب الثلاثة، وتعليل ليسر علمه تعالى بها، لأن الخالق يعلم أسرار مخلوقه، وهو بذاته (اللطيف) أى: «العارف بدقائق الأمور»، (الخبير) أى: العالم ببواطن الأمور، أو المخبر بها عن علم محيط بها .

ومن هذا النوع قوله تعالى:

﴿وعنده مفاتِحُ الغيب لايعلمها إلاَّ هو، ويعلم مافى البر والبحر، وما تسقط من وَّرَقَة إِلاَّ يعلمها، ولا حَبَّةٍ فى ظلمات الأرض، ولا رَطْب، ولا يابس إِلاَّ فى كِتاب مبين﴾ الأنعام: ٥٩ .

---

(١) صحيح مسلم جـ١ ص٣١ من حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا (فى حديث جبريل عليه السلام) .

د ــ حقائق الأشياء وكُنه الذوات :

فالبشر يعلمون ظواهر الأشياء، أو يكتشفون خصائص المادة بالتجارب، أو يصفون مايتبدى لهم من أسرار الحقائق.

أما الحقائق نفسها، أوكنه الذوات، فلا يستطيع علم الخلائق أن يحيط بها خبرا، أو يعرف لها أصلا، وإنما علمها عند الله تعالى وحده .

فنحن نعلم بعض ظواهر (الروح) من إعطاء الحركة، والحس، والنماء أى (مابه الحياة)، أما حقيقة الروح فمجهولة لنا تماماً :

﴿وَيَسْألونك عَنِ الرُّوح قل الرُّوح مِنْ أَمْر رَبِّى وما أوتِيتُم مِنَ العْلَمْ إلاَّ قليلا﴾ الإسراء: ٨٥ .

ونحن نعلم أن «المغناطيس» يجذب الحديد، ولكن لايستطيع أحد أن يقطع بمعرفة حقيقة هذا الأمر، وسره الصحيح، ولا يزال ذلك يحير علماء الماده وصدق الله: **﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا..﴾** الروم: ٧ .

٤ ــ عجائب القرآن فى تصريف ألفاظ العلم الإلهى:

وقد تبين لى من النظر فى الآيات الكريمة مجتمعة، حقائق قرآنية فى تصريف الألفاظ، تبدى لوناً عجيباً من أسرار الإعجاز القرآنى، وكيف رتب الألفاظ وفق تخطيط باهر، ووضع كل لفظ منها فى نظام مطرد، ليترتب عليه قيام (الموضوع) متناسقاً مترابطاً، كأن كل عنصر منه قد جمع على حدة، ومرة واحدة، مع مانعلم من تباعد الزمان بين نجوم القرآن، وهذا دليل جلى على أنه لايمكن أن يكون إلا من عند الله تعالى، تماماً كما قرر القرآن فى هذا الشأن:

﴿وما كان هذا القرآن أنْ يُفْترى مِنْ دون الله، ولكِنْ تَصْدِيقَ الذى بين يديه وتفصيلَ الكتاب لاريْب فيه مِن رَّب العالمين﴾ يونس: ٣٥ .

وهذه بعض الحقائق التى استخلصتها من النظر الموضوعى فى الآيات الكريمة:

(أ) لفظ (عالم) المفرد ورد فى القرآن (ثلاث عشرة مرة)، ولم يرد إلا

وصفا لله تعالى فى جميعها، وكأنه تنبيه على أن لفظ (عالم) لايليق بإطلاقه إلا على الله تعالى، فهو متفرد بالعلم لفظاً ومعنى.

وقد أضيف هذا اللفظ فى (ثلاثة) مواضع إلى (الغيب) فقط، وإلى (الغيب والشهادة) فى الباقى، وهذا أيضاً تنبيه إلى سبب آخر فى إفراد اللفظ، وهو تفرد موصوفه بما أضيف إليه، والله أعلم.

ومثال ذلك: ﴿**قُلْ بلى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكم عالِمِ الغيب**﴾ سبأ: ٣.

وقوله تعالى: ﴿**عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم**﴾ التغابن: ١٨.

(ب) لفظ (**علّام**) بصيغة التكثير ورد فى القرآن (أربع مرات) كلها وصف لله تعالى، لأنه لاتليق هذه الصيغة إلا به سبحانه وتعالى، وقد وردت كلها مضافة إلى (الغيوب) بالجمع لتتناسب الكثرتان، وليتآكد اللفظان: ﴿**قل إِنَّ ربىّ يَقْذِف بالحق علّام الغُيوب**﴾ سبأ: ٤٨.

(ج) لفظ (**العليم**) معرفة ورد فى القرآن (ثنتين وثلاثين مرة) كلها وصف لله تعالى.

قال تعالى: ﴿.. **ذلك تقْدير العزيز العليم**﴾ فصلت: ١٢.

لأنه لايليق بغيره أن يوصف بصيغة التكثير المعرّفة، لأنها هنا اسم من اسمائه الحسنى.

(د) لفظ (**عليما**) نكرة (منصوبة) ورد فى القرآن الكريم (ثنتين وعشرين مرة) كلها أيضاً وصف لله تعالى مثل ﴿.. **وكان الله عليماً حكيما**﴾ الفتح: ٤.

ويلاحظ اقتران (كان) به، وهى تفيد الاستمرار فى جنب الله تعالى، وهذا معنى لايليق بغيره سبحانه.

(هـ) لفظ (**عليم**) نكرة (مرفوعة ومجرورة) ورد فى القرآن الكريم (١٠٨) مرة كلها وصف لله تعالى أيضا، إلا فى (ثلاثة) مواضع وردت وصفا ليوسف عليه السلام: ﴿.. **إِنى حَفِيظٌ عليم**﴾ يوسف: ٥٥. ولإسحاق عليه السلام: ﴿.. **بغُلامٍ عليم**﴾ الحجْر: ٥٣،

والذاريات: ٢٨ .

وهذا الوصف راجع فى الحقيقة إلى الله تعالى، لأن علم الأنبياء كله هو منه جل شأنه، لأنهم بشر (يوحى إليهم) وهذا وجه التميز.

وقد ورد هذا اللفظ أيضاً وصفا لسحرة فرعون فى (أربعة مواضع) مثل: ﴿يَأْتُوك بكل سحّار عليم﴾ الشعراء: ٣٧ .

وهذا اللفظ أورده القرآن الكريم على لسان فرعون وملئه، وهو من غلوّهم فى استعمال الألفاظ، وذِكْرُ القرآن له لايدل على صحة الاستعمال، فقد قصّ على لسان فرعون ادعاء الألوهية، والربوبية، وهذا أبطل الباطل بلا خلاف، هذا فضلا عن أنّ (عليم) وصف مُنَكّر، لايدل على الاختصاص.

فتحرر من هذا أن القرآن الكريم لايقر استعمال اللفظ إلا فى جانب علم الله تعالى ذاته، وهذا هو الأكثر: (١٥٥ موضعا) .

أو فى تعليم أنبيائه وهذا قليل جدا: (ثلاثة مواضع). أما أوصاف السحرة فهو مما قصه القرآن عن أقوال الكفار، والله أعلم بأسرار كتابه.

(و) لفظ (أعْلَمُ) الذى هو أفعل تفضيل، والذى يدل على كمال العلم، وامتيازه فى ذاته، أو بالنسبة لغيره.

هذا اللفظ ورد فى القرآن (٤٨) مرة كلها راجعة أو مسندة إلى الله تعالى وحده لأن له الكمال الأعلى فى العلم، وسائر الصفات، قال تعالى: ﴿.. الله أعْلَمُ حيْثُ يْجعلُ رِسَالَته..﴾ الأنعام: ١٢٤ .

وقد جاء (مرة واحده) مسنداً إلى الملائكة الذين أرسلهم الله إلى إبراهيم عليه السلام بالبشرى، ولإهلاك قوم لوط:

﴿قال إنَّ فيها لُوطاً، قالوا نَحنْ أعْلَمُ بِمَنْ فيها..﴾ العنكبوت: ٣٢ .

وبداهة فإن هذا علم راجع إلى الله تعالى، والمعنى نحن أعلم بمن فيها، بما علمنا الله تعالى، كما قال تعالى عنهم ﴿سبحانك لاعِلْم لنا إلا ماعلَّمْتنا﴾ البقرة: ٣٢ .

(ز) لفظ (اعْلَمْ) الذى هو فعل أمر، ورد فى القرآن الكريم (إحدى وثلاثين) مرة، مسند للمفرد، أو (واو) الجماعة، وكلها تقريباً أمر بشيء فى الاعتقاد ﴿فاعْلَمْ أنّه لا إلاّ الله..﴾ سورة محمد: ١٩.

﴿.. واتّقوا الله واعْلَموا أنّكمُ إليه تُحْشَرُون﴾ البقرة: ٢٠٣.

﴿.. فاعْلموا أنّما عَلَى رَسُولِنا البلاغ المبين﴾ المائدة: ٩٣.

ذلك لأن الاعتقاد يقوم على الإيجاب والإلزام، فأولى الأساليب به هو صيغة فعل (الأمر)، لأن الأصل فيه الوجوب.

(ح) لفظ (عَلَّمْنَاه) المسند إلى ضمير العظمة (نا) ورد فى القرآن (أربع مرات) كلها مسندة إلى الله تعالى إيجابا أو نفيا، لأن هذه الصيغة لاتليق على الحقيقة إلا به سبحانه وتعالى، ومن أمثلتها:

﴿وعلّمْناه صَنْعة لَبُوسٍ لكم﴾ الأنبياء: ٨٠.

﴿وما علّمناه الشّعْرَ وما يَنْبَغى له..﴾ سورة ياسين: ٦٩.

فتحصّل من هذا كله:

أن القرآن الكريم يدير الألفاظ، ويصرّف مواقعها فى الموضوع الكلى، من خلال خطة، ونظام، وترتيب بالغ:

● فكل مقام ينبغي فيه إفراد الله تعالى، لايطلق القرآن اللفظ على غيره أبدا مثل: (العالِمُ ـــ العلّام ـــ العليم).

● وكل مقام يتسع فيه الإطلاق، يطلق اللفظ على أصله فى وصف العلم الإلهى غَرَضاً، ويطلقه على غيره عَرَضًا وتبعا، مثل (عليم) المجرد من (أل).

● وكل مقام يقتضى التعظيم يسند اللفظ لله وحده مثل: (أَعْلَمُ ـــ علّمناه).

● وكل مقام يقتضى التأكيد جاء فيه بلفظ (الأمر) مثل: (اعْلَم ـــ اعْلَموا) والله تعالى أعلم بأسرار كتابه العظيم.

٥ ـ النتائج التي يرتبها القرآن على العلم المطلق:

والقرآن الكريم لايقصد بهذا التقرير الأوفى عن العلم الإلهي مجرد البيان والمعرفة، وإنما لتكون عقيدة راسخة في القلوب، ووجهة عملية في السلوك، وإجلالاً وتقديراً لصفات الله تعالى، وما بنى عليها من شرائع الحق.

ولذلك رتب القرآن جملة من النتائج على ماقرره من علم مطلق لله رب العالمين، ومن هذه النتائج بإيجاز شديد:

١ ـ وجوب مراقبة الله، وخشيته، والتوكل عليه، وتفويض الأمر إليه، قال تعالى: ﴿**واعلموا أنّ الله يَعْلم مافى أنْفسِكم فاحْذَروه واعلموا أن الله غفور حليم**﴾ سورة البقرة: ٢٣٥ .

﴿**وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه**﴾ البقرة: ٢٧٠ .

٢ ـ تقرير قدرته تعالى على البعث والإعادة:

إذ كانت قضية البعث إحدى معضلات العقل البشرى، التى تصيبه بالحيرة البالغة، والشك القاتل، من حيث جمع الأجزاء بعد تفرقها، واختلاط ذرّاتها بالتراب، وتداخل العناصر فيما لايحصى من الأجساد، ولذلك استغرب الكفار فى كل العصور قضية البعث، واستبعدوها، بل وأنكروها جملة، لأنهم قاسوا علم الله تعالى المطلق، بعلم الإنسان المحدود(١)، لذلك ربط القرآن الكريم بين البعث، وبين كمال علمه جل شأنه، ليبين للناس سهولة البعث عليه، لإحاطه علمه بالأحياء والأشياء إحاطة دائمة تامة، قال تعالى:

﴿**.. فقال الكافرون هذا شيءعجيب * أَإذا مِتْنا وكُنّا تُرَابا ذلك رَجْع بعيد * قدْ عَلِمْنا ماتنْقُصُ الأرضُ مِنْهم وعندنا كتاب حَفِيظ**﴾ سورة ق: ٢ ـ ٤ والمعنى والله أعلم:

أن الكفار تعجبوا من البعث، واستنكروا الإعاده بعد تفرق الأجزاء فى

---

(١) اقتصرنا فى الكلام على العلم فقط لأنه موضوعنا، وإن كانت القضية متعلقة بالعلم، والقدرة وغيرهما من صفات الله تعالى.

التراب، وزعموا أن ذلك رجع فى غاية البعد عن الوهم، أو العادة، أو الإمكان.

وقد ردّ الله تعالى عليهم استبعادهم بشمول علمه، وبحفظ كل شىء فى كتاب وثيق، فكيف تستغرب الإعاده حينئذ؟

«فإن مَنْ عمّ علمه ولطفه حتى انتهى إلى حيث علم ماتنقص الأرض من أجساد الموتى، وتأكل من لحومهم، وعظامهم، كيف يستبعد أن يرجعهم أحياء كما كانوا؟»(١).

وحين استنكر العاص بن وائل أمر البعث، وأخذ عظما من البطحاء فَفَتَّه بيده، ثم قال لرسول الله ﷺ: أيحيى الله هذا بعد ماأرم؟ نزلت الآيات من آخر سورة ياسين(٢) بجواب شامل عن قدرته تعالى، وسعة علمه، فقال تعالى:

﴿وَضَرَبَ لنا مَثَلاً ونَسِىَ خَلْقه قال مَنْ يُحْيِى الْعظَام وهى رَمِيم * قل يحييها الذى أنْشَأَها أوّل مرّة وهو بكل خَلْق عليم﴾ سورة ياسين: ٧٨، ٧٩

٣ ـ تفردهُ تعالى بالتشريع وسَنّ الأحكام:

لأن الذى يتولى وضع المناهج والشرائع لابد أن يتصف بما يؤهله لذلك، وأوّله كمال العلم، حتى يشرع للناس على سلامة واستقامة، وإلاّ ضَلّ وأضل، وأهلك نفسه وغيره بجهله وهواه.

لذلك يذكرنا الله تعالى بعلمه المحيط كلما امْتَنَّ على الناس بشرعه، أو كلما استنكر عليهم أن يشرعوا مالم يأذن به الله، فيقول تعالى:

﴿.. وأنْزَل الله عليك الكتاب والحِكْمة وعلَّمك مالَمْ تكن تَعْلم وكان فضْلُ الله عليك عظيما﴾ النساء: ١١٣.

﴿كُتِبَ عليكم القتالُ وهو كُرْه لكم وعسى أنْ تَكْرَهُوا شيئا وهو

---

(١) انظر تفسير أبى السعود فى أول سورة (ق).

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك وقال صحيح على شرط الشيخين (انظر كتاب: الصحيح المسند من أسباب النزول ص١٢٩).

خير لكم، وعسى أنْ تُحِبّوا شيئا وهو شرّ لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون﴾ البقرة: ٢١٦ .

ويقول تعالى تعقيبا على النهى عن عضْل المطلقات[1]: **﴿.. ذلك أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لاتعلمون﴾** البقرة: ٢٣٢ .

ويقول تعالى: **﴿.. إنّه بكل شىء عليم * شَرَع لكم مِنَ الدّين ماوَصّى به نوحا والذى أوْحينا إليك..﴾** الشورى: ١٢، ١٣ .

ويقول تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: **﴿ثم جعلناك على شريعة مِنَ الأَمْر فاتَّبِعْها ولا تَتَّبع أهواء الذين لايعلمون﴾** الجاثية: ١٩ .

وهذا تنبيه على أن شرائع الكفار قائمة على الجهل، ولذلك سمى مذهبهم وملتهم باسم: (**الجاهلية**)، وهو أجمع وصف اختاره الله تعالى لمناهج البشر، إيذانا بأن علة ضلالها الكبرى هى جهل واضعيها بحقائق الحياة، وخصائص الإنسان، كما أن فضيلة **الإسلام** الكبرى هى صدوره عن (عالم الغيب والشهادة)، على ماقرره القرآن العظيم فى تلك المقارنة البالغة:

﴿أَفَحُكْم الجاهليّة يَبْغُون ومَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله حُكْماً لقوم يوقنون﴾ المائدة: ٥٠ .

القسم الثانى: العلم المحدود .

وهو علم المخلوقات جميعاً، فقد أعطى الله لكل خلق علما أو إدراكاً يتدرج به فى مراتب متفاوتة، وكلها بجانب علم الله تعالى على غاية القلة، وإن تفاوتت فيما بينها تفاوتاً كبيراً، كما قال تعالى فى آية جامعة:

﴿.. نَرْفَع دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاء وفَوْق كل ذى عِلْمٍ عليم﴾ يوسف: ٧٦ .

والمعنى: أن فوق كل صاحب علم من الخلائق، من هو أعلم منه، أو فوق كل ذوى علم منهم (عليم) وهو الله تعالى.

وقد تحدث القرآن الكريم عن أصناف الخلائق، وأثبت لكل منها علما

---

(١) العضل: التضييق، والمراد النهى عن منع المطلقة من العودة إلى زوجها إذا أرادت .

يناسبها، وإدراكاً يلائم فطرتها، وقد قدمنا أن (العلم قرين الخلق)، ولصيق به لصوق الروح بالجسد، وأن هذا أمر عام فى كل الخلائق على مانوجزه فيما يلى:

١ ــ علم الملائكة :

وهو علم خير وبر، علموه من الله تعالى، فهو علم مقيد محدود بجانب علم الله المطلق، وليس لهم استقلال بالعلم، أو اطلاع على الغيب إلا بما شاء الله تعالى. وفى هذا رد على من عبدوهم، وزعموهم بنات الله، وأن لهم علما شاملا، وقدرة نافذة؛ وهذه كلها أباطيل يدحضها القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿**وعَلَّم آدَمَ الأسْماء كلّها ثُمّ عَرَضَهم عَلَي الملائكة فقال انْبِئُونى بأسْماء هؤلاء إن كُنْتم صادقين* قالوا سبحانك لاعِلْم لنا إلاّ ماعلَّمتنا إنك أنت العليم الحكيم**﴾ البقرة: ٣٢ .

٢ ــ علم الرسل بالوحى والدين:

وهو علم عظيم جليل، وقد تلقوه من الله تعالى، فهو علم محدود بجانب علم الله، وهو علم مستمد من وحى الله، ولا مدخل للرسل عليهم السلام فيه إلا بالبلاغ، والتطبيق، لذلك كان كل ماجاؤا به هو حق وصدق، قال تعالى: ﴿**وما أرْسلنا مِنْ قبلك إلا رِجَالاً نُوحِى إليهم..**﴾ النحل: ٤٣ .

والقرآن الكريم يورد على ألسنة الرسل نسبة علمهم إلى الله تعالى:

﴿**أبَلِّغكم رسالات ربى وأنْصح لكم وأعْلَمُ مِن الله مالا تعلمون**﴾ الأعراف: ٦٢ .

ويقول يعقوبَ عليه السلام لأولاده: ﴿**.. إنى أعلم من الله مالا تعلمون**﴾ سورة يوسف: ٩٦.

﴿**قل لاأَقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ..**﴾ الأنعام: ٥٠.

٣ ــ علم بقية الخلائق :

والقرآن الكريم يثبته ــ كما قلنا ــ لأصناف شتى من الخلائق مثل:

أ ــ البشر عامة: قال تعالى: ﴿علّم الإنسان مالم يعْلم﴾ العلق: ٥ .

ب ــ الجن: وعلمهم أيضاً محدود قاصر:
﴿.. فلما خرَّ تَبيّنت الجنّ أن لَّوْ كانوا يَعْلمون الغيب مالَبِثُوا فى العذاب الْمُهين﴾ سبأ : ١٤ .

جـ ــ الشياطين: وهم مردة الجن وعتاتهم، ولهم علوم فى الشر والضلال كما قال تعالى: ﴿واتّبعوا ماتَتْلو الشياطينُ عَلَى مُلْك سليمان وما كَفَرَ سليمانُ ولكنَّ الشياطين كفروا يُعَلّمون الناسَ السِّحْرَ..﴾ سورةَ البقرة: ١٠٢.

وعلمهم أيضاً محدودة قاصر : ﴿ وما تَنَزَّلَتْ به الشياطين * وما ينبغى لهم وما يستطيعون * إنّهم عَنِ السَّمْع لَمَعْزُولون ﴾ سورة الشعراء : ٢١٠ : ٢١٢ .

د ــ الحيوانات والطيور ونحوهما: وقد أثبت القرآن الكريم لبعضها بذاته علما وإدراكا، فوق النوع الفطرى الجبلّىّ الموجود عند الجميع، قال تعالى: ﴿.. قل أُحِلّ لكم الطيباتُ وما عَلَّمْتُم مِنَ الْجَوارح مُكَلِّبين تُعَلِّمُونَهُنّ مما علّمكم الله..﴾

والمراد بالجوارح: «الكواسب من الكلاب، والسباع، والطير»(١).
ومعنى (مُكَلِّبين): مأخوذ من كلَّب الكلب ونحوه من الجوارح، علَّمه أن يصيد، أو يأتى بما يصاد.

والآية الكريمة تثبت أن هذه (الجوارح) قابلة للتدريب، ولتعلّم الصيد، وفق الشروط الشرعية التى علمها الله للإنسان، كما هو مفصل فى التفسير .

وقال تعالى عن هدهد سليمان، الذى هدى الله به أمة إلى الإسلام: ﴿فَمَكَثَ غَيْر بَعِيد فقال أَحَطّت بما لم تُحِطْ به وجئتك مِنْ سَبَأٍ بِنَبَا يقين﴾ النمل: ٢٢ .

---

(١) تفسير الجلالين، وحاشية الجمل .

والإحاطة هى العلم الشامل لجوانب الموضوع.

وقد أثبت القرآن أن للطير منطقاً: ﴿.. **عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطير ..**﴾ سورة النمل: ١٦ .

وأن لها عبادة: ﴿.. **والطَّيْرُ صافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَه وتسبيحَهُ**﴾ النور: ٤١ .

وأثبت للحشرات كلاما وفهما: ﴿.. **قالتْ نملة يأيها النمل ادخلوا مَسَاكِنكم لايَحْطِمَنَّكم سليمانُ وجنودُه وهم لايشعرون**﴾ سورة النمل: ١٨ .

وأثبت للجميع نظام التجمع والارتباط كل على نمط يليق به: ﴿**وما مِنْ دابّة فى الأرض ولا طائرٍ يطير بجناحيه إلاَّ أُمَمٌ أمثالكم..**﴾ الأنعام: ٣٨ .

وهذه حقائق وتقريرات سبق بها القرآن، وأثبتها، قبل أن تقوم بعض الدراسات العلمية المعاصرة لإثبات أجزاء وتفاريق منها، وتستخدمها فى ترويض الوحوش، والحيوانات البرية والبحرية، وتعليمها القيام بمهام عجيبة فى السلم والحرب، وهذا مصداق واقعى بليغ لحقائق القرآن العظيم .

هـ ــ **الأشياء المسماة (بالجمادات)** : والقرآن الكريم يثبت لهذه الأشياء إدراكاً ما، والإنسان هو الذى أطلق عليها هذا الوصف بلا دليل، ومعياره فى هذا معيار تحكمى باطل، لأنه يريد أن يخضع الكائنات لمقاييسه، أو لمعارفه المحدودة، ولذلك يلجأ إلى الإنكار أو التأويل، ولو أنصف لرد العلم إلى الله ﴿**الذى يَعْلم السرَّ فى السموات والأرض**﴾ الفرقان: ٦ .

وبالاختصار:

أثبت القرآن العظيم للجبال، والشمس، والقمر، ومادة الكون فى السموات والأرض، (ولكل شىء) مما نسميه جمادات ــ أثبت لها إدراكا لايعلم حقيقته إلا الله ومن ذلك:

﴿إنّا سخرنا الجبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْن بِالعَشىّ والإشْرَاق﴾ سورة ص: ١٨ .

﴿تُسَبِّح له السموات السبع والأرض ومَنْ فيهنّ وإن مِنْ شىء إلاَّ يُسَبّح بِحَمْدِه وَلَكِن لاتفْقهون تَسْبِيحهُم..﴾ الإسراء: ٤٤ .

والآية الكريمة تثبت التسبيح لمادة السموات والأرض، ثم لمن يسمون اصطلاحاً بالعقلاء: (ومن فيهن)، ثم تثبت ذلك لكل شىء بَعْدُ على سبيل الإطلاق التام: ﴿وإن من شىء إلا يسبح بحمده﴾، لأن (شىء) نكرة وقعت فى سياق النفى، وسبقت بلفظ (مِنْ) الذى يدل على تمام الاستغراق للأفراد .

وتثبت الآية الكريمة أن هذا تسبيح حقيقى، وليس مجرد تسخير،أو بلسان الحال (كما يقول بعض المفسرين)، لأن ذلك يفقهه كل مسلم، ولا يصح نفيه عنه، فتبين أن المراد إثبات الحقيقة التى تستغربها العقول، والله أعلم.

ومن أجمع الآيات فى ذلك أيضاً قوله تعالى:

﴿إنّا عَرَضْنا الأمَانَة عَلَى السموات والأرض والجبال فَأَبَيْن أنْ يَحْمِلْنها وأشْفَقْن مِنهْا وحَمَلَها الإنسان إِنّه كان ظَلُوماً جَهُولاً﴾ الأحزاب: ٧٢ .

والآية الكريمة صريحة فى أن الله تعالى عرض على أعيان هذه المذكورات أمانة التكليف الاختيارى، الذى يترتب عليه الثواب والعقاب، فأدركن العرض، وكنّ على غاية الحكمة حين أَبَيْنَه خوفاً من الله تعالى.

وما أحسن قول الفخر الرازى رحمه الله: «لم يكن إباؤهن كإباء إبليس فى قوله تعالى: ﴿أَبَى أَنْ يكون مع الساجدين﴾، من وجهين:

أحدهما: أن هناك السجود كان فَرْضاً، وهاهنا الأمانة كانت عَرْضا.

وثانيهما: أن الإباء كان هناك استكبارا، وهاهنا كان استصغاراً، استصغرن أنفسهن بدليل قوله تعالى: ﴿وأشفقن منها..﴾..»(١)

والحمل على الحقيقة فى هذه الآيات – وأمثالها – هو المذهب الراجح ، بل هو مذهب السلف جميعاً رضى الله عنهم ، بلا خوض فى الكيفيات ، ويردّ علمها إلى الله تعالى .

---

(١) تفسير الفخر الرازى: (مفاتيح الغيب) فى آخر سورة الأحزاب .

ومن العلماء من يحملها على المجاز والكلام بلسان الحال، لابلسان المقال، وهذا عدول عن الحقيقة بلا ضرورة، وصرف لظاهر القرآن بلا مقتض، ولذلك لجأ أصحاب هذا المذهب إلى التكلف والاعتساف أحياناً فى تأويل النصوص الظاهرة، والتى لاتحتمل التمثيل والمجاز، كآيتى الإسراء والأحزاب السابقتين، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

علم المخلوقات ضربان:

وبالنظر فى آيات هذا الموضوع مجتمعة، نجدها تتحدث عن (العلم) بمعناه الشامل لعلوم الدين والدنيا، والمعاش والمعاد، وللعلوم النظرية والعملية، ونستطيع رد هذا كله إلى ضربين جامعين:

الأول: العلوم الوهبية:

وهى العلوم التى أعطاها الله تعالى لخلقه هبة منه، بلا كدّ ولا تعب منهم، لأنها فى الحقيقة خارجة تماماً عن حدود قدرتهم واستطاعتهم، وهذا القسم ضربان:

أ ـــ **العلم الجِبِلِّى الفطرى**: الذى زود الله تعالى به كل كائن، ليقوم بوظيفته فى الوجود، وهو علم مقترن بالخلق كما قلنا سابقاً، وقد قرره القرآن فى آيات كثيرة من أجمعها قوله تعالى:

﴿قال ربنا الذى أَعْطَى كلّ شىء خَلْقه ثُمَّ هَدَى﴾ سورة طه: ٥٠.

وتفصيلات ذلك فى القرآن الكريم كثيرة جداً مثل قوله تعالى:

﴿وأَوْحى ربُّكَ إلى النَّحْل أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجبال بُيُوتاً ومِنَ الشَّجر ومِمّا يَعْرِشُون * ثُمَّ كُلِى مِنْ كل الثمرات فاسْلُكِى سُبُلَ ربّك ذُلُلاً يخرج مِنْ بُطونها شراب مُخْتِلف ألوانُه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ النحل: ٦٨، ٦٩.

وبالنسبة إلى الإنسان يقول تعالى عن هذا العلم الفطرى الذى زوّدنا به:

﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا، وجعل لكم السمع، والأبصار، والأفئدة..﴾ النحل: ٧٨.

أى أن أدوات العلم ووسائله كانت كامنة فى أصل الخلق، ثم تظهر تباعاً: فينسمع، ويبصر، ويفقه الأمور، هبة من الله تعالى.

ب ــ **العلم الشرعى الدينى**: وهو العلم الذى يعلمه الناس عن طريق الوحى الإلهى لرسله، وهو أيضاً محض هبة منه تعالى، وليس بمقدور الخلق جميعا الوصول إليه بجهدهم، لأن النبوة هبة لااكتساب، والرسالة اصطفاء من الله تعالى واجتباء، فلا تنال قط بالاجتهاد أو الاشتهاء، وقد قرر القرآن الكريم ذلك فى آيات كثيرة مثل قوله تعالى:

﴿الرحمن * علَّم القرآن﴾ سورة الرحمن: ١، ٢.

﴿وَعُلِّمْتُم مَالَمْ تَعْلَمُوا أنتم ولا آباؤُكُمْ..﴾ الأنعام: ٩١.

الضرب الثانى: العلوم الكسبية:

وهى التى يستفيدها الأحياء ــ وخاصة الإنسان ــ بواسطة بذل الجهد المستطاع مثل: التفكر، واستعمال الحواس الظاهرة والباطنة، والنظر وملاحظة الأشياء، والتجارب، واستنباط المجهولات من مقدماتها المعلومة، واستخلاص القوانين المبثوثة فى الكون والحياة، ونحو ذلك، قال تعالى:

﴿هو الذى جَعَل الشمس ضِياءً والقمر نورا وقدّره مَنَازِل لِتَعْلموا عَدَدَ السنين والحساب ماخلق الله ذلك إلاّ بالحق يُفَصِّل الآيات لقوم يعلمون﴾ يونس: ٥.

فقد تعلم الإنسان الحساب، والفلك، ومعرفة الفصول من ملاحظة ومتابعة هذه الأجرام الكونية، القائمة على غاية الضبط والحسبان من الله العزيز العليم.

وقد نبه القرآن إلى كثير من هذه العلوم النظرية والعملية من خلال دعوته إلى التوحيد، والاستدلال على قدرة الله الباهرة، لأنه ليس كتاباً خاصاً بهذه العلوم، وإنما هو كتاب دعوة وهداية فى المقام الأول.

ومن هذا الباب ماجاء فيه عن حقائق علم الطب والصحة العامة، وقواعد العلوم الاقتصادية، والاجتماعيه، ونحو ذلك.

الأصل الربانى لعلوم الاكتساب :

وهو أصل قرره القرآن الكريم، ونبه عليه فى كل المواطن، وأكده بشتى الصيغ والأساليب، حتى يتقرر ويتمكن فى النفوس أن العلوم المكتسبة لاتقوم وحدها، وإنما هى تابعة دائماً للجانب الوهبى الربانى، فى نشأتها، وامتدادها، ومقوماتها.

فكل علم يكتسبه الإنسان ويتفوق فيه إنما مرجعه دائماً إلى قواعد العطاء الربانى متمثلاً فى: العقل الذى يفكر، والحواس التى استعملت، والجوارح التى استخدمت، وذوات المواد، وخصائصها، وقوانين الكون والحياة التى يعمل من خلالها، وغير ذلك من ضروب الفضل الإلهى المحض.

فإذا حرث الأرض، وبذرها وتعهدها حتى آتت ثمرها فهذا مبلغه من العلم والعمل، أما عقله وقواه، وذات البذر، وتربة الأرض، والماء، وخاصية الإنبات، والمناخ المصاحب من حرارة الشمس، وضوء القمر، وتصريف الرياح، فهذا كله من الجانب الوهبى .

وإذا صنع طائرة ــ مثلا ــ فرح الملحدون بما لديهم من العلم، مع أنه علم لايقوم لحظة واحدة بغير المواهب الربانية الشاملة .

فوجود الإنسان ابتداء، ثم عقله وحواسه، ثم وجود المادة ذاتها، وخصائصها التى هيأتها للتسخير والانتفاع، كالحديد وما فيه من الصلابة الشديدة، والمطاوعة للطّرق والتشكيل، والوقود وما فيه من السيولة، وقابلية الاشتعال، والمطاط وما فيه من القوة والمرونة، والنار، والماء وما فيهما من خواص الإذابة والتبريد، ثم قوانين الفضاء والهواء، ثم المعالم التى تنتصب فى مجاهل الآفاق: ﴿وعَلَامَاتٍ وبِالنَّجم هم يَهْتَدون﴾ النحل: ١٦ .

كل هذه المنح الإلهية هى التى مكنت الإنسان من الوصول إلى (**العلم**) الذى يصنع به طائرته، ثم يمضى بها آمنا إلى وجهته .

ولو أمسك الله شيئا منها لمسخت علوم الناس على مكانتها، فما استطاعت مضياً ولا قياما. ﴿.. إِنْ يَشأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِد عَلَى ظَهْره..﴾ الشورى: ٣٣ .

فجهد الإنسان إذن هو جهد وصفي أو تحويلي، لاإبداعي إنشائي، لذلك أكثر القرآن الكريم من تذكيره بهذا الأصل الأصيل، حتى لايطيش صوابه، ويدمر نفسه بغرور العلم الجزئي التبعي، قال تعالى :

﴿الذى علّم بالقلم* علم الإنسان مالم يعلم﴾ العلق: ٤، ٥ .

﴿خلَق الإنسان* علّمه البيان﴾ سورة الرحمن: ٣، ٤ .

﴿وعلَّمْناه صَنْعَة لَبُوسٍ لكم لِتُحْصِنَكُم من بأسكم..﴾ الأنبياء: ٨٠ .

والمراد أن الله تعالى علم داود عليه السلام صناعة الحديد، والدروع.

وقال تعالى : **﴿أَفَرَأَيْتُم مائحْرُثون* أأنتم تَزْرَعُونه أمْ نحن الزّارعون* لو نشاء لجعلناه حُطَاما فَظَلْتُم تَفكَّهُون* إنَّا لَمُغْرَمُون..﴾** الواقعة: ٦٣ : ٦٦ .

ومن أجمع الآيات فى ذلك قوله تعالى:

﴿والله جعل لكم مِنْ بُيوتِكم سَكَناً وجَعَل لكم مِنْ جُلود الأنْعام بُيُوتا تَسْتَخِفُّونها يوم ظَعْنِكم ويوم إقَامَتِكم ومِنْ أَصْوافها وأَوْبارها وأشعارها أَثَاثاً ومَتَاعاً إلى حين..﴾ سورة النحل: ٨٠ .

فالآية الكريمة تسند إلى الله تعالى (جعل) هذه الأشياء للناس، ومن المعلوم أن الناس هم الذين يقيمون البيوت، أو يصنعونها من الجلود، أو يحولون الصوف ونحوه فيجعلون منه أثاثا ومتاعا .

وإنما صح الإسناد إلى الله تعالى، لأنه هو الذى أوجد مواد هذه الأشياء ابتداء، ثم هو الذى اعطاها خواصها من الصلابة، وعزل الحر والبرد، ونحو ذلك مما يجعل البيت سكنا، وكذلك أعطى الجلود خواص الامتداد، والانثناء، والقوة، وقابليه الفصل والوصل.. وهكذا .

فكل علم كسبى فى هذه الأشياء، إنما هو امتداد، واستخدام، وتحويل لما خلقه الله تعالى، وجعله قابلا للتحويل، والتشكيل، والانتفاع به على المدى الطويل (أثاثا)، أو على المدى القريب الذى يتمتع به ثم يبلى بعد حين قصير (ومتاعا إلى حين) .

ومثال الأول: البساط الذى قد يعمر عشرات السنين .

ومثال الثانى: الثوب الذى يبلى بعد قليل.

وهذا المعنى هو الذى قرره القرآن الكريم حين قرن السفن (وهى من صنع الناس) بالأنعام (وهى خلق الله تعالى)، وأسندهما معاً إلى الله تعالى:

﴿.. وجَعَل لكم مِنَ الْفُلْك والأنعام ماتَرْكَبُون﴾ الزخرف: ١٢.

المحمود والمذموم من علوم الاكتساب:

لذلك كان الأصل الثابت فى العلوم أنها نور، وخير، ورحمة للخلائق.

وقد يطرأ على هذا الأصل مايحوله، ويجعل العلم الكسبى شرا وبلاء، وهذا مانجده واضحاً خلال الآيات الكثيرة التى تحدثت عن العلم، وهو الذى يفسر لنا معنى الذم، والتنديد القرآنى لبعض ضروب العلم وأحواله، ومن هنا كانت العلوم الكسبية فى القرآن الكريم على ضربين:

الأول: العلم الكسبى المحمود:

وهو الذى يحقق المصالح المعتبرة شرعا، ويجلب النفع الصحيح للخلائق، ويدفع عنهم الضرر، ويبرز ماأودعه الله فى الكون من قوانين وأسرار، تدل على أنه الواحد المقتدر، ذو الفضل الدائم على عباده.

وهذا الضرب هو الغالب، ولذلك مدحه الله تعالى، وحث عليه، بل علّم سبحانه وتعالى الناس بعض أسراره إلهاما، أو وحيا، وكان قد علّمه أيضاً لأبيهم آدم من قبل.

ويدخل فى هذا الضرب كل مايحتاجه الناس فى شئون دنياهم ومعاشهم، وما يحقق لهم عمارة الأرض مثل: علوم الزراعة، والصناعة، وعلوم اللسان والبيان، وعلوم الطبقات الأرضية، والأفلاك السماوية، والطب، والكيمياء، ونحو ذلك مما جاء فى آيات كثيرة منها:

﴿إقْرأ وربُّك الأكرم* الذى علم بالقلم﴾ العلق: ٣، ٤.

فقد أمر الله تعالى بالقراءة، وأسند التعليم بالقلم إلى نفسه سبحانه، والقلم

والقراءة هما أداة العلوم فى كل العصور.

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الإنسان * عَلَّمه البيان﴾ سورة الرحمن: ٣، ٤.

والبيان كلمه جامعة لكل مايكشف المعنى المقصود، فتشمل اللغات البشرية، والوسائل التعليمية، وما قام على ذلك من علوم ومعارف لاتحصى.

وقال تعالى عن نبيه داود عليه السلام:
﴿وعَلَّمناه صَنْعَةَ لَبُوس لكم لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكم فهل أنتم شاكرون﴾ الأنبياء: ٨٠.

والمراد: ماعلّمه الله له من صناعة الدروع السابغة، ذات الحلق الدقيق الصنع، والذى يقوم على علم وتقدير، لحماية الناس من الأخطار والحروب.
وقد جاء ذلك بتفصيل فى قوله تعالى:
﴿.. وَأَلَنَّاله الحديد. أنِ اعْمَلْ سَابغَاتٍ وقَدِّرْ فى السَّرْد..﴾ سبأ: ١١.

وهذا بداهة تعليم لأمر دنيوى، وهو غير تعليم الشرع والدين.

وعن نوح عليه السلام يقول تعالى:
﴿.. فَأَوْحَيْنا إليه أنِ اصْنَع الْفُلْك بِأعْيُنِنَا وَوَحْينا..﴾ المؤمنون: ٢٧.

والمفسرون يجمعون على أن صناعة السفن كانت وحياً إلهياً بهذه الآية الكريمة، «فإن الله أرسل إليه جبريل فعلمه صنعتها»(١).

ولعل هذا هو معنى قَرْن الفُلْك بالأنعام فى قوله تعالى:
﴿سُبْحان الذى خَلَق الأزواج كلَّها وجعل لكم مِنَ الْفُلْك والأنعام ماتَرْكَبون﴾ الزخرف: ١٢.

فهو سبحانه الذى علّم الناس أصل صنعتها، كما أعطاهم خصائص مادتها.

الثانى: العلم الكسبى المذموم:

وهو الذى لايحقق مصلحة معتبرة أو مباحة شرعاً، بل يقوم على الضر والأذى، أو يجلب الشر والمفسدة، ويؤدى إلى الهلاك والدمار.

(١) انظر حاشية الجمل، والخازن، وحاشية الصاوى على الجلالين فى تفسير الآية الكريمة.

وهذا الضرب يلحقه الذم والشناعة لأحد اعتبارين:

(أ): مايلحقه الذم لذاته، فيكون باطلاً من أصله، وهذا النوع قليل ونادر جداً، ولا أعلم له أمثلة فى القرآن الكريم[1] إلا مثلين:

الأول: (السّحر):

ولذلك نسبه القرآن الكريم إلى الشياطين، وذمه وأصحابه، ووصفهما بالفتنة، والضرر المحض الذى لانفع فيه، والسوء البالغ، كما قال تعالى:

﴿.. ولكنّ الشياطين كفروا يُعلّمون النّاسَ السِّحْرَ وما أُنْزِل عَلَى الْمَلَكَيْن بِبَابِلَ هارُوتَ ومَا رُوتَ وما يعلّمان مِنْ أَحَدٍ حتّى يقولا إنما نحن فِتْنة فلا تَكْفُر فيَتَعَلّمون منهما مايُفَرِّقُون به بين المَرْء وزَوْجِه وما هم بِضارِّين به مِنْ أحَد إلاَّ بإذن الله ويتعلمون مايضرّهم ولا يَنْفعهم ولقد عَلِمُوا لمَن اشْتراه مَالَه فى الآخره مِنْ خَلَاقٍ ولبئس ماشَرَوْا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾ البقرة: ١٠٢.

وقال تعالى: عن سحرة فرعون قبل إسلامهم:

﴿.. إنّما صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ، ولا يُفْلِحُ السَّاحِرِ حيْثُ أَتَى﴾ سورة طه: ٦٩.

والمثل الثانى: (الحكم والتشريع):

والأصل فيه أن شرع الأحكام، وسنّ القوانين خصوصية إلهية، لاتباح لغيره تعالى على سبيل الإنشاء والابتداء، وإنما يباح الاستنباط من نصوص الشرع الإلهى وقواعده.

لكن الأمم قديماً وحديثاً افترت على الله الكذب، وشرعت للناس مالم يأذن به الله، وتطاولت فى ذلك حتى صار عند أمم الحضارة (**علما**) وفنا، ومذاهب ومدارس واسعة النطاق.

وقد ذم القرآن هذا العلم وأهله ذماً بالغاً، ووصفهما بالكفر، والشرك، والجهل، والسفه، والافتراء، والكذب، وغيرها من صفات السوء.

---

(١) هذا مبلغ علمى، والله أعلم، فقد يكون فى القرآن غير هذين عند البحث والتنقيب.

وليس ذلك لما تؤدى إليه هذه الشرائع المبتدعة من إفساد فقط، وإنما قبل ذلك لأنها افتراء على صاحب الخلق والأمر، ورب الحكم والشرع، ولذلك سماها القرآن: (حُكْم الجاهلية)، فى مقابل (حُكْم الله) وهو (الإسلام)، والذى يعنى فى أول معانيه: الاستسلام لأمر الله ونهيه، ورفض كل ماعداه من مذاهب البشر، وقوانينهم الوضعية التى ابتلى بها المسلمون، والتى قامت عليها سلطات مبتدعة، تحت اسم مبتدع فى الإسلام هو (السلطة التشريعية)[1]

ومن أجمع الآيات فى ذلك قوله تعالى:

﴿ولا تقولوا لما تَصِفُ ألْسِنَتُكم الكذبَ هذا حلال، وهذا حرام، لِتَفْتَروا على الله الكذب، إنّ الذين يَفْتَرون على الله الكذب لايُفْلحون * متاع قليل ولهم عذاب أليم﴾ النحل: ١١٦، ١١٧.

(ب): مايلحقه الذم باعتبار مايلابسه من الظروف والأحوال، لالذاته، وهذا هو الكثير الغالب فى المذموم، ومنه:

١ ــ فصل العلم الكسبى عن وجهته الدينية، والتعلق بظواهره المادية الصحيحة، قال تعالى:

(.. ولكنَّ أكْثَرَ النَّاس لايَعْلَمون * يَعْلَمُون ظَاهِراً مِنَ الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ سورة الروم: ٦، ٧.

فالعلم الكسبى هنا لايذم لذاته، وإنما لأن أصحابه اقتصروا على ظاهره، ولم يصلوا به إلى لبابه من الإيمان بالله تعالى ودينه.

٢ ــ فصل العلم عن أصوله الوهبية، وجحود فضل الله تعالى فيه، قال تعالى:

﴿إنّ قَارُون كان مِنْ قَوْم موسى فبَغَى عليهم وآتيناه مِنَ الْكُنُوز ماإنّ مَفَاتِحَه لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَة أُولِى القُوّة إذْ قال له قَوْمه لاتَفْرَح إنّ اللهَ لايُحبُ الْفَرِحين * وابْتَغِ فيما آتاك الله الدّارَ الآخِرةَ ولا تَنْسَ نصيبَك مِنَ الدنيا وأَحْسِن كما أحْسَنَ الله إليك ولا تَبْغ

---

[1] من أراد التوسع فى هذا فليراجع رسالتى بكلية أصول الدين وعنوانها (المنهاج القرآنى فى التشريع) خاصة ص ١٢٢ وما بعدها وص ١٨٠ وما بعدها.

الفسادَ فى الأرض إنَ الله لايُحِبّ المفسدين* قال إنما أُوتِيتُه على عِلْمٍ عِندى..﴾ القصص: ٧٦، ٧٨.

فقارون لم ينكر الله، ولا الآخرة، وإنما جحد فضل الله فى ماله، وادّعى أن (كنوزه) حصّلها بعلمه هو، وسعيه فقط، وبالتالى لاحق لأحد فيها، وهاهنا الفتنة، التى أدت إلى تدميره.

ذلك لأن مدار الذّم ليس دعواه أنه ثمّر أمواله بعلمه وتخطيطه، فقد يكون هذا صحيحاً ومحموداً، ولكن دعوى الانفراد بهذا، ثم منع الحقوق بناء على هذا الوهم، هو الذى أنكره الله تعالى عليه.

٣ــ استخدام العلم الصحيح استخداماً فاسداً:

وذلك بأن يجعل وسيلة وأداة للمحرمات، فتذم الوسيلة بسبب ماتؤدى إليه من المفاسد، لالذاتها، كالذى يستخدم علمه بالحساب فى الربا، وعلمه بالكيمياء فى تقطير الخمر، وعلمه بالآلات فى التجسس المنهى عنه، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وقال فرعون ياأيها الملأ ماعَلِمْت لكم مِنْ إلِهٍ غيرى فأَوْقِدْ لِي ياهامان عَلَى الطِّين فاجعل لى صَرْحاً لعلّى اطّلِعُ إلى إلِهِ موسى..﴾ القصص: ٣٨.

فحرق الآجرّ والبناء صنعة مباحة محمودة، وبناء الصرح يقوم على علم محمود، ولكن المذموم استخدام هذا العلم فى الباطل أو الحرام.

وقال تعالى عن عاد قوم هود ﴿أتَبْنُون بِكُلّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُون﴾ الشعراء: ١٢٨.

والريع المكان المرتفع، يجعلون عليه مناراً عالياً، أو قصراً منيفا، أسماه (آية)، وهو لفظ مشعر بالمدح، لكن استخدامه فى العبث والسفه،هو الذى جعله مدار استنكار نبيهم عليه السلام.

٤ ـ الإعجاب بالعلم إلى حد الغرور، المؤدى إلى الكبر والبطر، بدل الشكر، قال تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَسِيروا فى الأرض فَيَنْظُروا كيف كان عاقبةُ الذين مِنْ قَبْلهم كانوا أَكْثَرَ منهم، وأَشَدَّ قُوَة، وآثاراً فى الأرض فما أَغْنَى عنهم ماكانوا يَكْسِبون * فلما جاءتهم رُسُلُهم بالبينات فَرِحُوا بِمَا عِنْدهم مِنَ العِلْمِ وحَاقَ بهم ماكانوا به يَسْتَهْزِئُون﴾ سورة غافر: ٨٢، ٨٣

فلم يذمهم القرآن بسبب الكثرة، والقوة، والآثار النافعة، فهذه كلها نعم وهبية، أو كسبية محمودة، ولكنهم ذموا لأنهم (فَرِحوا بما عندهم من العلم)، فرح تمرد واستكبار على الحق[١]، وهذا دَيْدن الأمم الضالة جميعاً، لايستفيقون منه إلا إذا نزل بهم العذاب الإلهى، الذى كانوا يستهزئون به، وربما تحدوه بهذا العلم الكسبى المحدود، (فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون).

٥ ـ وضع العلم فى غير موضعه:

وذلك بادعاء (الكلية) لحقائق العلم الناقصة، أو بجعل الحقائق العقلية، والتجارب المادية حَكَماً على (الغيوب)، فيأتيها الفساد من وضعها فى غير موضعها، أو من تطبيقها فى غير ميدانها، لأن الغيب لاتعرف حقيقته بفكر مجرد، أو حس مقيد، أو تجربة مادية، وهذا هو وجه الذم والعيب هنا، لأن ذلك يوقع الإنسان حتماً فى الخلط والخبط على غير هدى، ولقد كان هذا هو داء الجاهلية فى كل العصور، ولذلك سماه القرآن الكريم (ظن الجاهلية)[٢]، ونعاه على أهلها، وذمهم به ذماً شديداً، قال تعالى:

---

(١) هذا الوجه معناه أن الكفار بطروا بعلمهم، واستكبروا به على الرسل، وهذا أرجح الوجوه فى تفسير الآية الكريمة والله أعلم.

(٢) هو الذى يكون فى العقائد والحقائق القطعية، وهذا هو الذى ذمه القرآن، أما الظن بمعنى إدراك الطرف الراجح فى الأحكام الفرعية ونحوها فليس بمذموم.

﴿.. يَظُنّون بالله غير الحق ظنّ الجاهلية..﴾ آل عمران: ١٥٤

﴿وما لَهُمْ به مِنْ عِلْم إنْ يَتّبِعُون إلاّ الظَنّ وإنّ الظَّنَّ لايُغْني مِنَ الحق شيئا * فأعْرِض عَمَّنْ تَوَلّى عنْ ذِكْرِنا ولَمْ يُرِدْ إلاّ الحياة الدنيا * ذلك مَبْلَغهُم مِنَ الْعِلْم..﴾ النجم ٢٨ : ٣٠.

﴿بلْ كذَّبُوا بمالم يُحيطُوا بِعِلْمه ولمَّا يَأْتِهم تأْويلُه كذلك كذّب الذين مِنْ قبْلهم فَانْظُر كيْف كان عاقبةُ الظالمين﴾ يونس: ٣٩.

وقد وصف القرآن الكريم هذه الضلالات بوصفها الجامع، فقال تعالى:
﴿فإذا مسّ الإنسانَ ضُرٌّ دَعَانا ثُمّ إذا خوَّلْناه نِعْمَةً مِنّا قال إنّما أُوتِيتهُ علَى عِلْم بَلْ هى فِتْنَة ولكنّ أكثرهم لايعلمون * قدْ قالها الذين مِنْ قبْلِهِم فما أغْنَى عنهم ماكانوا يَكْسِبون * فأصابهم سيّئات ماكَسَبُوا والذين ظلموا مِنْ هؤلاء سيُصِيبُهم سيئاتُ ماكَسَبُوا وما هم بمعجزين﴾ سورة الزمر: ٤٩ : ٥١

فهذه هى (فتنة) الإنسان دائماً، حين ينسب نعم الله إلى مجرد الجهد البشرى، والعلم الكسبى، وهذا مايجعله فى الحقيقة جهلاً، بل (سيئات) تدمر أصحابها، ولا تغنى عنهم شيئا.

ولم نعلم فى تاريخ البشرية (فتنة) أنكى وأشنع من (فتنة) الحضارة المعاصرة بعلومها المادية، التى ألحدت بها فى الله تعالى، وأنكرته جملة، وجعلت الفضل والسيادة للإنسان بزعمها، وقصرت العلم على مايتصل بظواهر المادة، وهذا (مبلغهم من العلم)، بل هذا ليس علما، وإنما هو (ظن) عقيم، مال بالحضارة وأهلها ــ والبشر من ورائها ــ ميلاً عظيماً، وتوشك أن يحل عليها النذير الصارم:

﴿.. حتّى إذا أخذَت الأرضُ زُخْرُفَهَا وازَّيّنَتْ وَظنّ أهْلُهَا أنهم قادرون عليها أتَاها أمْرُنا لَيْلاً أوْ نهارا فجعلناها حَصِيداً كأن لم تَغْن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾ يونس: ٢٤.

رابعاً: آداب العلم والرحلة فى طلبه:

وقد وردت فى القرآن الكريم جملة وافية من الوصايا والآداب العلمية،

ترشد إلى جوامع الأخلاق والصفات المطلوبه فى المعلم، والمتعلم جميعا، وتحث على بذل الجهد فى طلب العلم، ولو بعدت الشقة، وطالت الرحلة، وهذا موضوع متعدد الجوانب فى الآيات الكريمة، يتسع لبحث مفرد مستقل، ولكنا نوجز بعض أطرافه فيما يلى:

١ ــ آداب الْمُعَلِّم:

فقد جعل الله تعالى العلماء قدوة الناس، وأسوة الصالحين، ولذلك حثهم على التزام معالى الأمور، والتخلق بما يليق بالعلم من أخلاق وصفات، لأنه لا (يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون)، ومن هذه الآداب:

(أ): **التطبيق العملى**: فليس العلم حلية شكلية، وإنما هو التزام بالحق، وتطبيق له على النفس أوّلاً ، قال تعالى على سبيل العموم:

﴿وقُل اعْمَلُوا فَسَيَرى الله عَمَلكم ورسولُهُ والمؤمنون..﴾ التوبة: ١٠٥

وجعل العلماء أولى الناس بهذا العمل ظاهراً وباطناً فقال تعالى:
﴿.. إنّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِه العلماءُ..﴾ فاطر: ٢٨ .

(ب): **البلاغ والبيان**: فإن ثمرة العلم ينبغى أن تكون عامة، لأنه نور وهداية؛ ولذلك أوجب الله تعالى على العلماء بيان العلم، وحذرهم من كتمانه، وألزمهم إلزاما أن يصدعوا بكلمة الحق فقال تعالى:

﴿وإذْ أخَذَ الله ميثاقَ الذين أُوتُوا الكتابَ لَتُبَيِّنُنَّه للنّاس ولا تَكْتُمُونه..﴾ سورة آل عمران: ١٨٧ .

﴿إنّ الذين يَكْتُمون ماأَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّنَات والْهدى مِن بَعْد مابيّنّاه للناس فى الكتاب أولئك يلْعنُهم الله ويلعنهم اللّاعِنون﴾ سورة البقرة: ١٥٩ .

ولذلك جعل ذلك البيان مهمة العالم، وغاية التّعلم فقال تعالى:
﴿.. لِيَتَفَقَّهُوا فى الدين وَلِيُنْذِروا قَوْمَهم إِذا رَجَعُوا إِليهم لعلهم يَحْذَرون﴾ التوبة: ١٢٢ .

(ج) : **لزوم الصبر والحلم**: لأن العالم لابد أن يلقى عنتا ومشقة حين يتصدى لتعليم الجاهل، وتنبيه الغافل، وإمساك الشارد، وما تموج به نفوس هؤلاء وغيرهم من مقاومة، وصدود، ونفور، ولذلك أكد القرآن طويلا على هذا الجانب فقال تعالى:

﴿خُذ الْعَفو، وَأمُرْ بِالْعُرْف، وأَعْرِضْ عن الجاهلين﴾ الأعراف: ١٩٩.

﴿فاصْبِرْ صَبْرا جميلا﴾ المعارج: ٥.

(د) : **التواضع ولين الجانب**: فلا يتكبر بعلمه، ولا يتعالى على الناس به، فإن العلم الحقيقى يقتضى غاية التواضع واللين، عرفانا بعظمة صاحب العلم المحيط، ويقينا بضآله علم الإنسان مهما بلغ، وتخلقاً بأخلاق الأنبياء عليهم السلام، وهم أعلم الخلق، بما يأتيهم من الوحى، ولذلك شدّد القرآن على العلماء فى هذا الجانب فقال تعالى:

﴿وَعِبَاد الرحمن الذين يَمْشُون عَلَى الأرض هَوْناً وإِذا خاطَبَهُم الجاهلون قالوا سَلَاما﴾ الفرقان: ٦٣.

وفى قوله تعالى: (خاطبهم الجاهلون) إيذان بأن عباد الرحمن علماء حكماء، فينبغى أن يتحلوا بفضيله التواضع (يمشون على ارض هونا)(١).

(هـ): **الترفع عن مجالس اللهو واللغو**: فإن العالم قدوة الناس، فينبغى ألا يتلبس بمجالس الباطل، ولا أماكن اللهو مهما كان قليلا، لأنه يفتح بذلك للناس أبواب الكثير. قال تعالى:

﴿وإذا سَمِعُوا اللَّغْو أعْرَضوا عنه وقالوا لنا أعْمَالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لانَبْتَغِى الجاهلين﴾ القصص: ٥٠.

وقد نزلت فى مدح بعض علماء أهل الكتاب، ممن آمنوا بالنبى ﷺ.

---

(١) الهون: التواضع والسكينة، من غير ذلة ولا مداهنة.

وقال تعالى:

﴿والذين لايَشْهدون الزُّور وإِذَا مَرُّوا بِاللّغو مَرُّوا كِرَاماً﴾ الفرقان: ٧٢.

والزور: هو مطلق الكذب والباطل

والمعنى: لايحضرون مشاهد الباطل، أو لايشهدون شهادة الزور. واللغو: كل كلام قبيح من شتم، وعيب، ولمز، وسخرية، ونحو ذلك.

(و) : **الاستزادة من العلم** : فإن العالم الصحيح يطلب العلم دائماً، ويستزيد منه أبدا، ولا يظن بنفسه الكمال والتمام، فإن ذلك جهل ينافى العلم، ولذلك علم الله تعالى رسوله — وهو أعلم الناس بربه ودينه — أن يطلب زياده العلم فقال تعالى:

﴿.. ولا تَعْجَلْ بالقرآن مِنْ قبْل أنْ يُقْضى إليك وَحْيُه وقل ربّ زِدْنى عِلْما﴾ طه: ١١٤.

وحين كان المنافقون يسمعون العلم من رسول الله ﷺ ثم يدّعون عدم فهمه، ويسألون علماء الصحابه عما قاله استهزاء، بيّن الله تعالى فضل الصحابة وعلمائهم فى الاستزادة من العلم فقال تعالى:

﴿ومنهم مَنْ يستمع إليك حتىّ إذا خرجوا مِنْ عندك قالوا للذين أُوتُوا العلم ماذا قال آنِفاً؟ أولئك الذين طَبَعَ الله على قلوبهم واتَّبعوا أهْوَاءَهم * والذين اهتدوا زادهم هُدى وآتاهم تَقْواهم﴾ سورة محمد: ١٦، ١٧.

والمعنى: أن المؤمنين أقبلوا على التعلم، فزادهم الله علما على علمهم، ووفقهم للعمل به، أو آتاهم ثوابه، وهذا أكمل أحوال العلماء.

٢ — آداب المتعلم:

فقد أرشد الله تعالى طلاب العلم إلى آداب طلبه، وفضائل أخذه، ومكارم تلقيه وتعلمه ومن ذلك:

(أ) : **الاستعانة بالله فى طلب العلم**: فلابد أن يكون البدء فى العلم هو وضعه تحت رعاية الله تعالى، والاستعانه به على تحقيقه، فإن كان علماً دينياً فهو منه وبه سبحانه وتعالى، وإن كان علما دنيوياً فهو تحت مظله الإيمان والتوحيد، فلا يضل به صاحبه ولا يشقى، ولذلك كانت أول آيه نزلت من القرآن هى قوله تعالى: ﴿**إقرأ باسْم ربِّك الذى خلَق**﴾، فربطت العلم والقراءة باسم الله من أول الطريق.

(ب): **الرجوع إلى العلماء فى أخذ العلم**: فهم المرجع فى تلقى العلم، وعنهم تؤخذ المفاهيم الصحيحة، لامن مجرد الكتب، أو السماع من غير أهل الاختصاص العلمى، قال تعالى:

﴿**.. فاسْألوا أهْل الذّكْر إنْ كنتم لاتَعْلمون**﴾ النحل: ٤٣ .

﴿**وإذا جاءهم أمْرٌ من الأمْن أو الخوف أذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لَعَلِمَه الذين يَسْتَنْبِطونَه منهم..**﴾ النساء: ٨٣

والآية الكريمة نزلت فى شأن الحروب والسرايا النبوية، وحديث المنافقين عنها، ولكنها عامة فى وجوب الرد إلى (أولى الأمر منهم) وهم «ذو العقول، والرأى والبصيرة.. وهم العلماء الذين علموا ماينبغى أن يكتم من الأمور، وما ينبغى أن يذاع منها..»[1].

وهكذا ينبغى تلقى العلم من أهله وأربابه، بل على العالم أن يتلقى العلم ممن هو فوقه من العلماء، كما سنذكر فى قصة موسى عليه السلام، وكما نبه القرآن على هذا الأصل فى قوله تعالى: ﴿**.. نَرْفع درجاتٍ مَنْ نشاء وفوق كلِّ ذى عِلْمٍ عليم**﴾ سورة يوسف: ٧٦ .

(جـ) : **التزام آداب المجالس العلمية**: مثل التفسح فى المجالس لبعضهم البعض، ومثل الانصراف من المجالس بعد انتهائها، قال تعالى:

﴿**يأيّها الذين آمنوا إذا قِيل لكم تَفَسَّحُوا فى المجالِس فافْسَحُوا**

---

(١) تفسير الخازن فى الآية الكريمة (جـ١ ص٤٧٠) .

يفسَحِ الله لكم وإذا قِيل انْشُزُوا فانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الذين آمنوا منكم والذين أوتُوا العِلمَ درجاتٍ..﴾ المجادلة: ١١ .

ومثل التعود على غض الصوت فى مجالس العلم، خاصة بين يدى المعلم، حتى لاتصبح مجالس جدل وضجيج، يضيع فيها صوت العقل والفكر، والحجة والدليل، والفهم السليم، والأصل فى هذا قوله تعالى:

﴿يأيها الذين آمنوا لاتَرْفَعُوا أصْوَاتَكُم فوْق صوْت النبى ولا تَجْهَرُوا له بالقول كَجَهْرِ بعضِكم لبعضٍ أنْ تَحْبَطَ أعمالُكم وأنتم لاتشعرون﴾ الحجرات: ٢ .

وهذه خصوصية لرسول الله ﷺ باعتبار الرسالة، ولما كان «العلماء هم ورثة الأنبياء»[١] كان لهم من هذا الأدب نصيب، مع الفارق بينهم وبينه ﷺ: (فهو معصوم، ويوحى إليه، وإهانته كفر أو محبطة للعمل، والعلماء ليسوا كذلك)، لكن لهم مايليق بهم، «وقد وعى المسلمون هذا الأدب الرفيع، وتجاوزوا به شخص رسول ﷺ، إلى كل أستاذ وعالم، لايزعجونه حتى يخرج إليهم، ولا يقتحمون عليه حتى يدعوهم»[٢] .

(د): **تخير الألفاظ الحسنة، وترك الموهمات**: فعلى المتعلم أن يرعى حق أستاذه، وإخوانه، باختيار أحسن الألفاظ، وترك كل مايوهم السوء ولو كان صحيحاً فى ذاته، قال تعالى:

﴿يأيها الذين آمنوا لاتقُولوا رَاعِنَا وقولوا انْظُرْنَا واسْمَعوا وللكافرين عذابٌ أليم﴾ سورة البقرة: ١٠٤ .

فقد كان المسلمون فى مجالس العلم يستمهلون النبى ﷺ بقولهم (راعنا) يارسول الله، أى انظر إلينا، أو فرّغ سمعك لنا، وهذا لفظ

---

(١) حديث شريف رواه ابن عدى فى الكامل، وابن النجار عن أنس: (أنظر الفتح الكبير فى ضم الزيادة إلى الجامع الصغير ص٢٥١)

(٢) فى ظلال القرآن المجلد: ٦ ص٣٣٤٠، وهو يعلق على آية (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات..) وهى فى معنى مانقول .

عربى ذو معنى صحيح، ولكنه وافق لفظا فى لغة اليهود معناه: «السب القبيح» كما قال ابن عباس رضى الله عنهما، فكانوا يقولون ذلك لرسول الله ﷺ، مظهرين أنهم يريدون المعنى العربى، ومبطنين المعنى الذى فى لغتهم، لعنهم الله وغضب عليهم.

«وفى ذلك دليل على أنه ينبغى تجنب الألفاظ المحتملة للسب والنقص، وإن لم يقصد المتكلم بها ذلك المعنى.. سدا للذريعة..»، وقطعاً لمادة المفسدة والتطرق إليها، ثم أمرهم الله بأن يخاطبوا النبى ﷺ بما لايحتمل النقص، ولا يصلح للتعريض فقال: (وقولوا انظرنا) أى أقبل علينا وانظر إلينا»[1].

٣ ــ مثال جامع للرحلة العلمية وآدابها:

فقد حث الله تعالى المؤمنين على طلب العلم، ولو بالرحلة الطويلة، والسفر الشاق، والمتاعب الجمة، فإن ذلك قليل بجانب مايحرزه المؤمن من شرف العلم، ونور الفهم، وثواب الدنيا والآخرة.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وما كان المؤمنون لِيَنفِروا كافّة فلوْلا نَفر مِنْ كلِ فِرْقةٍ منهم طائفةٌ ليتَفَقهوا فى الدين وَلِيُنذِروا قومهم إِذا رَجَعُوا إِليهم..﴾ التوبة: ١٢٢ .

وللآية الكريمة معنيان أوضحهما أنها: «حكم مستقل بنفسه فى مشروعية الخروج لطلب العلم والتفقه فى الدين.. فيكون السفر نوعين: **الأول سفر الجهاد**، والثانى **السفر لطلب العلم**، ولاشك أن وجوب الخروج لطلب العلم إنما يكون إذا لم يجد الطالب من يتعلم منه فى الحضر من غير سفر..»[2].

وقد حددت الآية الكريمة الغرض المقصود بوضوح تام وهو قوله (لينذروا قومهم)، وهو تعليل يشير «إلى أنه ينبغى أن يكون غرض المتعلم الاستقامة، وتبليغ الشريعة، لاالترفع على العباد، والتبسط فى البلاد، كما هو دأب أبناء الزمان»[3].

---

(١) انظر فتح القدير للشوكانى جـ١ ص١٢٤ عند تفسير الآية المذكورة.

(٢) السابق جـ٢ ص٤١٦ فى تفسير الآية الكريمة.

(٣) تفسير أبى السعود فى تفسير الآية الكريمة.

وقد أمر الله تعالى بالسير فى الأرض، والنظر فى أحوال العباد والبلاد، لأخذ العظة والعبرة، واستخلاص قوانين الله الماضية فى الأمم، وانتظام عقوبته للمكذبين.. والاطلاع على عجائب القدرة الإلهية فى الكون والحياة.

ولكن أجمع مثال للسفر والارتحال العلمى هو ماقصة القرآن الكريم عن موسى عليه السلام، وما ضمنه هذه القصة من آداب عالية، وفضائل بالغة، وحرص على التعلم من كليم الله ورسوله عليه السلام، قال تعالى:

﴿وإِذْ قال موسى لِفَتَاه لاأَبْرح حتّى أَبْلُغَ مَجْمع البحرين أوْ أَمْضِيَ حُقُباً * فلمّا بلغا مجْمع بَيْنِهما نَسِيَا حُوتَهُمَا فاتَّخَذَ سبيله فى البحر سَرَبا * فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غَدَاءَنا لقد لَقِينا مِنْ سَفَرنا هذا نَصَبًا * قال أرأيتَ إِذْ أَوَيْنا إلى الصخرة فإنى نَسِيتُ الحوتَ وما أنسانيهُ إلاّ الشيطان أَنْ أَذْكُرَه واتَّخذ سبيله فى البحر عَجَبًا * قال ذلك ماكنا نَبْغِ فَارْتَدَّا على آثارهما قَصَصًا * فوجدا عبْداً مِنْ عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه مِن لَّدُنَّا علما * قال له موسى هل اتَّبعك على أنْ تُعَلِّمنى مما عُلِّمتَ رُشْدا * قال إنك لن تستطيعَ مَعِىَ صبْرا * وكيف تصبر على مالم تُحَطْ به خُبْرا * قال ستجدنى إنْ شاء الله صابراً ولا أَعْصِي لك أمرا * قال فإن اتبعتنى فلا تسألْنى عن شىء حتى أُحْدِثَ لك منه ذِكْرا * فانطلقا..﴾ راجع القصة بتمامها فى الآيات الكريمة: ٦٠ : ٨٢ من سورة الكهف.

وقد روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما السبب العلمى لهذه القصة، وخلاصته: (أن قاصًا فى الكوفة يقال له (نوف البِكالىّ) قد زعم أنه غير موسى الرسول، فسئل ابن عباس فقال: كذب عدو الله، حدثنى أُبَيّ ابن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إن موسى قام خطيباً فى بنى إسرائيل فذكّر الناس، حتى إذا فاضت العيون، ورقّت القلوب، وَلّىَّ، فأدركه رجل فقال: أىْ رسول الله هل فى الأرض أحد أعلم منك؟ قال: لا، فعتب الله عليه، إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه إن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك.. إلخ)[1].

---

(١) هذه خلاصة مافى البخارى جـ٥ ص ٢٣٠ وما بعدها فى عدة روايات رواها فى كتاب التفسير، (عند تفسير سورة الكهف).

الآداب العالية فى القصة:

١ ــ تقرير وتأكيد الرحلة فى طلب العلم مهما كان الإنسان عالما، فإن موسى عليه السلام كان كليم الله، وواحداً من أولى العزم، وأعطاه الله تعالى التوراة وكتب (له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء)[1] ومع ذلك لما وجد فرصة لمزيد من العلم سعى إليها بهمة وقوة، وأصر على ذلك إصراراً مهما طال الوقت أو الطريق (لاأبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا) وقد لقى فى ذلك تعباً ونصباً، ورغم ذلك رجع مسرعاً حين علم أنه جاوز المكان الموعود: (قال ذلك ماكنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا).

٢ ــ التواضع البالغ من موسى عليه السلام فى طلب العلم، وأخذه من الخضر عليه السلام بلا أدنى استكبار، أو اغترار واعتداد بمنزلته العالية.

٣ ــ الأدب الجم فى مخاطبة الأستاذ، وبلوغه الغاية العليا فى ذلك، حيث تقدم لطلب العلم منه عن طريق الاستفهام (هل اتبعك؟) المشعر برد الاختيار للأستاذ، ولم يتقدم بذلك على وجه الإخبار المشعر بالإلزام.

٤ ــ عبر عن هذه الصحبة العلمية بلفظ (الاتّباع)، وهو هنا أبلغ لفظ وأكمله، لأن الاتباع معناه الاقتفاء بأثر السابق، وترسم مواقع قدميه، ففيه تابع ومتبوع، ومقدم ومؤخر حتما، بخلاف لفظ (المصاحبة) مثلاً فقد يكون الصاحبان ندَّين، بل قد يكون المتعلم فى الصحبة أفضل من معلمه أحيانا، وهذا غاية التلطف والأدب من موسى عليه السلام فى إيثار لفظ (اتبعك).

٥ ــ تخفف عن كل حاجة أمام طلب العلم، ولم يلزم أستاذه بمؤونة ما، كالإطعام، والحمل باعتباره غريبا عن المكان، وإنما جعل للاتباع هدف واحدا: (.. على أن تعلمنى مما علمت رشدا).

٦ ــ لم يغضب حين صارحه الأستاذ بأنه لن يستطع معه صبرا، لغرابة الأمور

(١) الآية ١٤٥ من سورة الأعراف.

عليه، وعدم إحاطه علمه بها، وإنما ردّ موسى عليه السلام بغاية الأدب أنه سيجده صابرا، وقيد ذلك بالمشيئة الإلهية، ثم زاد بأن تعهد ألا يعصى أوامر معلمه، وهذا أكمل نموذج فى الخطاب، فإنه لم يقل: (لاأخالفك)، ولم يقل: (سأطيع ماتطلب) إنما عبر بنفى المعصية إيذانا بغاية الانقياد، وعبر عن الطلب بلفظ (أمرا) وهو عند الإطلاق يكون من الأعلى للأدنى، فكأنه ﷺ وضع نفسه فى هذا الموضع هضما لها، وتواضعاً فى طلب العلم، ولذلك قال: (ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمرا).

٧ــ موافقته التامه على شرط الأستاذ: (قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا).

ولذلك كان موسى عليه السلام يبادر بالاعتذار الصريح كلما نسى الشرط من غرابة مايرى، (قال لاتؤاخذنى بما نسيت)، ولما سأل للمرة الثانية قال (إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى).

وهذا أيضاً غاية الأدب إذ لم يقل (فلا أتبعك)، وإنما رد المفارقة إلى رأى الأستاذ، والتمس له العذر فى المفارقة: (قد بلغت من لدنى عذرا) والقصة مليئة بالحكم والأسرار أكثر مما قلنا، مما يجعلها أكمل نموذج لأدب العلم، وفضائل العالم والمتعلم، والله تعالى أعلم.

الموضوع الخامس

الآخرة ومشاهدها فى ضوء القرآن

- معنى الآخرة ومشاهدها .
- ألفاظ الموضوع فى القرآن الكريم .
- غاية السعة فى تناول الموضوع:

أولاً : حقيقة لاريب فيها .

ثانياً : حكمة الوجود .

ثالثاً : ضرورة للحياة الدنيا .

رابعاً : أدلة القرآن عليها .

خامساً : من مشاهد الآخرة .

١ ـ نفختا الصعق والإحياء ..

٢ ـ تصدع الكون ...

٣ ـ أحوال الناس إلى الفصل .

٤ ـ الجزاء ومنازل الناس .

معنى الآخرة ومشاهدها :

الآخِرة مؤنث الآخِر وهو «مايقابَل به الأول»(١)، والآخرة تقابل الأولى، على معنى أنهما شيئان فقط، فلا ثالث لهما، ولا شيء بعد آخرهما، لأنها نهاية المطاف، ولذلك لايقال (الدار الثانية) بل (الدار الآخرة) .

والمراد (بالآخرة) شرعاً :

النشأة التى تقابل الدنيا، والتى تبدأ مقدماتها من نفحة الصعق ثم نفخة القيامة، وما فى يومها من مشاهد، وما يعقبه من دخول الجنة أو النار على وجه الخلود الأبدى.

والمشاهد: جمع مشهد، وأصله من الشهادة، وهى الحضور مع المشاهدة، إما بالبصر، أو بالبصيرة(٢).

والمراد بها شرعاً :

مايشاهده الناس فى (الآخرة) من أحوال وأهوال، ومواقف وحوادث، كتصدع الكون كله، وَدَكِّ الأرض والجبال، وحشر الناس والخلائق إلى الموقف، وأخذ صحائف الأعمال، والميزان، والحساب، والصراط.. وغير ذلك من مشاهد الجنة أو النار بعد دخولهما.

وسيأتى تفاصيل ذلك من القرآن الكريم إن شاء الله تعالى، ونذكر هنا ماقاله القرآن فى هذه المشاهد إجمالا :

﴿.. فويل للذين كفروا مِنْ مَشْهَدِ يوم عظيم﴾ مريم:٣٧ .

﴿.. ذلك يوم مَجْمُوع له الناس وذلك يوم مَشْهود﴾ هود: ١٠٣ .

﴿واليومِ الموعود * وشاهِدٍ ومشهود﴾ البروج: ٢، ٣ .

أى أنه يوم واقع لامحالة، وسيشاهده الخلائق جميعاً، ويشهدون مافيه من أحوال وعجائب، لظهورها، وهولها، وتعلق مصائر كل خلق بها.

---

(١) المفردات للراغب ص ١٣ .

(٢) المفردات للراغب ص ٢٦٧ وما بعدها بتصرف .

ورود ألفاظ الموضوع فى القرآن الكريم:

وقد ورد لفظ (الآخِرة) فى القرآن الكريم بهذا المعنى (١١٢ مرة).

- تارة منفرداً وهو الأكثر مثل: ﴿.. **ومنكم مَنْ يُريد الآخرة**﴾ آل عمران: ١٥٢ .
- وتارة وصفاً مثل: ﴿**تلك الدّارُ الآخِرةُ**﴾ القصص: ٨٣، ﴿.. **النَّشْأَةَ الآخِرةَ**﴾ العنكبوت: ٢٠ .
- وتارة مضافاً إليه مثل: ﴿**ولَدارُ الآخرةِ خيْرٌ**﴾ النحل: ٣٠ .
- وجاء بلفظ المذكر وصفا لليوم (٢٦) مرة، مثل: ﴿**وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر**﴾ النساء: ٣٩.
- وجاء مؤنثا على وزن فُعْلَى (٣) مرات فقط مثل: ﴿**وأن عليه النّشْأة الأُخرى**﴾ سورة النجم: ٤٧ .
- وجاء بصيغة الفعل عدة مرات مثل: ﴿**إنما يُؤَخِّرُهم لِيَوْم تَشْخَصُ فيه الأَبْصار**﴾ سورة إبراهيم: ٤١ .

فجملة ورود اللفظ وما تفرع منه فى القرآن الكريم نحو: (١٥٠) مرة.

ولذلك اخترناه عنواناً للموضوع، لأنه أكثر الألفاظ استعمالاً فى القرآن الكريم تعبيراً عن موضوعه، ثم هو أجمعها وأوفاها دلالة على المراد، لأنه يشمل كل مايتعلق بهذه النشأة، من ابتدائها إلى امتداد خلودها بعد دخول الجنة أو النار.

(الألفاظ المقارِبة):

وقد أورد القرآن الكريم ألفاظاً أخرى كثيرة فى الموضوع مثل:

القيامة ــ الساعة ــ البعث ــ الواقعة ــ الحاقة ــ الغاشية ــ القارعة ــ الإعادة ــ الحشر ــ الآزفه ــ يوم الحساب ــ لقاء الله ــ الخلق الجديد ــ يوم النشور ــ الحيوان[1] .

---

(١) لم يرد إلا فى آية واحدة (وإنَّ الدار الآخرة لهى الحيوان) العنكبوت: ٦٤ بمعنى: الحياة الخالدة الدائمة التى لاموت فيها أبدا .

(الألفاظ المقابِلة):

وهى التى يتحرر بمعرفتها أحكام مايقابلها من الأضداد والنقائض على مابيناه مرارا، مثل:

الدنيا ــ الأولى ــ النشأة الأولى ــ الخلق الأول ــ البدء ــ الموت ــ القبور ــ الأجداث ــ المرقد[1].

وهذه يحتاج إليها عند إرادة الاستقصاء الكلى للموقف القرآنى من الموضوع.

من أسرار الإعجاز القرآنى فى الألفاظ:

هذا وقد آثرت اختيار عنوان (الآخرة) على غيره من الألفاظ، بعد تأمل للألفاظ الجليلة، الواردة فى الموضوع، ولذلك كان أكثرها دورانا فى القرآن الكريم، لأنه أوفاها جميعا، أما بقية الألفاظ فكل منها يمثل جزءا، أو مشهدا، أو حالة، من الهيئة الكلية (للآخرة) على مانبينه بإيجاز:

(أ): فمثلاً لفظ: (**القيامة**) هو أشهر الألفاظ عند الناس، ولكن القرآن الكريم أورده (٧٠) مرة فقط، وبلفظ (يقوم، وتقوم)[2] أورده تسع مرات، وبلفظ (قيام) أورده (مرة واحدة)[3] فهذه جميعاً (٨٠) مرة، أى نصف عدد مرات لفظ العنوان تقريباً.

وهذا ضرب من إعجاز القرآن البالغ، لأن (لفظ) القيامة لايمثل (الآخِرة) كلها لسببين:

الأول: من حيث الوضع اللغوى، لأن أصله القيام بمعنى الوقوف، أو النهوض، «وأدخلت (الهاء) تنبيها على وقوع القيامة دفعة واحدة»[4].

---

(١) كل هذه الألفاظ السابقة بأقسامها المختلفة موجودة فى القرآن الكريم، ويرجع إليها فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

(٢) مثل: (يوم يقوم الناس لرب العالمين) المطففين: ٦، (ويوم تقوم الساعة) الروم: ١٢: ١٤.

(٣) فى قوله تعالى (.. فإذا هم قيام ينظرون) الزمر: ٦٨.

(٤) المفردات للراغب ص٤١٧ بتصرف.

الثانى: من حيث الحقيقة الشرعية، لأن (القيامة) عند التحقيق لاتطلق إلا على: (مابين نفخة (البعث) إلى أول دخول الجنة أو النار).

أما ماقبل ذلك أو مابعده فهو من (الآخرة)، وليس من القيامة.

(ب): ويليه لفظ: (**الساعة**)، وقد ورد فى هذا الموضوع (٤٠) مرة، أى نصف عدد ألفاظ القيامة، لأن (الساعة) فى الأصل: «جزء قليل من الزمان»، والمراد به شرعاً: ذلك الجزء الذى تقوم فيه القيامة، وهو وقت خاطف، بالغ السرعة كما قال تعالى:

﴿.. وما أَمْرُ السَّاعةِ إلاَّ كَلَمْحِ البصر أوْ هو أَقْرب إن الله على كل شىء قدير﴾ النحل: ٧٧.

ولذلك اختص بعلمه الله تعالى وحده، وجعل على رأس مفاتيح الغيب الخمسة التى لايعلمها إلا الله عز وجل، كما قال تعالى:

﴿إنَّ الله عنده عِلْم السَّاعة، ويُنَزِّلُ الغَيْثَ، ويَعْلَمُ مافى الأرحام..﴾ لقمان: ٣٤.

﴿يَسْألونك عن الساعة أَيَّانَ مُرْسَاها؟ قل إنّما عِلْمُها عِنْدَ ربّى لايُجَلِّيهَا لِوَقْتها إلاَّهُوَ، ثَقُلَتْ فى السموات والأرض لاتَأْتِيكم إلاَّ بَغْتَةً، يسألونك كأنك حَفِىٌّ عنْها، قل إنّما علمها عند الله، ولكنّ اكْثَر الناس لايعلمون﴾ الأعراف: ١٨٧.

هذا هو الأصل فى معنى الساعة، وهى بهذا (جزء مخصوص) من الهيئة الكلية الشاملة التى تدل عليها (الآخرة).

وقد يطلقها القرآن الكريم على مايقابل (القيامة)[١] فقط: باعتبار أنها عند الله تعالى كساعة واحدة فى سرعة الحساب، كما قال تعالى:

﴿وهو أسْرع الحاسبين﴾ الأنعام: ٦٢.

أو باعتبار تقدير الكفار لمدة الدنيا كلها، أو مابين موتهم وبعثهم، كما

---

(١) انظر فى هذه المعانى مفردات الراغب مادة (سوع) ص ٢٤٨.

قال تعالى:

﴿ويوم تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ المجرمون مالَبِثُوا غيْر ساعة﴾ الروم: ٥٥.

(جـ): ثم يليهما لفظ: (البعث) وقد ورد فى القرآن الكريم إثباتاً للبعث بهذا اللفظ وما تفرع منه (٣٠) مرة تقريباً[1].

وهو أيضاً معنى (جزئى) من معانى الآخرة، لأنه فى الأصل: «إثارة الشيء وتوجيهه»[2]، كما قال تعالى: ﴿والْمَوْتَى يبعثهم الله﴾ الأنعام: ٣٦.

أى يثيرهم ويخرجهم من قبورهم ويسيرهم إلى الموقف، فهو ملحوظ فيه بيان الكيفية التى يقام بها الموتى، كالنخسة التى ينبعث بها البعير للحركة، ومنه قوله تعالى:

﴿فإنّما هى زَجْرَةٌ واحدة فإذا هم ينظرون﴾ الصافات: ١٩.

ويتلخص من هذه النظرة الموضوعية:

أولاً: أنه لايوجد لفظ قرآنى يدل على المعنى الكلى للموضوع باعتبار مقدماته، ووسطه، وامتداده، إلا هذا اللفظ الجامع: (الآخرة)، ولذلك كرره القرآن أكثر من غيره، حتى بلغ نحو: (١٥٠) مرة.

ثانياً: أن كل لفظ من أسماء (الآخرة) وصفاتها جعل له معنى معيناً يؤديه، فليس بين الألفاظ ترادف إطلاقاً، وإنما بينها فوارق غاية فى الدقة، وكل منها يبرز جانباً من المعنى الكلى، فتتكامل فى أداء الموضوع من جميع جوانبه.

ثالثاً: يدير القرآن العظيم إيراد الألفاظ على نظام بالغ الإعجاز:

فاللفظ الجامع تكرر: (١٥٠) مرة تقريباً.

واللفظ الذى يليه: (القيامة) تكرر: (٨٠) مرة.

---

(١) نذكر بالتقريب لأن هناك آيات محتملة لأكثر من معنى، وأيضاً حذفنا من العد ماقاله الكفار إنكاراً للبعث، وهذا كله نحو (ثمانى) مرات فقط.

(٢) المفردات ص ٥٢.

واللفظ بعده: (الساعة) تكرر: (٤٠) مرة.

واللفظ بعدهما: (البعث) تكرر: (٣٠) مرة تقريباً.

ويلاحظ أن الألفاظ الثلاثة الأخيرة بلغت أيضاً: (١٥٠) مرة تقريباً، فتأكد لنا أن هاهنا تفرقة مقصودة بين الكلى والجزئى من المعانى، وأنه رتب عليها التدرج العددى فى ذكر كل لفظ، ليتناسب العدد[1] مع حجم المعنى، وليتفاوت مع غيره بميزان، وكل هذا ضرب من **الإعجاز البالغ**، فى كتاب كان ينزل لفوره سفراً وحضراً، وفراغاً وشغلاً، وسلماً وحرباً، ثم تتباعد نجوم الموضوع الواحد منه خلال ذلك كله، وتتعدد وقائعه وأسبابه، وهذا أمر فوق طاقة علم العلماء جميعاً ولو أرادوه، فكيف وقد نزل على ذلك الرجل الآدمى؟ وفى أمة أمية لاتكتب ولا تحسب؟.

إن كل عقل منصف فى الأرض ليهتف مع رسول الله ﷺ بما علمه مولاه: ﴿**قل أنْزَله الذى يَعْلَم السرَّ فى السموات والأرض..**﴾ الفرقان: ٦.

غاية السعة فى تناول الموضوع:

لقد تحدث القرآن الكريم طويلاً فى شأن (النشأة الآخرة)، وفصل أمرها تفصيلا شاملا، وتناولها من كل أبعادها وأقطارها، وأكثر إكثارا بالغا من مناقشة الكفار عنها، وإقامة الأدلة عليها، وإبطال شبهاتهم الفاسدة فى شأنها، واستبعادهم الجدلى لها.

ولقد اعتبرها القرآن الكريم (**الأصل الثانى**) من أصول الدين بعد (**الإيمان بالله تعالى**)، كما قال تعالى: ﴿**.. ولكنّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بالله، واليوم الآخـــر، والملائكة، والكتاب، والنَّبِيِّين**﴾ سورة البقرة: ١٧٧.

ولما كان هذا الأصل شديد الإيغال فى طيات الغيب، كان أكثر الأصول إنكارا واستبعاداً من الكفار[2]، وبالتالى أكثر الأصول جميعاً تناولاً فى القرآن.

---

(١) ليس مرادنا هنا الحديث عما يسمى (بالإعجاز العددى)، وإنما القصد هو إبراز الاعجاز فى تناسب العدد مع أهمية اللفظ، أو تناسب معنى اللفظ مع عدده، والله أعلم.

(٢) الله عز وجل هو الغيب المطلق، لكن آثاره ظاهرة فى كل شيء، فكان انكار الكفار له أقل والله أعلم.

والنظرة الأولى لأسماء السُّوَر القرآنية تعطينا دلالة هذا الاهتمام القرآنى البالغ بالآخرة:

- فتارة تسمى السور باسم مباشر من أسمائها مثل سور: (القيامة ــ الواقعة ــ الحاقة ــ الغاشية ــ القارعة ــ النبأ العظيم).
- وتارة تسمى السور بشيء من المظاهر الكونية الهائلة التى تمهد لها مثل سور: (الدخان ــ التكوير ــ الانفطار ــ الانشقاق ــ الزلزلة).
- وتارة باسم مايقع فيها مثل سور: (الأعراف ــ الزمر ــ الجاثية ــ الحشر ــ التغابن ــ المعارج)[1].

فهذه أسماء (**سبع عشرة**) سورة تتعلق بالآخرة، ولم يقع مثل هذا قط لأى أصل من أصول الإيمان فى القرآن الكريم.

فإذا تجاوزنا هذه الملاحظة الشكلية ــ مع أهمية دلالتها ــ فإننا نجد ــ من الناحية الموضوعية ــ معظم سور القرآن الكريم تشتمل على ذكر الآخرة، أو مايتعلق بها، إجمالاً أو تفصيلاً، مرة واحدة فى السورة القصيرة، أو مرات كثيرة متعددة فى السور الأخرى، كالمثانى والمئين فضلاً عن السبع الطِّوال.

وقد رأينا سابقاً نماذج لتكرر أسمائها عدديا خلال القرآن الكريم.

ومن هذا كله يتبين أن حديث القرآن عنها بالغ السعة والشمول، وسنوجز بعضه فيما يأتى:

أولاً: حقيقة لاريب فيها:

فحديث القرآن الكريم عن الآخرة هو حديث الجزم القاطع، واليقين البالغ، باعتبارها حقيقة مقررة فى علم الله تعالى: وآتية لاريب فيها قال تعالى:

﴿إِنَّ السَّاعة لآتِيَة لارَيْب فيها ولكنَّ أكْثَرَ الناس لايؤمنون﴾ غافر: ٥٩.

---

(١) من هذه السور ماهو مشترك بين القيامة وغيرها، وعددناه هنا بناء على أصح الوجوه فى تفسيرها، والله أعلم.

وكلما أمعن الكفار فى الإنكار أمعن القرآن فى تأكيدها، بشتى الأساليب والدلائل، كالتعبير عنها (بالفعل الماضى) كأنها وقعت وفُرِغ منها، فلا محل للجدل فيها، قال تعالى: ﴿أتى أمْرُ الله فلا تَستَعْجِلوه﴾ أول سورة النحل.

وكالقسم الدائم عليها، وأعظمه ماأقسم فيه بذاته العظمى: ﴿زَعَمَ الذين كفروا أن لَنْ يُبعثوا قل بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ التغابن: ٧.

ثانياً: غاية الوجود وحكمته:

وقد بين القرآن العظيم أن الآخرة هى الجانب الذى يحقق حكمة الخلق، ومعنى الوجود، لأنها غاية جزاء ومصير للخلائق، تصون وجودهم عن العبث واللعب، وتحفظ مصيرهم عن البطلان والضياع، وتجعله حقاً خالصا، وحكمة تامة. قال تعالى:

﴿وما خَلَقْنَا السموات والأرض وما بينهما لاعبين* ماخلقناهما إلاَّ بالحق ولكنّ أكْثَرَهُم لايعلمون* إنَّ يَوْمَ الفَصْلِ مِيقَاتُهُم أجمعين﴾ الدخان: ٣٨ : ٤٠.

فقد نفت الآيات الكريمة اللعب عن خلق السموات والأرض وما بينهما، وربطت ذلك بالحق المؤكد على سبيل القصر والحصر، وما ذلك إلا بتقرير الله تعالى أن هناك يوما يفصل فيه بين الجميع.

وقال تعالى: ﴿وما خَلَقْنَا السموات والأرض وما بينهما إلاَّ بالحق، وإنَّ السَّاعةَ لآتية..﴾ الحجر: ٨٥.

فقد ربطت الآية الكريمة بين (الخلق، والحق، وإتيان الساعة)، إذ لو تجرد الخلق عنها لضاع منه وجه الحق والحكمة بهذه النهاية الجائرة، التى يستوى فيها المحسن والمسىء.

ولقد كان هذا هو ظن الجاهلية دائما، ووهمها الدائم الذى أبطله القرآن:

﴿وما خَلَقْنا السماءَ والأرض وما بينهما بَاطِلاً ذلك ظَنُّ الذين كفروا فويل للذين كفروا مِنَ النَّار* أَمْ نَجْعَلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسِدين فى الأرض أمْ نجعل المتقين كالفجّار﴾ سورة ص: ٢٧، ٢٨

ولذلك تنزه الله تعالى عن هذا العبث تنزها بالغا حاسما فقال تعالى

﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون * فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾ المؤمنون: ١١٥، ١١٦

ثالثاً: ضرورة لضبط الحياة الدنيا:

ويقرر القرآن العظيم أمراً بالغ الأهمية هو: أن الآخرة — حقيقة وتكليفات — هى الحافز والرادع الذى لابديل له بعد التوحيد، لضبط وإصلاح الحياة الأولى، ولولا أن الله تعالى قررها وركز لواءها لتحولت الحياة الدنيا إلى غابة وحوش، وفوضى صراع، لاسبيل فيه إلا انتحار المجتمعات، واندحار الحضارات، وانهيار الحقائق والقيم التى تقوم عليها الحياة، وتحولها إلى سعار مدمر، وشجار رهيب.

ولذلك يربط القرآن كثيرا بين مظاهر الخلل والفساد وبين إنكار الآخرة، أو إهمال شأنها، قال تعالى:

﴿إلٰهكم إلٰه واحد فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون﴾. (النحل: ٢٢):

فعدم الإيمان بالآخرة جعل قلوبهم مفعمة بالإنكار، والاستكبار، وقد حذف المفعولان للتعميم، فهم ينكرون الحق ويستكبرون عليه، وهم ينكرون حق الأمم والشعوب فى عقيدتها وحريتها، ويستكبرون عن الاعتراف به، وهكذا دائما كان الكفار والطواغيت، ولا يزالون.

ولعل فتنة الحضارة المعاصرة بعلومها ترجع إلى هذه العلة القاتلة، كما قال تعالى فى أمثالهم: ﴿.. ولكنّ أكثَرَ النّاس لايعلمون * يَعْلَمُون ظَاهِراً مِنَ الْحياة الدنيا وهم عَنِ الآخِرة هم غافلون﴾ سورة الروم: ٦، ٧.

وفى الجانب الآخر يربط القرآن بين ضروب البر والخير عند المؤمنين، وبين إيمانهم بالآخرة، قال تعالى:

﴿أم مَّنْ هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يَحْذَر الآخرة ويرجو رحمة

ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذى لايعلمون إنّما يتذكر أولو الألباب﴾ الزمر: ٩

وقال تعالى: ﴿فأمّا مَنْ طغَى ۝ وآثر الحياة الدنيا ۝ فإنّ الجحيم هى المأوى ۝ وأمَّا مَنْ خاف مقام ربه ونَهَى النفس عن الهوى ۝ فإنّ الجنَّة هى المأوى﴾ النازعات: ٣٧ : ٤١ .

وهذه مقارنة على غاية الإيجاز والإعجاز بين الجانبين:

فكل من يفضل الدنيا على الآخرة، يطغى، ويجاوز حدود الحق والخير إلى الضلال، وكل من يخاف مقام الحساب بين يدى الله، يكف نفسه عن هواها، وشهواتها، وفجورها، وأحقادها، فيصبح رحمة وبركه فى الدنيا، وتكون الجنه مأواه، وكل نفس بما كسبت رهينه.

رابعاً: من أدلة القرآن عليها:

لقد أوغل الكفار فى إنكار الآخرة، واستبعاد وقوعها، ولم يكن لديهم أدنى دليل على مايزعمون، ولذلك كانوا منها فى أمر مريج، وتخبط ظاهر:

● فتارة يعتصمون بذلك الاستبعاد السلبى الساذج:
﴿أإذا مِتْنا وكُنّا تُرابا ذلك رَجْع بَعيد﴾ سورة ق: ٣.

● وتارة يتخبطون فى أودية الظنون والشكوك:
﴿وإذا قِيلَ إنّ وَعْد الله حقّ والساعة لاريْب فيها قلتم مانَدْرِى ماالساعة إنْ نظُنّ إلاّ ظنّا وما نحن بمستيقنين﴾ الجاثية: ٣٢.
﴿بل ادَّارَك عِلْمُهُم فى الآخرة، بل هم فى شكٍّ منها، بل هم منها عَمُون﴾ النمل: ٦٦.

والمعنى: أن علمهم بالآخرة تتابع وتأكد بما قام عليها من دلائل، لكنهم تَرنَّحوا فى الشك المريب، ثم عموا عن دلائلها لأن هواهم فى إنكارها.

● وثالثة يتعلقون بشبهات واهية يسوقونها تعجيزاً وإعْنَاتاً:
﴿وإذا تُتْلى عليهم آياتُنا بيّنات ماكان حجّتَهم إلاّ أنْ قالوا ائتُوا بآبائنا إنْ كنتم صادقين﴾ الجاثية: ٢٥ .

لذلك أكثر القرآن الكريم من الرد على الكفار، وإقامة الأدلة على امكانها، بل تحققها، ووقوعها ومن ذلك:

(أ): حين طلبوا إحياء آبائهم ليخبروهم عن الآخرة، لم يكونوا جادين فى طلب الدليل، لذلك رد عليهم القرآن العظيم:

﴿قل الله يُحْيِيكم ثُمّ يميتكم ثم يَجْمَعُكم إلى يوم القيامة لاريْب فيه..﴾ الجاثية: ٢٦.

والمعنى: إن الله تعالى أحيا آباءهم من قبل فدرجوا على الأرض إلى آجالهم، ثم أماتهم، وأحيا هؤلاء المنكرين ثم يميتهم، فلا يمتنع عليه أحد فى الحالين، فلا معنى لإنكار الإعادة إلا المكابرة المحضة.

وهو كما نرى دليل حسى على البعث، يراه الأب فى أبنائه حين يولدون، ويراه الأبناء فى آبائهم حين يموتون، فما طلبوه— تعجيزا— هو واقع مكرور بين أيديهم، لو كانوا صادقين حقا فى طلب الدليل، ولذلك ختمت الآية بقوله تعالى:

﴿ ولكنّ أكْثَرَ الناس لايعلمون ﴾، والمراد والله أعلم — نفي العلم النافع، الذى ينقذهم من المراء والحَيْرة، وإلا فهم قد علموا دليل الآخرة عن يقين.

(ب): أن الله تعالى— باعترافهم— هو الخالق، وأمر الإعادة فى حكم العقل السليم أهون من البدء، كما قال تعالى:

﴿وهو الذى يَبْدَأُ الخلْق ثمّ يُعيده وهو أَهْوَن عليه﴾ الروم: ٢٧.

وهذا خطاب لهم بمقتضى مايعقلون، وإلا فإن الله تعالى يستوى فى قدرته الشامله كل شيء، كما قال تعالى فى إيجاز بالغ غاية الإعجاز:

﴿ماخَلْقكم ولا بَعْثُكُم إلاّ كنَفْس واحدة..﴾ لقمان: ٢٨.

وبذلك يتقرر أن استبعاد الكفار للآخرة، هو تناقض بيِّن، لايملكون عليه دليلا، بل هو على عكس البرهان والحجة.

(ج): الاستدلال بضخامة الكون، وضآلة المنكرين، ولا شك أن خالق هذه الكائنات والأجرام الشاسعة، يقدر على إعادة المخلوقات الضعيفة

كالإنسان، قال تعالى:

﴿لَخلْق السموات والأرض أكْبَر مِنْ خَلْق الناس..﴾ غافر: ٥٧.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أنَّ الله الذى خَلَق السموات والأرض ولمْ يَعْىَ بِخلْقِهن بِقَادِرٍ على أنْ يُحْيِيَ الموتى..﴾ الأحقاف: ٣٣.

(د): الدليل الحسى فى الأحياء أمام أبصارهم:

وقد قدمنا استدلال القرآن بالإحياء والإماته لآبائهم وأبنائهم، ونذكرهنا استدلال القرآن لهم بدورة الحياة المتعاقبة فى النبات، والتى يرونها جميعاً فى الأرض الهامدة اليابسة، فإذا نزل عليها الماء اهتزت بالخضرة والنماء، وأنبتت من كل زوج بهيج.

لقد كانت البذور مستكنة فى تربتها لاتراها العيون، فلما جاء أوانها أحيا الله هامدها، فأى فرق بين الحياتين عند العقول المنصفة؟ قال تعالى: ﴿ ومِنْ آياتِه أنَّك تَرَى الأرض خاشِعَةً فإذا أنْزلنا عليها الماءَ اهْتَزَّت وَرَبَتْ إنَّ الذى أحياها لَمُحيْى الْمَوْتَى إنّه على كل شىء قدير ﴾ سورة فصلت: ٣٩.

وقال تعالى: ﴿ ..وَأَحْيينا به بَلْدَةً مَّيْتاً كذلك الخروج ﴾ سورة ق: ١١.

أى أن الماء ينزل على البذور، فتنبت وتموج بالحياة، ومثل ذلك يكون خروج الناس من قبورهم للبعث والحساب.

ومن المفيد هنا بيان أن هذا ليس تشبيها تمثيليا مجازيا، وإنما هو تشبيه (**حقيقى**) تماما، بدليل أن الآية الأولى إخبار لاتشبيه (**إن الذى أحياها لمحى الموتى**) وقد شرح النبى ﷺ هذه الآيات وأمثالها فى القرآن الكريم، وبين أنها مراد بها الحقيقة، ومن ذلك قوله عليه السلام «.. ثم ينزل الله من السماء ماء فينبُتُون كما ينبت البَقْل، قال وليس من الإنسان شىء إلاّ يَبْلَى، إلاَّ عظْما واحدا وهو عجْب الذَّنَب، ومنه يُرَكَّب الخلق يوم القيامة»[1].

خامساً: من مشاهد الآخرة:

وهى مشاهد بالغة الهول والعجب، تبدأ بمقدمات اليوم الآخر، وتتبع

---

(١) رواه مسلم جـ ٨ ص ٢١٠ كتاب: الفتن واشراط الساعة، باب: مابين النفختين. وانظر البخارى جـ٦ ص٣٤.

بمشاهد يوم القيامة حتى الفصل بين الخلائق، ثم تستمر فى الدار الآخرة استمراراً أبدياً بين الجنة أو النار .

وقد استفاض القرآن الكريم فى عرضها، وبيانها، ومقارنتها، استفاضة بالغة، وبأساليب شتى، وسنعرض بعضها هنا فى إيجاز، لكثرتها الكاثرة، وتنوعها العجيب :

١ ــ نفخة الصعق :

وهى النفخة الأولى التى يُبَاغَت بها الكون، فتختم بها النشأة الأولى، وينتهى بها كل أثر للحياه والأحياء، إلا من شاء الله، وتبدأ بها مقدمات النشأة الآخرة، فيتصدع الكون وتنقلب قوانينه بإذن ربه، قال تعالى :

﴿ونُفِخَ فى الصُّور فَصَعِقَ مَنْ فى السّموات ومَنْ فى الأَرْض إلاَّ مَنْ شاء الله ..﴾ الزمر : ٦٨ .

والصّور (بُوق) عظيم، ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام كما جاء فى السنة، والصعق (الموت)، ويبقى بعض الأحياء بأمر الله كجبريل وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، ثم يقبض الله تعالى كل حىّ بعد ذلك، كما قال تعالى : **﴿.. كلُّ شىء هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَه﴾** القصص : ٨٨ .

﴿كلّ مَنْ عليها فَانٍ * ويَبْقَى وَجْهُ ربِّك ذو الجلال والإكرام﴾ سورة الرحمن : ٢٦ ، ٢٧ .

٢ ــ نفخة الإحياء :

وهى النفخة الثانية، التى يردّ الله تعالى بها الحياة لكل ميت، وبينها وبين الأولى مدة ما[1]، بدليل حرف العطف (ثم) فى قوله تعالى :

﴿ونُفِخَ فى الصّور فَصَعِق مَنْ فى السموات ومَنْ فى الأرض إلاَّ مَنْ شاء الله ثُمّ نُفِخَ فيه أُخْرَى فإذا هم قِيَام يَنْظرون﴾ الزمر : ٦٨ .

---

(١) لم يذكر القرآن العظيم هذه المدة، وقد جاء فى حديث أبى هريرة المتفق عليه أنها : (أربعون) قالوا : ياأبا هريرة أربعون يوما؟ قال : أبيت، قالوا أربعون شهرا؟ قال : أبيت، قالوا : أربعون سنة؟ قال : أبيت) أى نسى مقدار المدة التى قالها النبى ﷺ . (أنظر البخارى جـ٦ ص٣٤، ومسلم جـ٨ ص٢١٠)

وهذه النفخة يفزع منها كل حى حينئذ[1] من الأولين والآخرين، كما قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّور فَفَزِعَ مَنْ فى السموات وَمَنْ فى الأرض إلاّ مَنْ شاء الله وكلٌّ أتَوْه داخرين﴾ النمل: ٨٧ .

وهؤلاء الذين لايفزعون منها بمشيئة الله هم الصالحون كما جاء بعدها:

﴿مَنْ جاء بِالْحَسَنَة فله خَيْر منها وهم مِنْ فَزَعٍ يومئذ آمنون﴾ النمل: ٨٩ .

٣ـــ تصدع الكون وتبديله :

وقد أخبرنا الله تعالى أن الكون كله سيصيبه تصدع هائل، يشمل جوانبه جميعا، ويبدأ ذلك من النفخة الأولى، ويستمر مع النفخة الثانية، حتى يتحول الكون ويتبدل، وتنقلب خلال ذلك نظمه، وقوانينه، ومعاييره، انقلابا بالغ العنف والعصف، شامل الفزع والروع، فى السموات والأرض جميعا .

- أما الأرض فتتزلزل زلزالاً عظيماً، وترج رجاً عنيفاً، وتتمدد وتتشقق، وتتصدع من جوانبها جميعاً، بل تدك دكة واحدة، حتى تتبدل شيئاً آخر فى نهاية الأمر .

  أما ماعليها من أحياء وأشياء فيتابعها القرآن حتى يجليها للناس كأنها رأى العين، ولمس اليد، بعبارات قارعة تملأ النفس هولا ورعبا :

  فالجبال تنسف نسفا، حتى تصير كثيبا مهيلا، وهباء منبثا، أو كالصوف المنفوش، يتطاير فى الفضاء، ويمر مرّ السحاب .

  أما البحار فتُفَجّر وتُسجّر وتنقلب نارا .

  أما القبور فتبعثر، وتتشقق، ويخرج منها أهلها سراعا.

- أما السماء فتتشقق وتتصدع، فتصير وردة كالدهان، وتذوب مادتها فتصير

---

(١) رجحنا أنها النفخة الثانية بدليل الجملة بعدها (وكلٌّ أتَوْه داخرين)، وبعض المفسرين يرى أنها النفخة الأولى، والمراد الفزع قبل الصعق، والتحقيق مارجحناه والله أعلم .

كالمهل[1]، وتصبح هشة واهية، حتى تتبدل فى نهاية التحول إلى شيء آخر.

أما أجرامها العظام فيصيبها التغير التام، فتعتم وتظلم شمسها، وتطمس نجومها، ويخسف قمرها، وتتناثر كواكبها.

وكل هذا وأكثر منه قد ذكره القرآن العظيم نصًّا، وفصله تفصيلا، أو أجمله إجمالا، فمن هذا الإجمال الجامع قوله تعالى:

﴿يَوْم تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأرض، والسموات، وبَرَزُوا لله الواحد القهار﴾ إبراهيم: ٤٨.

﴿وما قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ والأَرْضُ جميعا قَبْضَتُه يوم القيامة، والسّموات مَطْوِيَّاتٌ بيمينه سبحانه وتعالى عمّا يشركون﴾ الزمر: ٦٧.

ومن التفصيل الذى يخلع القلوب قوله تعالى:

﴿إِذَا زُلْزِلَتْ الأَرضُ زِلْزَالها﴾ أول الزلزلة.

﴿إِذَا رُجَّتِ الأَرضُ رَجًّا﴾ الواقعة: ٤.

﴿وإِذا الأَرضُ مُدَّتْ * وأَلْقَتْ مافيها وتَخلَّتْ * وأَذِنَتْ لربها وحُقَّتْ﴾ الانشقاق ٣: ٥.

﴿وَحُمِلَتِ الأَرضُ والجبال فَدُكَّتا دَكَّةً واحدة﴾ الحاقة: ١٤.

﴿يوْم تَكُون السّماء كالْمُهْل * وتَكُون الجبال كالْعِهْن﴾ المعارج ٨، ٩

وقال تعالى:

﴿وانْشَقَّت السماء فهى يَوْمَئِذٍ وَاهِية﴾ الحاقة: ١٦.

﴿إِذا الشّمسُ كُوِّرَتْ * وإذا النجوم انْكَدَرَتْ﴾[2] التكوير: ١، ٢.

﴿فإِذا النُّجومُ طُمِسَتْ﴾[3] المرسلات: ٨، **﴿وخَسَفَ القمر﴾** سورة القيامة: ٨.

---

(١) المُهْل هو: عكر الزيت، أو الشيء المذاب والله أعلم، ومعنى (وردة كالدهان) قريب من هذا، أى: أنها تصير حمراء من شدة الحرارة، ثم تذوب كالدهن.

(٢) كورت ذهب نورها، وانكدار النجوم سقوطها.

(٣) طمست: ذهب ضوؤها.

ومن يقرأ القرآن العظيم يجد ذلك مبثوثاً فى معظم سوره ، خاصة السور المكية التى نزلت تأسيساً للعقائد ، كالواقعة ، والحاقة ، والقيامة ، والتكوير ، والانفطار ، والانشقاق ، والقارعة .

ولسبب حكيم سميت هذه السور بأسماء القيامة ، ومظاهرها المروعة ، حتى لا تغيب دلالتها وتذكرتها عن القلوب الواعية .

هذا وقد أتعب بعض المفسرين أنفسهم فى ربط هذه التغيرات الهائلة بإحدى النفختين على التحديد ، وهى أمور لا مجال فيها للاجتهاد والرأى ، وإنما طريقها النقل الصحيح ، أو الاستنباط من مقارنة الآيات الكريمة ، بعد جمعها ، ودراستها ، ومراجعة ما ورد فى تفسيرها من السنن الصحيحة .

والذى يظهر من تأمل الآيات الكريمة أن هذه التحولات الهائلة تتم تباعاً بإذن ربها ، فتبدأ مع النفخة الأولى ، وتستمر بعدها ، حتى تدركها النفخة الثانية ، فيرى الخلائق ـــ بعد البعث ـــ حقائقها ، ونهاياتها ، ويشاهدون أحوالها وأهوالها فى مواطن هذا اليوم المشهود كما قال تعالى : ﴿ ... **ذلك يوم مَجْموع له الناس وذلك يوم مَشْهود** ﴾ سورة هود : ١٠٣ وقد أشار العلامة « أبو السعود » إلى مثل هذا فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **وتَرَى الجبالَ تَحْسَبُها جامدةً وهى تَمُرُّ مَرَّ السَّحاب** ... ﴾ سورة النمل : ٨٨ . يقول رحمه الله :

« وهذا مما يقع بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق ، يبدّل الله عز وجل الأرض غير الأرض ، ويغير هيئتها ، ويسير الجبال عن مقارها ، على ما ذكر من الهيئة الهائلة ، ليشاهدها أهل المحشر ، وهى وإن اندكت وتصدعت عند النفخة الأولى ، لكن تسييرها ، وتسوية الأرض إنما يكون بعد النفخة الثانية ، كما نطق به قوله تعالى : ﴿ **وَيَسْألونك عن الجبال فقُلْ يَنْسِفُها ربّى نَسْفاً * فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً * لا ترى فيها عِوَجاً ولا أَمْتاً**[1] *** يومئذ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِىَ** ... ﴾ طه : ١٠٥ ـــ ١٠٨ ... فإن اتباع الداعى الذى هو إسرافيل عليه السلام ... لا يكون إلا بعد النفخة الثانية » .

---

(١) المراد تسويتها تسوية كاملة ، ومعنى قاعاً : منبسطاً ، وصفصفاً : مستوياً ، وعوجاً : انخفاضاً ، وأمتاً : ارتفاعاً .

٤ ـــ أحوال الناس من البعث إلى الفصل :

من خلال هذه الانقلابات الكونية الرهيبة ، يعرض القرآن أحوال الناس فى عرصات القيامة ، وما يلقونه من أهوال وشدائد ، والمواقف التى يستوون فيها جميعاً ، والمواقف التى يفترقون فيها على أساس الإيمان والكفر ، والطاعة والمعصية ، وذلك منذ الزجرة الأولى التى بعثوا بها من القبور ، إلى سوقهم زمراً إلى الجنة أو النار ، وما بين ذلك من مشاهد الحساب والفصل بين يدى الملك الديان ، على ما نوجزه فى الفقرات التالية[١] :

أولاً : الشتات الشــامل :

وهو الهيئة العامة التى تعترى الناس جميعاً للوهلة الأولى ، حين يبغتهم البعث فيبهتهم ، ويخرجون من القبور سراعاً على غاية التشتت والذهول ، ويُصْدمون بمظاهر التصدع الكونى الهائل ، فيهيمون على وجوههم حيارى ، بلا وجهة ولا نظام ، كما قال تعالى :

﴿ يومئذ يَصْدُر النّاسُ أشتاتاً لِيُرَوْا أعْمالَهم ﴾ سورة الزلزلة : ٦

والمراد أنهم يرجعون إلى ربهم من قبورهم على هذه الهيئة ، يقال : « جاءوا أشتاتاً أى : متفرقى النظام[٢] » ، وهذا ما فصّله القرآن الكريم : ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المَبْثوث ﴾ القارعة : ٤ . ﴿ فتولّ عنهم يوم يدعُ الدّاعِ إلى شئ نُكُر * خُشّعاً أبصارهم يَخرجون مِنَ الأجْداث كأنهم جَرادٌ مُنْتشِر * مُهْطِعِينَ[٣] إلى الدّاعِ يقول الكافرون هذا يوم عَسِر ﴾ سورة القمر : ٦ ـــ ٨ .

يقول الفخر الرازى رحمه الله فى تفسيره الكبير :

« شبّه اللهُ تعالى الخلق وقت البعث هنا بالفراش المبثوث ،وفى آية أخرى بالجراد المنتشر ،أما وجه التشبيه بالفراش ، فلأنه إذا ثار لم يتجه إلى جهة

---

(١) نذكر الفقرات متتابعة تمييزاً وتقسيماً ، لا ترتيباً ، فإن بعضها متداخل فى بعض .

(٢) مفردات الراغب ، مادة « شتت » ص : ٢٢٥ .

(٣) مهطعين : مسرعين مادّى أعناقهم إلى الأمام ، من شدة السرعة والخوف وذلك حين يطوّل إسرافيل النفخة الثانية ويمدها حتى يجمع هذا الشتات المتفرق .

واحدة ، بل كل واحدة تذهب إلى غير جهة الأخرى ، فدل على أنهم إذا بعثوا فزعوا .

وأما وجه التشبيه بالجراد فهو فى الكثرة ، يصبحون كغوغاء الجراد ، يركب بعضهم بعضاً » .

وهذه الصدمة الأولى مما يستوى فيه الجميع ، من فرط البغتة والشدة ، ولذلك جاءت الآيات بلفظ العموم : ﴿ **يصدر الناس ، يكون الناس .. إلخ** ﴾ والله أعلم .

ثانياً : الحشر والتمييز بين المؤمن والكافر :

ثم يجمع هذا الشتات ، على صوت المنادى ، ويحشرون جميعاً فى أرض الموقف ، ويدرك فضل الله المؤمنين ، فتبشرهم الملائكة ، ويزايلهم هول الصدمة الأولى ، ويستمر البلاء على الكفار والمجرمين متصاعداً ، قال تعالى :

﴿ **... ويوم نُسَيِّر الجبال ، وتَرَى الأرضَ بارِزَةً * وحَشَرْناهم فَلَمْ نُغَادِر منهم أحَدًا** ﴾ سورة الكهف : ٤٧ .

والحشر إخراج الجماعة ، وإزعاجهم إلى الحرب ونحوها من مواطن الفزع(١) .

● أما المؤمنون فيقول تعالى عنهم :

﴿ **لَا يَحْزُنُهم الْفَزَعُ الأكبر وَتَتَلَقَّاهم الملائِكَةُ هذا يوْمُكم الذى كنتم تُوعَدون** ﴾ الأنبياء : ١٠٣ .

﴿ **فَوَقَاهم اللهُ شرَّ ذلك اليوم ولقَّاهم نَضْرَةً وسُرُورا** ﴾ الإنسان : ١١ .

● أما الكافرون والمجرمون الظالمون فيتفاقم الأمر عليهم آناً بعد آن :

فهم يصرخون بالويل لأول البعث : ﴿ **ونُفِخَ فى الصُّور فإذا هم من الأجْدَاثِ إلى ربهم يَنْسِلُون * قالوا يا ويلنا مَن بَعثنا من مَّرْقدنا ؟ ..** ﴾ يس : ٥١ ، ٥٢ .

---

(١) وقد يطلق على الجمع للخير : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ﴾ .

ويوسمون بوسم الذل والصغار ﴿ يوم يُنْفَخُ فى الصُّور ونَحْشُرُ المجرمين يومئذ زُرْقا ﴾ سورة طه : ١٠٢ .

والمراد كما يقول المفسرون — زرقة العيون ، تقبيحاً لهم ، وتمييزاً لهم بها عن المؤمنين ، الذين يلقّون النضارة والسرور .

ثالثاً : طول الموقف وحكمته البالغة :

ويخبر القرآن العظيم أن الناس يطول الموقف بهم طولاً بالغاً ، بما لا عهد للناس به ، ولا طاقة لأحد عليه ، قال تعالى :

﴿ تَعْرُج الملائكةُ والروحُ إليه فى يوم كان مقدارُه خمسين ألْفَ سَنَة ﴾ المعارج : ٤ .

يقول بعض المفسرين :

« .. الكلام من قبيل التمثيل والتخييل فليس المراد حقيقة ذلك العدد ، بل المراد الإشارة إلى أنه يطول على الكافر لما يلقى فيه من الشدائد .. »[1] وقد نبهنا فى الأصول السابقة إلى خطر هذا اللون من التفسير ، وأنه يفتح الباب إلى هدْم الثقة فى حقائق الشرع وأخباره ، خاصة فى باب العقائد . **ولذلك نجزم هنا بأن العدد على حقيقته** ، ولا سبيل إلى صرفه وتأويله بتكلفات لا معنى لها ، لِأن القرآن كلام رب العالمين ، وقد وُضِع على أتمّ المقادير والموازين ، ولو أراد الله تعالى التقريب أو التمثيل لجاء بالعبارة المفيدة ذلك تماماً .

ولقد وقع الخطأ والخلط من قياس القرآن على أساليب العرب المجردة ، وقطعه عن خصائصه المميزة ، ثم من قياس الغائب على الشاهد ، وعدم ملاحظة الفارق الشاسع بين مقاييس النشأتين ، فضلاً عن أن هذا « خبر عن حقيقة » فلا يحتمل التأويل ، وإلا أفضى إلى وصف الكتاب الحق بالكذب والعياذ بالله تعالى .

فالحق المتعين ، والذى يقتضيه الشرع ، والعلم ، والآدب مع الله تعالى وكلامه — **هو الاعتقاد التام بأن هذا وأمثاله هو على حقيقته** ، والله تعالى أعلم بكيفيته ، ولا بد من الإيمان به على وجهه القرآنى الصريح ، ولا علم لنا

(١) انظر حاشية الجمل على تفسير الجلالين جـ ٤ ص ٤٠٤ .

إلا ما علمنا الله تعالى من هذه الغيوب .

على أننا نقول : إن هذا العدد مقصود به الحقيقة إظهاراً للعدل الإلهى التام، لأنه يوم يجمع الله فيه الأولين والآخرين ، وهم لا يحصون كثرة إلا فى علم الله تعالى ، ثم يحاسبهم فرداً فرداً ، وعلى كل صغيرة وكبيرة ، ثم يتيح لكل منهم الفرصة الكاملة للدفاع عن نفسه ، ولو بالجدل والكذب « كما سنبين بعد قليل إن شاء الله تعالى » لأنه على هذا الحساب سيتقرر مصير الأبد ، وحياة الخلد ، فكيف يستطيل العقل هذا العدد ؟ إنه لو خُلّى إلى مقاييسه لحكم بأن هذا العدد قليل جداً بالنسبة إلى هذه الجموع التى لا يحصيها العدّ ، وإلى هذه الأعمال التى لا يحصرها الإحصاء ، ولولا أنّ الله تعالى هو ﴿ أسْرَع الحاسبين ﴾ لاحتاج الحساب إلى مئات الألوف من السنين ، ولا يقال هنا إن الله تعالى قادر على هذا الحساب فى أقرب من لمح البصر ،لأنه حقاً على ذلك قدير ، ولكن القضية تتعلق بسؤال الخلق ، وردهم ، وجدلهم ، ومعاذيرهم ، وقد جاء الطول من هذه الجهة ، لا من جهة القدرة الإلهية الباهرة . والمقصود بالذات هو التنبيه على خطر التأويل فى حقائق الدين ، خاصة ما جاء فى القرآن الكريم ، باعتباره كلام الحكيم الخبير ، المحفوظ المتواتر بألفاظه وحروفه ، والله أعلم بمراده ، وأسرار كتابه .

رابعاً : أحوال الموقف وأهواله :

ويعرض القرآن مشاهد كثيرة عن هذا اليوم الطويل تتعلق بأحوال الخلق ، وما يلاقونه من أهوال فى ذواتهم ، وما يتتابع عليهم فى المواطن المتعددة ، حتى يساقوا للحساب ، ومن ذلك :

أ ــ تقطع الأنساب والأسباب :

ففى هذا الموقف يموج بعضهم فى بعض ، وتتقطع كل علائق الدنيا ، وتتمزق روابط الزيف والخداع ، وتهمل الأنساب والوصلات ، ويصبح الفرار شعار الجميع ، والنجاة بالنفس مطلب كل نفس ، قال تعالى :

﴿ فإذا نُفِخَ فى الصُّور فلا أنسَاب بينهم يومئذ ولا يَتسَاءَلون ﴾

المؤمنون : ١٠١ . ﴿ **يوم يَفِرُّ المرءُ مِنْ أخِيه * وأمّه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكلّ امرىءٍ منهم يومئذ شأن يُغْنيه** ﴾ سورة عبس : ٣٤ — ٣٧ .

﴿ **إذ تَبَرَّأَ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعُوا ورَأوُا العذابَ وَتَقَطَّعت بهم الأسْباب** ﴾ البقرة : ١٦٦ .

ب — تباين الأحوال :

ففى هذا الموقف الطويل تتعدد المواطن فتتباين الأحوال ، وتختلف الأقوال والأفعال :

● فتارة يؤذن لهم فى الكلام ، فيتساءلون ، ويتلاومون ، ويتسَابُّون ، ويتبرأ الأصدقاء من بعضهم البعض ، وتلعن الأمم طواغيتها ، وسادتها ، ورؤساء الضلال فيها ، قال تعالى : ﴿ **وأقْبَل بعضُهم على بعض يتساءلون * قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين * قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ..** ﴾ الصافات : ٢٧ — ٢٩ .

وهى محاورة يائسة بين الطواغيت والمستضعفين ، لا تغنى عنهم شيئاً .

﴿ **وقال إنّما اتخذتم من دون الله أوثاناً مَوَدَّةَ بينكم فى الحياة الدنيا ثمّ يوم القيامة يَكْفُر بعضُكم ببعض وَيلْعن بعضُكم بعضاً ومأْوَاكم النار ...** ﴾ العنكبوت : ٢٥ .

● وتارة يختم الله على أفواههم فلا ينطقون حرفاً من شدة الفزع والروع :

﴿ **هذا يومُ لاينْطِقُون * ولا يُؤْذن لهم فيَعْتَذِرون** ﴾ .

سورة المراسلات : ٣٥ — ٣٦ .

وهذا **أصل جامع** فى فهم هذه **القضايا المتعارضة** : مثل : إثبات الكلام لهم ونفيه عنهم ، وإثبات التساؤل ونفيه ، وإثبات الاعتراف بالذنوب وإنكارها كما قالوا : ﴿ **والله رَبّنا ما كُنّا مُشْركين** ﴾ الأنعام :٢٣ فهذا كله وأمثاله يحمل على **اختلاف الأحوال باختلاف المواطن** ، وقد روى هذا عن **ابن عباس** وجماعة من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين[1] .

---

(١) انظر تفسير فتح القدير للشوكانى فى الآية رقم ١٠١ من سورة « المؤمنون » .

جـ ـــ المقام المحمود « أول شفاعة فى هذه الأهوال » :

يعرض القرآن الكريم مشاهد من الهول والرهبة يصل فيها الناس إلى غاية الكرب ، وذلك حين يشتد المقام ، ويطول الموقف ، ويمتد الوجل والانتظار ، حتى على المؤمنين والملائكة ، قال تعالى :

﴿ يوم يقوم الرُّوحُ والملائكةُ صفاً لا يتكلمون إلا مَنْ أَذِنَ له الرحمن وقال صَوَابا ﴾ النبأ : ٣٨ .

﴿ يومئذ لا تَنفَعُ الشَفاعَةُ إلا مَنْ أَذِنَ له الرحمن ورَضِىَ له قولا ﴾ طه : ١٠٩ .

وأول شفاعة إأذن بها الرحمن جل شأنه هى التى سماها القرآن : « المقام المحمود » ، ووعد بها محمداً ﷺ :

﴿ ومِنَ اللّيل فَتَهَجَّدْ به نَافِلَة لك عسى أَنْ يَبْعثك ربُّك مَقَاماً مَحْمُودا ﴾ الإسراء : ٧٩ .

وقد ثبت تفصيل هذا فى السنة[1] حتى بلغ درجة التواتر كما قال الشوكانى رحمه الله[2] وهو المقام الذى يحمده فيه الأولون والآخرون ، لشفاعته فى إراحة الخلق من طول الموقف .

خامساً : الحســاب والفصــل :

وهذا هو أشد المواقف هولاً على الهول ، إذ تنصب فيه الموازين ، وتنشر الدواوين ، وتنكشف الأسرار والأستار ، وتظهر السرائر ، وتتقرر المصائر ، ويكون الجميع على غاية الوجل ، لأن كلاً منهم لا يدرى ما الله قاض فيه ؟.

وقد استفاض القرآن العظيم فى عرض مشاهد هذا الجانب بما يخلع القلوب

---

(١) انظر هذا فى البخارى ج ٥ ص ٢٢٥ « كتاب التفسير ــ تفسير سورة الإسراء » .

(٢) فتح القدير ج ٣ ص ٢٥٢ فى تفسير آية الإسراء المذكورة . ويلاحظ هنا أن الأصل ثابت بالقرآن ، وقد جئنا بالسنة شارحة لا منشئة لعنصر ، لأننا فى مجال « الموضوع القرآنى » كما قلنا فى الأصول السابقة ، لا نثبت إلا عناصر القرآن فقط .

خلعاً ، ويبكى العيون دماً لا دمعاً ، نسأل الغفور الرحيم العفو والعافية ، من هول هذا اليوم العصيب الرهيب ، ومن هذه المشاهد :

١ ـ كل أمة جاثية :

وهذا هو الانتظام الأكبر فى المحشر ، لقد كانت الخلائق كالفراش المبثوث بلا وجهة ، ثم صاروا كالجراد المنتشر متجهين إلى صوت الداعى ، ثم حشروا فى أرض الموقف ، ثم جمعوا أمماً كما كانوا فى الدنيا ، كل أمة تتبع نبيها ، ثم تبْرك الأمم على ركبها ، فى انتظار **الشهادة العامة** لكل نبى بالبلاغ ، قال تعالى : **﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً ، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إلى كتابها اليوم تُجْزَوْن ما كنتم تَعْمَلون * هذا كتابُنا يَنْطق عليكم بالحق إنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كنتم تعملون ﴾** الجاثية : ٢٨ ـ ٢٩ .

و « جاثية » من الجثوة : وهى الجماعة .

أو من الجثو : وهوالبروك على الرُّكَب ، وكلا المعنيين مراد هنا . فكل أمة تأتى مجموعة متميزة ، ثـم تبـرك مستوفزة على رُكَبها « قال سفيان المستوفز الذى لا يصيب الأرض منه إلا ركبتاه وأطراف أنامله ، قال الضحاك : وذلك عند الحساب ، ... وهذا عام للمؤمن والكافر انتظاراً للحساب ...

فإن قيل المؤمنون لا خوف عليهم يوم القيامة ، فالجواب : إن المحقّ قد يشارك غيره فى هذه الحالة ، إلى أن يظهر كونه مُحقّاً »[1] .

ومما يزيد الأمر هولاً كون هذا البروك حول جهنم : **﴿ فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لَنُحْضِرنهم حوْل جَهَنَّم جِثِيًّا ﴾** سورة مريم : ٦٨ .

٢ ـ والرسـل شـاهدة :

وقد قرر القرآن أن الله تعالى لم يدع أمة إلا وبعث فيها رسولاً : **﴿ ولقَدْ بَعَثْنا فى كل أمَّةٍ رسولا .. ﴾** النحل : ٣٦ .

وفى هذا الموطن يجاء بالرسل عليهم السلام ، فيسألهم الله تعالى فى مواجهة

---

(١) انظر حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ١٢٠ تفسير آية الجاثية المذكورة ، مع تصرف يسير .

الأمم السؤال العام ، الذى يتقرر به الحساب العام ، فيشهدون على أممهم بالبلاغ ، وأداء أمانة الوحى إليهم ، وهذا الموقف من أشد المواطن هولاً على الأمم جميعاً ، قال تعالى :

﴿ ويوم نَبْعَثُ فى كلِّ أمَّةٍ شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾ النحل : ٨٩ . **﴿ فكيف إذا جئنا مِنْ كلِّ أمَّةٍ بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً * يومئذ يَوَدُّ الذين كَفَروا وَعَصَوُا الرسول لَوْ تُسَوَّى بهم الأرضُ ولا يَكْتُمون اللهَ حَدِيثا ﴾** النساء : ٤١ ، ٤٢ .

وهذا الموقف هو الذى أبكى رسول الله ﷺ ، يوم طلب من ابن مسعود رضى الله عنه أن يقرأ عليه القرآن ، فقرأ حتى بلغ هذه الآية الجليلة ، فقال له ﷺ « حسبك الآن » فإذا عيناه تَذْرِفان[1] .

وهذا الموقف من أشد المواقف على الرسل أنفسهم عليهم السلام ، لأنهم يُسْألون سؤالين : هل بَلَّغتم ؟ وبماذا أجابتكم الأمم ؟ وهذا الأخير أشدها ، لأن فى جوابه هلاك الأمم الضالة جميعاً ، قال تعالى :

﴿ يوم يَجْمَعُ اللهُ الرّسلَ فيقولُ ماذا أُجِبْتُم قالوا لا عِلْمَ لنا إنّك أنْت علّامُ الغيوب ﴾ المائدة : ١٠٩ .

« وعن مجاهد رضى الله عنه قال : « يفزعون فيقولون لا علم لنا ، فترد إليهم أفئدتهم فيعلمون » ... ، وعن السُّدِّى فى الآية قال : ذلك أنهم نزلوا منزلاً ذهلت فيه العقول ، فلما سئلوا قالوا : لا علم لنا ، ثم نزلوا منزلاً آخر فشهدوا على قومهم »[2] .

٣ ــ اعتراف الأمم :

ويقرر القرآن العظيم ، أن الله تعالى إتماماً لحجته البالغة ، وعدله الأعلى ، يسأل الأمم هذا السؤال العام عن البلاغ ، ويترك لهم الفرصة للمعاذير والإنكار ، إلى أن يقيم الرسل عليهم الحجة ، قال تعالى :

---

(١) البخارى ج ٥ ص ١٨٠ تفسير سورة النساء ، وتذرفان : أى يسيل دمعهما .

(٢) انظر أسانيد هذه الآثار فى فتح القدير ج ٢ ص ٩١ فى تفسير الآية الكريمة .

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرسِلَ إليهم وَلَنَسْأَلَنَّ المرسَلِين * فلنقُصَّنَّ عليهم بِعِلْمٍ وما كنّا غائبين ﴾ الأعراف : ٦ ، ٧ .

وفى الآية الكريمة التى تقدمت اضطرارهم للاعتراف تحت وطأة الحجج :
﴿ يومئذ يَوَدّ الذين كفروا وعَصَوُا الرسولَ لو تُسَوَّى بهم الأرضُ ولا يَكْتُمونَ الله حديثا ﴾ النساء : ٤٢ .

٤ ــ الحســاب الفردى :

فإذا قامت الحجة العامة الشاملة بالبلاغ النبوى للأمم ، قام الحساب الفردى الشخصى لكلٍّ على حدة ، قال تعالى : ﴿ لقد أحصاهم وعدّهم عدّاً * وكلّهم آتية يوم القيامة فَرْدا ﴾ مريم : ٩٤ ــ ٩٥ . ﴿ يوم تأتى كل نفس تجادلُ عن نفسها .. ﴾ النحل : ١١١ .

وهذا غاية العدل ، والرحمة ، وإنصاف العبد ، أن تكون المسئولية شخصية ، وبعد بلاغ الرسل عليهم السلام ، قال تعالى :

﴿ ... وَلَاتَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى وما كنّا مُعَذِّبين حتى نَبْعَثَ رسولا ﴾ الإسراء : ١٥ .

وفى هذا الحساب ، يعطى الله تعالى لكل فرد الفرصة الكاملة الواسعة ليدافع عن نفسه ، ويلقى معاذيره ، ويجادل عن أعماله ولو بالكذب ، والأيمان الباطلة مع علمه تعالى التام بحقيقة ذاته وأعماله ، قال تعالى :
﴿ يقولُ الإنسانُ يومئذٍ أَيْنَ المَفَرّ ؟ * كَلّا لَا وَزَرْ[1] * إلى رَبّك يومئذٍ الْمُسْتَقَرّ * يُنَبَّأُ الإنسانُ يومئذٍ بما قدّم وأخّر * بل الإنسانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * ولَو أَلْقَى مَعَاذِيرَه ﴾ سورة القيامة : ١٠ ــ ١٥ .

والحسـاب الفردى نوعان :

● **عرض فقط** : وهو : « الحساب اليسير » الذى يُذَكّر اللهُ تعالى فيه العبدَ بأعماله ، ويريه فضله عليه بالمغفرة والنجاة .

---

(١) الوزر الملجأ الذى يلتجأ إليه من الجبل عند الفزع ونحوه .

● مناقشة : وهو الذى يحاسب فيه العبد على أعماله جميعاً ، ويناقش فيها ، ويجرى عليه الحكم كما سنبين بعد قليل إن شاء الله .

ومع علم الله تعالى الشامل ، المحيط بالأشياء كلها ، فإنه تعالى يجرى هذا الحساب على أتم ضروب العدل والتحقيق ، حتى لا يكون لدى أحد أدنى شك فى الحكم ، الذى يتعلق به مصير الفرد أبداً .

ومن ركائز هذا العدل البالغ :

أ ـ صحائف الأعمال :

وهي الصحف التي سجلتها الملائكة على كل فرد فى الدنيا ، قال تعالى : **﴿ ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلّا لَدَيْه رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾** سورة ق : ١٨ .

﴿ وإنّ عليكم لحافظين * كِرَاماً كاتبين * يَعْلَمُون ماتفعَلُون ﴾ الانفطار : ١٠ ـ ١٢ .

ثم توزع كل صحيفة على صاحبها بذاته :

﴿ وكلَّ إنسَانٍ ألْزَمْناه طَائِرَه فى عُنُقِه ونُخرِجُ لَهُ يوم القيامة كِتَاباً يَلْقَاه مَنْشُوراً * إقْرأْ كتابَك كَفَى بِنَفْسِكَ اليوم عليك حَسِيبا ﴾ الإسراء : ١٣ ـ ١٤ .

ويحدد القرآن طريقة التوزيع إمعاناً فى التأكيد ، وبشيراً ونذيراً :

﴿ فأمّا مَنْ أُوتِيَ كتابه بيمينه * فسَوْفَ يُحاسَب حِسَاباً يسيرا[1] * وينقلب إلى أهله مَسْرورا * وأمَّا مَنْ أُوتِيَ كتابه وراء ظَهْرِه * فسوف يَدْعُو ثُبُورا ﴾ الانشقاق : ٧ ـ ١١ .

---

(١) فى الحديث الصحيح شرح لهذا النص القرآنى : « قال رسول الله ﷺ ليس أحد يحاسب إلا هلك ، قالت عائشة : جعلنى الله فداءك ، أليس يقول الله عز وجل : ﴿ ... حساباً يسيراً ﴾ قال : ذاك العرض يعرضون ، ومن نوقش الحساب هلك » ، انظر البخارى ج ٦ ص ٨٠ تفسير سورة الانشقاق .

ويقرأ كلٌّ صحيفته ، ويكثر الجدل ، والمعاذير ، والأكاذيب فتأتى حينئذ :

ب ـ شـــهادة الشــهود :

هذا من غاية إتمام العدل ، لأن علم الله تعالى ، والصحف فيهما الكفاية ، ولكن الله تعالى يأذن بالشهود ، حتى يحقق للفرد غاية البيان ، وتقوم عليه البينات الناطقات ومنها :

● شهادة **الحفظة** : ﴿ **وجاءت كل نفْس معها سائِقٌ وشهيد** ﴾ سورة ق : ٢١ .

● شهادة **الأرض** : ﴿ **يومئذٍ تُحَدِّث أخْبارها** ﴾ سورة الزلزلة : ٤ . « .. فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمَةٍ : بما عمل على ظهرها ، أن تقول : عمل كذا وكذا ، يوم كذا وكذا »(١) .

● شهادة **الجوارح** : وذلك عندما يمارى الإنسان ويجادل ، ويتعلق بآخر خيوط الوهم ، ولا يرضى شاهداً عليه إلا من نفسه ، فيأمر الله تعالى جوارحه أن تنطق شاهدة بما عمل صاحبها ، قال تعالى : ﴿ **اليوم نخْتِم على أفْواههم وَتُكَلِّمُنا أيْديهم وتَشهد أرْجُلُهم بما كانوا يعملون** ﴾ سورة ياسين : ٦٥ .

« ... **شَهِدَ عليهم سمْعُهم وأبصارُهم وجُلُودُهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لِمَ شَهِدْتُمْ علينا ؟ قالوا أنْطَقَنا اللهُ الذى أنْطَق كلَّ شىء ..** ﴾ فصّلت : ٢٠ ، ٢١ .

جـ ـ المـــيزان :

فإذا قامت الحجة ، وتقررت الحقائق ، وتحددت الأقوال والأعمال ، وصُفِّيت أحوال كل فرد على حدة ، يأتى ميزان العدل الإلهى ، الذى توضع عليه الحسنات والسيئات ، ويعطى نتيجة الحساب والمصير .

---

(١) رواه أحمد والترمذى وصححه من حديث أبى هريرة مرفوعاً .

وهو ميزان حقيقى ، لكن الله أعلم بكيفيته ، وهو أيضاً ميزان بالغ غاية الدقة ، والحسبان ، قال تعالى :

﴿ وَنَضَعُ الموازينِ القِسْطَ ليوم القيامةِ فلا تُظْلَمُ نَفْس شيئاً وإنْ كان مثقالَ حبَّةٍ مِنْ خَرْدل أتَيْنَا بها وكَفَى بنا حَاسِبِين ﴾ الأنبياء : ٤٧ .

﴿ إن اللهَ لا يَظْلِم مثقالَ ذَرَّة .. ﴾ النساء : ٤٠ .

﴿ فأمّا مَنْ ثَقُلَتْ موازينُه فهو فى عيشةٍ راضية * وأمّا مَنْ خَفّت موازينُه فأمُّه هاوِية ﴾ القارعة : ٦ ـــ ٩ .

أى مصيره إلى الهاوية ، وهى النار الحامية ، أعاذنا الله تعالى منها بفضله العظيم .

٥ ـــ الزُّمَر المسوقة إلى الجزاء :

ثم يساق الناس زمراً متتابعة إلى إحدى الدارين ، بعد نتيجة هذا الحساب الفردى ، قال تعالى :

﴿ وسِيقَ الذين كفروا إلى جهنّم زُمَراً حتّى إذا جاؤوها فُتِحَتْ أبوابُها .. ﴾ ﴿ وسيق الذين اتَّقَوْا ربَّهم إلى الجنّة زُمَراً حتى إذا جاؤوها وفُتِحَتْ أبوابُها ... ﴾ سورة الزمر : ٧١ ، ٧٣ .

والزُّمَر جمع زُمْرة ، وهى مشتقة من « **الزَّمْر** » وهو « **الصوت** » ، لأن الجماعة لا تخلو عنه غالباً ، والمراد بها هنا جماعات بعضهم على إثر بعض ، كل أمة على حدة[1] .

أىَ أنه ـــ والله أعلم ـــ بعد الحساب الفردى يحبس الأفراد حتى تجتمع كل أمة ، فتساق إلى النار أو الجنة مساقاً واحداً ، كلٌّ بما يليق به من **العنف** ، أو **اللطف** ، كما دل على ذلك القرآن الكريم فى مواضع كثيرة منها قوله تعالى :

﴿ يوم نحشُر المتقين إلى الرحمن وَفْدا * ونسوقُ المجرمين إلى جهنم وِرْدا ﴾ مريم : ٨٥ ، ٨٦ والوفد : الجماعة القادمة على ما فيه جائزة. والورد : الجماعة القادمة إلى الماء ، ولا تساق إلى الماء إلا البهائم عطاشا ،

(١) حاشية الجمل جـ ٣ ص ٦١٢ .

فهذا غاية التحقير للمجرمين ، فإذا وردوا كان جزاؤهم : ﴿ وسُقُوا ماءً حميماً فقطَّعَ أمْعَاءَهم ﴾ سورة محمد : ١٥ .

الصراط فى القرآن « تحقيق علمى » :

وقد ثبت فى السُّنة أن الصراط جسر على ظهر جهنم[١]، يمر عليه الناس جميعاً بعد الحساب ، وهو من أشد المواطن هولاً وخوفاً ، ويمرون عليه كالبرق الخاطف ، أو الريح العاصف ، أو زحفاً ... إلخ .

وقد ورد « الصراط » فى القرآن الكريم « ٤٥ » مرة بلفظه هذا ، وكلها بمعنى « الطريق » مطلقاً ، إلا ثلاث آيات تحتمل هذا ، وتحتمل « الصراط » بمعناه الوارد فى السُّنَّة (الجسر الممدود فوق جهنم) ، وهذه الآيات هى :

— ﴿ وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصِّراط لَنَاكِبُون ﴾ المؤمنون : ٧٤ .

— ﴿ ولو نشاء لَطَمسْنَا على أعينهم فاستَبَقُوا الصراطَ فأنَّى يُبْصِرُون ﴾ ياسين : ٦٦ .

— ﴿ احْشُروا الذين ظلموا وأزْوَاجَهم وما كانوا يعبدون * من دون الله فاهْدُوهم إلى صراط الجحيم ﴾ الصافات : ٢٢ — ٢٣ .

ويكاد المفسرون يجمعون على حملها على المعنى الأول فقط[٢]، إلا الإمام القرطبى — رحمه الله — فقد فسرها بهذا أيضاً ، ثم قال :

« وقد روى عن عبد الله بن سلام تأويل هذه الآية غير ما تقدم ، وتأولها على أنها فى يوم القيامة ، قال : إذا كان يوم القيامة ، ومُدّ الصراط نادى مناد فليقم محمد ﷺ وأمته ، فيقومون بَرّهم وفاجرهم ، يتبعونه ليَجُوزوا الصراط ، فإذا صاروا عليه طمس الله أعْيُنَ فجّارهم فاستبقوا الصراط فمن أين يبصرونه حتى يجاوزوه ؟ ... وكذا سائر الأنبياء،ذكره النحاس،وقد ذكرناه فى

---

(١) ثبت هذا فى أحاديث كثيرة جداً منها فى البخارى حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ ج ٧ ص ٢٠٥ باب : « الصراط جسر جهنم » .

(٢) راجعت فى هذا تفسير ابن كثير ، وفتح القدير للشوكانى ، وتفسير الخازن ، والبغوى ، وحاشية الجمل ، والمفردات للراغب ، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ، وكتاب التفسير من صحيح البخارى فى السور الثلاث .

التذكرة »[1] .

وقد جاءت آيات أخرى فى القرآن تشير إلى الصراط « بمعناه الأخروى » بغير لفظه مثل : ﴿ وإن مِّنكم إلَّا وارِدُها ... ﴾ مريم : ٧١ . فقد فسِّر الورود هنا بوجوه منها : المرور على الصراط ، فيكون ذلك وروداً لجهنم ، لأنه مضروب فوقها .

ويتقرر من هذا :

أن « الصراط » وإن كان ثابتاً بالتواتر فى السنة الشريفة ، إلا أنه لم يرد فى القرآن الكريم صراحة ، بمعناه الأخروى المحدد ، ولذلك لم نضعه فى أصول العناصر القرآنية ، التى يتكون منها الموضوع ، تأكيداً للأصول العلمية التى قررناها فى قواعد التفسير الموضوعى سابقاً ، والتى تمنع إضافة عنصر للموضوع القرآنى من خارجه ، وإنما يؤتى بالسنة النبوية وما بعدها شرحاً وتفسيراً فقط .

بيد أننى أرجح المعنى الذى ذكره الإمام القرطبى رحمه الله ، لأنه متفق تماماً مع سياق الآيات فى سورة ياسين ، ولو وجد سند صحيح لهذا الأثر ، لكان نصاً فى إثبات « "صراط » ضمن عناصر الموضوع القرآنى .

ولعل السر فى ذكر « الصراط » إشارة لا تصريحاً هو شيوع هذه العقيدة ، واستفاضتها على ألسنة الرسل ، واشتهارها بين الأمم ، مما يجعلها كالحقيقة المقررة ، والبدهيّة المُسَلَّمة ، تكفى فيها الإشارة القرآنية ، ثم تفصلها السنة النبوية ، والله تعالى أعلم بأسرار كتابه .

صفات الجنة والنار :

ولما كانت هذه هى غاية المنتهى ، ونهاية المطاف ، ودار الخلود ، استفاض القرآن الكريم فى بيان أحوالها ، ومشاهدها ، ومنازلها ، وطعام أهلها ، وشرابهم ، ولباسهم ، وسائر ما يتعلق بهم .

● أما النار ــ ونعوذ بالله منها ــ فقد فصّل القرآن دركاتها ، وطبقاتها وبلاء

---

(١) أنظر حاشية الجمل ج ٣ ص ٥٢٢ .

أهلها ، وعدد أبوابها ، واصطراخ أهلها ، من طعام الزقوم ، وشراب الصديد والحميم ، وهول الغساق والغسلين ، وثياب النار ، وبشاعة المنظر ، وغير ذلك كثير فى القرآن الكريم .

● أما الجنة ــ ونسأل الله تعالى منها الفردوس الأعلى بمنّه وكرمه ــ فقد استفاض القرآن الكريم فى بيان ظلالها ، وثمارها ، وأنهارها ، وحُورها ، وآنية الذهب والفضة فيها ، وأرائكها ونمارقها ، وحلل السندس والإستبرق على أهلها ، وحلية اللؤلؤ والذهب لرجالها ونسائها ، مع ما هم فيه من نضرة النعيم ، وأنهار الخمر واللبن والعسل ، والشراب الطهور ، ومزاج الزنجبيل والكافور ، ثم فوق هذا كله رضوان الله تعالى ، وجلال النظر إليه جل شأنه[1] ، فى دار لا تقاس بمقاييس الدنيا ، وإنما هى شيء وراء الحس والوَهْم[2] على ما قرره القرآن فى إيجاز معجز : ﴿ **فلا تَعْلَمُ نفْسٌ ما أُخْفِيَ لهم مِنْ قُرَّةِ أَعْيُن جزاء بماكانوا يعملون** ﴾ سورة السجدة : ١٧ .

والقرآن يذكر هذا كله بياناً للحقائق ، وتأسيساً للعقائد ، واستصلاحاً للناس فى دنياهم ، واستنفاذاً لهم فى أخراهم ، فضلاً من الله ونعمة ، كما قال تعالى : ﴿ **ذلك اليومُ الحقّ فمن شاء اتَّخَذَ إلى ربّه مَآباً** ﴾ النبأ : ٣٩ .

﴿ **إنّ هذه تَذْكِرة فمن شاء اتخذ إلى ربّه سبيلا** ﴾ المزمل : ١٩ .

من أساليب القرآن :

ولذلك تعددت وتنوعت أساليب القرآن العظيم فى عرض هذه الصفات ، تنوعاً عجيباً ، وتكاثرت وتناثرت فى تضاعيف الآيات والسور على طرائق شتى ، ومنها :

أ ــ إفراد ذكر الجنة أو النار فى موضع معين من السورة ، أو إفراد أحدهما فى سورة كاملة .

ولا يكاد يوجد هذا فى جانب « **الجنة** » إلا فى السور الطوال ، أو فى

---

(١) كل ما ذكرناه فى صفات النار والجنة موجودة فى القرآن نصاً ، وهو غيض من فيض .

(٢) الوهم : خطرات النفس وهواجسها ، والمعنى أن الخيال مهما امتد لا يبلغ حقيقة الجنة .

الإشارة العابرة مثل : ﴿ **أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً** ﴾[1] . سورة الفرقان : ٢٤ .

ويكاد جانب « **النار** » يتفرد بهذا الإفراد ، إزعاجاً للإنسان عن شهواته وضلاله ، وتذكيراً له بما يوقظه من غفلته ، ولذلك يكثر توجيه هذا اللون إلى طواغيت الأمم ، وأكابر مجرميها ، وعتاة مترفيها ، لأنه أدخل فى زجرهم ، أما إغراؤهم بالنعيم فلا يبلغ منهم مبلغ صاحبه ، لكثرة ما يهيمون فيه من ألوان الشهوات والملذات ، وهذا لون عجيب من الحكمة البالغة التى بُنِيَ عليها القرآن العظيم .

وهناك جانب آخر لكثرة إفراد النار ، وهو مناسبة فطرة الإنسان فى إيثاره السلامة من الخطر على اللّذة ، ولذلك كان أعظم الآمال يوم القيامة ليس طلب النعيم ابتداء ، وإنما النجاة من هول القيامة ، وبلاء النار ، ولو بالموت والعدم المحض ، وهذه أكبر أمنية لأهل النار : ﴿ **ونادَوْا يا مالِكُ ليقْض علينا ربُّك** ﴾[2] .

ولعل هذا هو حكمة ورود « المؤمنين » على النار ، ليروا مقدار فضل الله عليهم بالنجاة من هذا الهول ، ثم مضاعفة فضله بالنعيم .

ومن أمثلة هذا فى القرآن قوله تعالى :

● ﴿ **كلا لَيُنبَذَنّ فى الحُطَمَة * وما أدْراك ما الحُطَمة * نار الله المُوقَدَة** ﴾ الهمزة : ٤ — ٦ . والآية الكريمة نزلت فى طاغية قريش « أمية بن خلف » وأمثاله ، والحطمة النار التى تحطم كل ما يلقى فيها .

● وقال تعالى عن أبى لهب ﴿ **سيَصْلى ناراً ذات لَهَب** ﴾ سورة المسد : ٣ .

● وقال سبحانه عن فرعون هذه الأمة أبى جهل ﴿ **فليدْعِ نادِيَة * سَنَدْعُ الزَّبانِيَة** ﴾ العلق : ١٧ — ١٨ . ولم يَرِدْ فى السور الثلاث ذِكر للجنة ، وهذا كثير فى القرآن الكريم .

---

(١) ذكرت النار قبلها فى أول السورة ، ثم فصل بينها بكلام عن الكفار ، وجدلهم وعنادهم .

(٢) سورة الزخرف : ٧٧ ، ومالك هو خازن النار .

ب ـــ عرض **مشاهد النعيم والجحيم مقترنين متجاورين** ، حتى تكتمل دائماً لدى الإنسان صورة الجزاء بشقيه ، فتوقع فى نفسه وحِسّه موازنة حاضرة بين المصيرين ، وبذلك يساق إلى النجاة من جميع جوانبه ، ويؤخذ عليه التأثير من جميع أقطاره ، فيختار على وعى وفهم أحد الأمرين ، ويحيا أو يهلك على بينة .

وهذا الضرب هو **غالب أساليب القرآن** فى الحديث عن الجنة أو النار ، ولذلك نجده شائعاً مستفيضاً فى معظم سور القرآن الكريم ، فى الآية الواحدة ، وفى الآيتين ، وفى الجملة من الآيات ، وفى الموضع الواحد ، والعديد من مواضع السورة أحياناً ، ويكثر هذا فى المفصل من السور الكريمة ، لأنه نزل تأسيساً للعقائد ، مثل : النبأ ، والغاشية ، والبينة ، والقارعة .

بل هناك سور كريمة تشكل هذه المقارنة طابعها العام الغالب ، خاصة بعد ذِكر شىء من مشاهد القيامة مثل :

● سورة « **الرحمن** » التى تقارن بين النار ، والجنات المتعددة فى نحو من نصفها .

● وسورة « **الواقعة** » كذلك ، حين قارنت بين الأزواج الثلاثة : « السابقون ، وأصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال » فى نحو ثلثيها .

● وتكاد سورة « **الحاقة** » تكون كلها فى هذه المقارنة ، والمشاهد الممهدة للجزاء .

● ولقد كان رسول الله ﷺ يكثر من تذكير المسلمين كل أسبوع بهذه المعانى مقترنة ، وذلك بقراءة سورتى « **السجدة** ، **والإنسان** » فى صلاة فجر الجمعة ، وبقراءة سورة « **ق** » على المنبر فى خطبة الجمعة .

ومن **الإعجاز المدهش** أن كل سورة من هذه السور جميعاً تضمنت معانى ، وحقائق ، وأساليب جديدة وعديدة مع أن الموضوع واحد .

وعلى سبيل المثال ــ لا الحصر ــ نجد أن :

● سورة « **ق** » وردت فيها آية لم ترد فى سواها هى قوله تعالى ﴿ **يوم نقُول**

لجهنم هل امتلأتِ وتقول هلْ مِن مَّزيد ﴾ ٣٠ .

● وسورة « السجدة » تفردت بوصف للجنة لم يأت فى أخواتها :
﴿ فلا تعلم نفس ... ﴾ الآية : ١٧ .

● وسورة « الإنسان » وردت فيها أوصاف للجنة لم ترد فى غيرها مثل :
﴿ مُتَّكِئِين فيها على الأَرَائِك لا يَرَوْن فيها شمْساً ولا زَمْهَرِيرا ﴾ ١٣ .

﴿ وأكْوابٍ كانت قواريرا * قوارِيرَا مِن فِضّة ... ﴾ ١٥ ، ١٦ .

﴿ وَيُسْقَوْنَ فيها كأْساً كان مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلَا ﴾ ١٧ .

فنفى الشمس والزمهرير ، وإثبات القوارير ، ومزاج الزنجبيل لم يأت إلا فى هذه السورة الكريمة .

● وسورة « الرحمن » تفردت بأوصاف للنار والجنة لم ترد فى غيرها :

﴿ هذه جهنم التى يُكَذِّبُ بها المجرمون * يَطُوفون بينْها وبَيْن حَمِيمٍ آنٍ ﴾ ٤٣ ، ٤٤ .

﴿ كأنَّهُن الْيَاقوت والْمَرْجَان ﴾ ٥٨ .

أمثله قرآنية جامعـة :

قد تقرر إذن استفاضة هذا اللون فى القرآن العظيم ، ولذلك نكتفى بذكر بعض الأمثلة القرآنية الجامعة ، التى تقترن فيها الصورتان :

● قال تعالى فى آية واحدة جامعة :

﴿ مَثَلُ الجنة التى وُعِد المتقون فيها أنْهارٌ مِن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وأَنْهار مِن خمر لَذَّةٍ للشاربين ، وأنهار مِنْ عَسَل مُصَفًّى ، ولهم فيها مِنْ كلّ الثمرات ومغفرة من ربهم ، كمن هو خالد فى النار وسُقُوا ماءً حميماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهم ﴾ سورة محمد : ١٥ .

● وقال تعالى فى آيتين جامعتين :

﴿ إنَّ الذين كفروا بآيتنا سوف نُصْلِيهم ناراً كلَّما نَضِجَتْ جلودُهم

بَدَّلْناهم جلوداً غَيْرَها لِيَذُوقوا العذاب إنَّ الله كان عزيزاً حكيما * والذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحات سندخلهم جنات تجْرى مِنْ تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مُطَهَّرة ونُدْخِلهم ظِلاً ظَلِيلا ﴾ النساء : ٥٦ ، ٥٧ .

● وقال تعالى فى آيات متتابعة :

﴿ هذان خَصْمان اخْتَصموا فى ربهم فالذين كفروا قُطِّعَتْ لهم ثِيَابٌ مِن نارٍ يُصَبُّ مِن فوقَ رؤوسهم الحميم * يُصْهَرُ به ما فى بطونهم والجلود * ولهم مَقَامِعُ من حديد * ولهم مقامِعُ مِن حديد * كلّما أرادوا أنْ يخرجوا منها من غمٍّ أعيدوا فيها وذوقوا عذابَ الحريق *

إنَّ الله يُدْخِلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ جنّاتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ يُحَلَّونَ فيها من أسَاوِرَ من ذهب ولُؤْلُؤاً ولباسهم فيها حرير * وهُدُوا إلى الطَّيِّب من القولِ وهدوا إلى صراطِ الحميد ﴾ سورة الحج : ١٩ ــ ٢٤ .

تنبيهان مهمان :

ولا يفوتنا فى ختام هذا الموضوع أن ننبه إلى أمرين غاية فى الأهمية :

التنبيه الأول : الخلود الأبدى :

فقد أكد القرآن تأكيداً قاطعاً أن الجنة والنار خالدتين أبداً ، لا فناء لهما ، ولا انقطاع فيهما ، ولا موت لأهلهما ، وإنما هى حياة الأبد ، والخلود السرمدى .

وقد ورد هذا فى القرآن الكريم بأساليب كثيرة جداً أشهرها أسلوب « الخلود الأبدى » .

ذلك لأن معنى **الخلود هوالمكث الطويل** ، « وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد تصفه العرب بالخلود ، كقولهم لِلأثَافِى خوالد ، وذلك لطول مكثها لا لدوام بقائها »[1] .

---

(١) المفردات للراغب مادة « خلد » ص ١٥٤ ، والأثافى : الحجارة التى يوضع عليها القِدْر على النار .

ولذلك أكد الله تعالى خلود الجنة والنار « **بالأبديّة** » ليخرجه من المكث الطويل إلى البقاء الدائم ، لأن معنى الأبد « مدة الزمان الممتد ، الذى لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان »[1] .

وقد ورد تأكيد الجنة بالخلود الأبدى فى « **تسع آيات** » ، وورد تأكيد خلود النار بالأبدية « **ثلاث مرات** »[2] « الآية : ١٦٩ سورة النساء ، والآية : ٦٥ الأحزاب ، والآية : ٢٣ الجن » .

هذا عدا الآيات الأخرى ــ بغير هذا الأسلوب ــ مثل قوله تعالى : ﴿ **يُرِيدُون أَنْ يَخْرُجوا مِنَ النَّارِ وما هم بِخَارِجين منها ولهم عذاب مقيم** ﴾ المائدة : ٣٧ .

ففى الآية الكريمة نفى للخروج منها ، وإثبات للعذاب الدائم .

ويقول تعالى عن أهل الجنة : ﴿ **لا يَمَسُّهم فيها نَصَبٌ وما هم منها بِمُخْرَجين** ﴾ الحجر : ٤٨ .

ولا يحل لمسلم أن يتأول هذه الآيات بأدنى شىء يخالف ظاهرها وحقيقتها ، ومن قال بغير ذلك فقد خالف صريح القرآن ، وكذّب متواتر السنة ، وكفر بدين الله كفراً مبينا ، نعوذ بالله تعالى من فتنة القول والعمل .

التنبيه الثانى : البعث والجزاء حقائق مؤكدة :

فليس البعث تَرَقِّياً روحياً كما زعم الزنادقة والملحدون فى آيات الله ، وليس فيه أى تصوير مجازى ، وإنما هو حقائق أكيدة ، سواء فى انقلاب الكون وتصدعه بأمر ربه ، لا باستنفاد طاقته كما يزعم الملاحدة المعاصرون ، أو قيام جميع الناس فيه بذواتهم ، وأوصافهم ، وأجسامهم ، ونطق جوارحهم نطقاً حقيقياً ، ووزن الأعمال وزناً حقيقياً ، (وعلم الكيفية عند الله تعالى ...) وهكذا كل حقائق النشأة الآخرة ..

ومن هنا يتقرر أن العذاب ، والنعيم كلاهما أمر حقيقى ، وليس جزاء

(١) المفردات للراغب مادة « أبد » ص ٨ .

(٢) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص ١ .

روحياً ، أو فكرياً ، أو ترقياً إلى ما يشبه الملائكة فى الجنة كما زعمت النصارى وأمثالهم ، فإن هذا وأمثاله ، كلها ضروب من جدليات الفكر البشرى ، وأضاليله التى تخالف حقائق الوحى الإلهى ، على ألسنة الرسل جميعاً ، والتى يمثلها القرآن جميعاً أصدق تمثيل ، لأنه كتاب محفوظ بلفظه وحروفه ، ولم يتطرق إليه أدنى شائبة من التحريف أو التغيير ، بفضل الوعد الإلهى الكريم .

ومن يتأمل القرآن الكريم يجده على غاية الصراحة فى إثبات الحقيقة الكاملة لكل أحوال النشأة الآخرة .

وقد قرأنا فى الآيات السابقة أن أهل النار يُسْقون ماءً حاراً فيقطع أمعاءهم ، وتقطع لهم ثياب من نار ، وتنضج جلودهم من النار ، وتبدّل دائماً ... إلخ ، وكل هذه معان حسية واضحة محددة .

وكذلك قرأنا فى أوصاف أهل الجنة شرابهم من أنهار اللبن والعسل والخمر ، وإثبات رائحة الكافور والزنجبيل ، وكسوتهم بالحرير ، وتحليتهم بالذهب واللؤلؤ ... إلخ ، وهذه أمور حسية محددة وصريحة .

فلا يحل لمسلم قط أن يتأول هذه الآيات والمعانى ، أو أن يصرفها عن ظاهر الكلام العربى ،والمدلول الشرعى الذى فهمه النبى ﷺ ، وأفهمه أصحابه ، وتواتر تواتر اليقين والبدهيات .

على أننا ننبه هنا إلى أمر ضرورى هو : أن قوانين الحياة الأخرى ستختلف عن الدنيا ، حتى تناسب أهلها ، فلا يصح قياس هذه على تلك .

فقوانين الله فى الدنيا تحكم باحتراق الجسد من أدنى النار .

وقوانين الله تعالى فى الآخرة تحكم ببقاء الجسد رغم هذا الهول ، كما هو صريح القرآن : ﴿ ... ويأتيه الموتُ مِنْ كلّ مكان وما هو بِمَيّتٍ .. ﴾ سورة إبراهيم : ١٧ وكذلك فى الجنة يكون النعيم للأجساد ، فتلذ الأعين ، وتسمع الأذن كل طيب ، ولهم فيها أزواج مطهرة ، ويأكلون ويشربون ، ويكونون على سرر متقابلين ، وينزع الغل من قلوبهم ، وغير ذلك من الأمور التى يراد بها حقائقها .

لكن الأجساد تعطى خصائص جديدة ، ويكون لها من النعيم الحسى ما يناسب جلالها وعظمتها ، ولذلك كان ابن عباس رضى الله عنهما يقول : « ليس فى الدنيا مما فى الجنة شيء إلا الأسماء »[1] أى أن فيها فاكهة ليست كفاكهة الدنيا ، فالاسم واحد ، والحقيقة مختلفة،والكمال فى جانب الجنة ، وهكذا فى كل شيء .

ولعل أجمع ما يبيّن هذه الحقيقة هو الحديث القدسى الشريف عن النبى ﷺ : « قال الله تعالى : أعْدَدْت لعبادى الصالحين ما لَا عَيْن رأت،ولا أُذُن سمعت ، ولا خَطَر على قلب بشر » قال أبو هريرة : واقرأوا إن شئتم : ﴿ فلا تَعْلَم نفْس ما أُخفِيَ لهم مِن قُرَّة أعْيُن ﴾[2] .

اللهم يا حى يا قيوم .
يا ذا الجلال والإكرام .
اجعلنا من أهل الفردوس الأعلى بفضلك العظيم .
وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * * *

---

(١) انظر فتح القدير للشوكانى ج ١ ص ٥٥ فى تفسير الآية رقم ٢٥ من سورة البقرة ، وقد عزاه إلى ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم .

(٢) الحديث رواه البخارى ومسلم وغيرهما ، وانظر البخارى ج ٦ ص ٢١ تفسير سورة « تنزيل السجدة » ، والآية المذكورة رقم : ١٧ منها .

« المراجــع والمصــادر[١] »

أولاً : القرآن الكريم وتفسيره وعلومه :

١ ــ القرآن الكريم[٢]

٢ ــ جامع البيان ... ــ للإمام محمد بن جرير الطبرى .

٣ ــ تفسير القرآن العظيم ــ للإمام ابن كثير .

٤ ــ معالم التنزيل ... ــ للإمام البغوى .

٥ ــ فتح القدير ... ــ للإمام الشوكانى .

٦ ــ لباب التأويل ... ــ للإمام الخازن .

٧ ــ مفاتيح الغيب ... ــ للإمام الفخر الرازى .

٨ ــ إرشاد العقل السليم ... ــ للإمام أبى السعود .

٩ ــ أنوار التنزيل ... ــ للإمام البيضاوى .

١٠ ــ تفسير الجلالين ــ للإمامين : جلال الدين السيوطى ، وجلال الدين المحلى .

١١ ــ الفتوحات الإلهية[٣] ... ــ للإمام سليمان بن عمر الشهير (بالجمل) .

١٢ ــ حاشية الصاوى على الجلالين ــ للإمام أحمد الصاوى .

١٣ ــ فى ظلال القرآن ــ للشهيد سيد قطب .

١٤ ــ نيل المرام من تفسير آيات الأحكام ــ للإمام محمد صدّيق خان .

١٥ ــ أقسام القرآن ــ للإمام ابن القيّم .

---

(١) راعينا فى ترتيبها عدة اعتبارات ، كالتقارب الموضوعى ، والزمنى ماأمكن .

(٢) أرقام الآيات الكريمة مأخوذة من المصحف الشريف المطبوع فى مصر عام ١٣٤٢ هـ وجاء فى تعريف العلماء الذين أشرفوا على إخراجه أنه : « اتُّبِعت فى عَدِّ آياته طريقة الكوفيين ، عن أبى عبد الرحمن عبدالله بن حبيب السُّلَمِىّ ، عن على بن أبى طالب ... وآى القرآن على طريقتهم : ٦٢٣٦ » .

(٣) اشتهرت بحاشية الجمل على الجلالين .

١٦ ـــ تأويل مشكل القرآن ـ للإمام ابن قتيبة .
١٧ ـــ المفـــردات ـ للإمام الراغب الأصفهانى .
١٨ ـــ نزهة القلوب فى تفسير غريب القرآن ـ للإمام أبى بكر السجستانى .
١٩ ـــ مقدمة فى أصول التفسير ـ للإمام ابن تيمية (تحقيق الدكتور : عدنان زرزور) .
٢٠ ـــ التفسير البيانى للقرآن الكريم ـ للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) .
٢١ ـــ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى .
٢٢ ـــ معجم ألفاظ القرآن الكريم ـ مجمع اللغة العربية بالقاهرة .
٢٣ ـــ المعجم المفهرس لموضوعات القرآن ـ للدكتور عبد الصبور مرزوق [١].
٢٤ ـــ معجم غريب القرآن مستخرجا من البخارى ـ للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى .
٢٥ ـــ دراسات لأسلوب القرآن الكريم[٢] ـ للشيخ محمد عبد الخالق عضيمة .
٢٦ ـــ أسرار التكرار فى القرآن[٣] ـ للإمام الكرمانى (تحقيق الأستاذ عبد القادر عطا) .
٢٧ ـــ تفصيل آيات القرآن الحكيم ـ للمستشرق جول لابوم[٤] .
٢٨ ـــ المستـــدرك ـ للمستشرق إدوار مونتيه[٤] .
٢٩ ـــ الإتقان فى علوم القرآن ـ للإمام جلال الدين السيوطى .
٣٠ ـــ البرهان فى علوم القرآن ـ للإمام بدر الدين الزركشى .

---

(١) مخطوط وقد أشرت إليه سابقا (ص ٣٨) .
(٢) يقع فى أحد عشر مجلدا ، ومطبوع فى مطبعة السعادة ، ومطبعة حسان بالقاهرة .
(٣) اسم الكتاب الأصلى : « البرهان فى توجيه متشابه القرآن ... » طبعة دار الاعتصام بالقاهرة .
(٤) نقلهما إلى العربية الشيخ محمد فؤاد عبد الباقى رحمه الله ، وجعلهما فى مجلد واحد كبير ، (انظر الطبعة الثانية : ١٣٧٤ هـ ـــ ١٩٥٤ م) .

٣١ ــ منهج الفرقان فى علوم القرآن ــ للشيخ محمد على سلامة .

٣٢ ــ مناهل العرفان فى علوم القرآن ــ للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى .

٣٣ ــ المدخل لدراسة القرآن الكريم ــ للدكتور محمد أبى شهبة .

٣٤ ــ التفسير والمفسرون ــ للدكتور محمد حسين الذهبى .

٣٥ ــ التفسير الموضوعى للقرآن الكريم ــ للدكتور أحمد السيد الكومى

٣٦ ــ البداية فى التفسير الموضوعى ــ للدكتور عبد الحىّ الفرماوى

٣٧ ــ محاضرات فى التفسير الموضوعى (١) ــ للشيخ فوزى السيد عثمان

٣٨ ــ النبأ العظيم ــ للدكتور محمد عبد الله دراز

٣٩ ــ مدخل إلى القرآن الكريم ــ للدكتور محمد عبد الله دراز (ترجمة الأستاذ محمد عبد العظيم) .

٤٠ ــ المنهاج القرآنى فى التشريع ــ للمؤلف (رسالة دكتوراه ــ مكتبة كلية أصول الدين بالقاهرة) .

٤١ ــ معركة الوجود بين القرآن والتلمود ــ للمؤلف .

٤٢ ــ اليهود فى القرآن ــ للشيخ محمد عزة دروزه .

٤٣ ــ الصبر فى القرآن ــ للدكتور يوسف القرضاوى .

٤٤ ــ اليهود فى القرآن ــ للأستاذ عفيف طبارة .

٤٥ ــ الإنسان فى القرآن ــ للأستاذ عباس العقاد .

٤٦ ــ دلائل النظام ــ للإمام عبد الحميد الفراهى (٢) .

٤٧ ــ إمعان النظر فى نظام الآى والسور ــ للشيخ محمد عناية الله محمد هداية الله (٣) .

٤٨ ــ الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم ــ للدكتور محمد محمود حجازى .

٤٩ ــ الوحى المحمدى ــ للشيخ محمد رشيد رضا .

---

(١) رسالة صغيرة (مطبعة الآداب بسوهاج ، مكتبة الشعب ١٩٦٠ م) .

(٢) مطبعة الدائرة الحميدية ــ الهند ــ ١٣٨٨ هـ .

(٣) رسالة مقدمة لكلية أصول الدين بالرياض (١٤٠١ هـ ــ ١٩٨١ م) .

ثانياً : الحديث النبوى وعلومــــه :

٥٠ ــ الجامع الصحيح ـ للإمام محمد بن إسماعيل البخارى .

٥١ ــ صحيح مسـلم ـ للإمام مسلم بن الحجاج .

٥٢ ــ فتح البارى بشرح صحيح البخارى [١] ـ للإمام الحافظ ابن حجر العسقلانى

٥٣ ــ الصحيح المسند من أسباب النزول ـ للشيخ مقبل بن هادى الوادعى .

٥٤ ــ الفتح الكبير فى ضم الزيادة إلى الجامع الصغير ـ ترتيب الشيخ يوسف النبهانى [٢]

٥٥ ــ الوضع فى الحديث ـ للدكتور عمر بن حسن عثمان فلاته

٥٦ ــ قواعد فى علوم الحديث ـ للشيخ التهانوى (تحقيق الشيخ أبى غُدَّة) .

كُتب اللغـــة :

٥٧ ــ الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) ـ للإمام إسماعيل بن حماد الجوهرى (تحقيق أحمد عبد الغفور عطَّار).

٥٨ ــ القاموس المحيط ـ للإمام الفيروزباى .

٥٩ ــ المختار من صحاح اللغة ـ للشيخين محيى الدين عبد الحميد ، والسبكى .

٦٠ ــ مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ـ للإمام ابن هشام الأنصارى - المصرى .

رابعاً : كتب مُنوّعـــة :

٦١ ــ الأسماء والصفات ـ للإمام البيهقى .

---

(١) تحقيق وترقيم ومقابلة الشيخ عبد العزيز بن باز ، والأستاذ محمد فؤاد عبد الباق ، ومحب الدين الخطيب .

(٢) الزيادة ، والجامع الصغير كلاهما للسيوطى رحمه الله .

٦٢ ــ تحرير القواعد المنطقية ... ــ للإمام قطب الدين الرازى

٦٣ ــ تهافت الفلاسفة ــ للإمام أبى حامد الغزالى .

٦٤ ــ جامع العلوم والحكم ــ للإمام ابن رجب الحنبلى .

٦٥ ــ الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام ــ للمؤلـــف .

* * * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحــة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحة

﴿ تم بحمد الله وفضله ﴾

رقم الإيداع ٣٠٥٣ / ٨٦

هــذا الكتــــاب

التفسير الموضوعى : علم قديم النشأة ، جديد الوجهة ، ينهض فى أوانه المقدور ، شاهدا جديدا على الإعجاز المتجدد مع العصور ، وملبّيا حاجة البشرية إلى الهداية الربانية .

وقـد شــاع : التأليف فى هذا اللون التفسيرى ، واهتم به العلماء ، والجامعات ، لكنه لايزال فى مراحله الأولى ، يحتاج إلى ضبط علمى شامل ، ليكون خليقاً بالانتساب إلى القرآن ، وليتبوَّأ مكانته العليا من علوم الإسلام .

وهـذا الكتــاب : محاولة علمية جادة ، لتحديد معالم هذا العلم الجديد ، وخطوة فى الطريق الصحيح لضبط حقائقه وأصوله ، وردّ متفرقاته إلى خطوطها الجامعة ، حتى تقوم لنا خطة علمية محكمة ، تكون معياراً للتأليف ، وميزانا للنمط العلمى المطلوب ، فى الكتب والرسائل العلمية المفردة ، ثم ليقوم على أساسها فى النهاية : (التفسير الموضوعى الجامع) ، على نمط موسوعات التفسير التحليلى ، ليسد حاجة المكتبة الإسلامية علميا ، ويلبى حاجة الأمة الإسلامية عمل ويقيم حجة القرآن فى هذا الزمان ، وأنه غاية الكمال والتمام .